عواصف الجنين

عباس مدحت البياتي

رواية

أَخلِصْ لربِّك فيما كان مِن عملٍ

ولْيَتَّفِقْ منك إسرارٌ وإعلانُ

فـكلُّ فكـرٍ لغيـرِ اللّهِ وسوسـةٌ

وكلُّ ذكرٍ لغيرِ اللّهِ نسيانُ

- بهاء الدين زهير

عواصف الجنين

رواية

الكاتب

عباس مدحت البياتي

إهداء

اهدي روايتي الجميلة للجميلة جنان بطلة الرواية.. ولهنادي التي أطرقت عليّ فكرة الرواية.. ولكل نساء الأرض...

اهديها لكل فتاة مقبلة على الزواج وأنصحها قراءة الرواية لتزداد ثقة واعتدادا بالنفس، لكل إمرأة تجد ذاتها وقيمتها في محبة زوجها وأولادها.

1- جنان

لم تكن جنان سوى شابة غضة في ربيعها الأول، تفتحت على أملٍ لم يكتمل. كانت تتوق إلى الاستقرار، إلى القبول، إلى حياةٍ تُشبه الحلم الذي رسمته في خيالها وهي صبية. لكنها لم تكن تعلم أن القدر كان ينسج لها طريقًا آخر، طريقًا يفضي بها إلى عزلةٍ قاسية، إلى غربةٍ تتغلغل في أعماقها، لذا أوكلت قدرها إلى الظرف أعسر، ليرمي بها في فيافي الصمت كزنبقة ناهدة تعاني الغربة، لتعيش فترة حرجة من عمرها وهي أسيرة الظن والسكون، ضمن دائرة الوحدة ورتابة زمن مغل.

ما أن رضيت بتغيير واقعها، ما أن رضيت بتبديل منهجها وهي تقف على وتد الأحلام كطير مهاجر؛ حتى تبدلت أوضاعها، انقلبت رأسا على عقب منذ أن وقّعت على قسيمة الزواج بإبهامها في 2020/9/20، لم تكن تدرك أنها كانت توقّع على بداية رحلةٍ لم تخترها، على واقعٍ سينقلب رأسًا على عقب، على مصيرٍ سيقذف بها إلى مجهولٍ لم تتوقعه. كانت تحلم بالدفء، بالحب، بالاستقرار، لكنها وجدت نفسها أسيرة القدر، مكبّلةً بالرجاء، كأنها مركبٌ هشٌّ تلاعبت به أمواجٌ مغتاظة، دفعتها رياح التغيير نحو واحةٍ من التحدي دون تكافؤٍ أو سند.

هكذا جزلَ الظرف رغبتها، لتعيش واقعًا جديدًا، مشتّتًا، غريبًا، لم تألفه، لم تتوقعه، قذف بها المصير كبذرةٍ حرةٍ في حقلٍ من

الحيرة، بلا معينٍ أو سند. أنثى لدنةٌ، مجبرةٌ على التعايش مع خشونةٍ ووحدةٍ مغلقةٍ أهزلت حيويتها، خنقت سعادتها، تركتها أسيرة شوق، مكبّلة اليدين والرجلين، مرميةً في زاويةٍ من كامب المهاجرين، في منطقة شنيبر جنوب شرق ألمانيا، بعيدةً كل البعد عن أحلامها وغاياتها، عن زوجها وحبيبها وفرحتها وتأملاتها... وهكذا في أول أسبوعٍ من زواجها، أدركت وزوجها- كأنها بزوجها قد جنت على نفسها براقش. وأن الحياة التي حلمت بها لم تكن سوى سرابٍ تلاشى في أول منعطفٍ من الطريق.

هكذا جار عليها الزمن وهكذا بقيت تلوك رحى قدرها بشيء من العناء والضنك، وكأنها قُيِدَتْ بعين القذف والحسد. بدتْ مرتبكة، مهمومة، لائذة بين جنوح عاطفة أذلتها وإغواء وجد شائك زق بها خلف أسوار أمنياتها ورغباتها، لتعيش فترة حرجة، مغشية بحيرة مرة، بين اسفاف يقظة ووجوم غفلة.

وكأنها لم تصغي إلى العقل قط، ولا قرأت تجارب الآخرين ولم تتمعن بها. كانت بمنأى من الحقيقة الصادمة، في بقعة صماء جدا، عزلت نفسها كليا عن المحيطين بها، كي لا تفسدْ حلمها الأعين اللماحة. كي لا تصاب خدودها بورس الحسد. جنبت ذاتها مهاو الشك، تجنبت لحظة التصادم قدر الإمكان، كي لا تنعكس عليها تلك الظلال المخيفة، كي تتجاوز خط النار المحذور... ومع ذلك وقعت في المطب. فلم تتمكن من تجاوز تلك المنافذ التي جعلتها أمثولة الزمن على صفحات التجارب المرة، تركتها تشكي غصة قدرها والأيام الماجنة التي حاقت

بهـا دون إرادة منهـا ودون أن تسـتطيع تغييـر واجهـة واقعهـا. هكـذا بقيـت تائهـة فـي الطريـق كقشـة تلاعبـت بهـا ريـح سـهجة. هكـذا جـاح قـدرها بـين نبـل الأشـواك والأشـواق. بقـي يصـر أذنيهـا صـفير جنـون دون هـوادة؛ حتـى وهنـت قواهـا وضـعف عزمهـا، حتـى اشـتدت عليهـا عاصـفة الآهـات والشـجن. كانـت قـد عتتهـا فريـة الأهـواء لفـلاة الصـمت، خلـف أثـر حلـم تأملتـه كثيـرا منـذ الصـغر، لتعـيش سـاعات شـتات مـرة وهـي لازالـت عـروس علـى أول أعتاب زفافها.

تلـك الفتـاة الفاتنـة المـراءة بـين جوقـة الفتيـات كالبـدر، بقيـت معصـوبة العينـين، مركونـة داخـل قـوس القـدر، كحجـر لا روح فيهـا ولا نفـس، لا أحـد يبـالي بهـا أو يراعيهـا. مغموسـة بسـكينة لاذعـة وصـمت مـر، كجـرح يعـاني ألمـه تحـت وقـع وحـدة لعينـة ماجنة، مليئة بأشواك الشك والريبة.

جنـان الفاتنـة، حاصـرتها أجـواء رعنـاء، غازلهـا زمـن أفـن وهمـوم وعثـاء، أزمـات تبعـت بعضـها، سـخط خـانق وجـذب دميم حادهـا مـن كـل حـدب وصـوب. كانـت قـد ارهقتهـا وعكـة أغْضـت جفنيهـا، لتجـد ذاتهـا محاطـة بفجـوة لا تسـتطيع أن تتفـادى مخاوفهـا. قبعـت مجبـرة تحـت لهـاث صـبر مـر دون أن تجيلهـا حيرتهـا علـى تجـاوز عجزهـا، دون أن تتجـاوز جفـوة قفـر المتاهـة المحيطـة بهـا، دون أن تجـد لصـوتها صـدى يرتـد إليهـا فـي تلـك الوحـدة المقيتـة وهـي تشنف الحظ والقدر بعين خجلة.

هكـذا ضـلعها الظـرف لتقضـي أيامـا مريـرة فـي كامـب شـنيير للمهـاجرين وهـي تتأمـل بـزوغ هـلال العيـد بـين مسـارات الشـك

الحزينة ضمن أيامها المنتحرة على رصيف الزمن العابر، تلك المتدحرجة في مسارات الحياة بين صبر مر وألم بغيض، تتساقط ثوانيه كأحجار مؤذية، شاكية الزمن وروتين ودائرة الهجرة الألمانية التي أخلّتْ بأحلامها وعبثت بأصداف محاسنها؛ تلك التي تمادت في دراسة ملفها، فلم تميزها عن بقية المهاجرين عبر أشهر وشهور.

بقيت تعيش وضعها وضعفها وهيَّ ترنوا إلى شروق شمس الصباح لتذيب صقيع الشتاء المجحف وجلد الظرف المشين والقدر المغل الذي رماها في تلك المسارات العقيمة بين هؤلاء الموظفين المتزمتين، الذين لا ينظرون إلا بعين واحدة ولجهة واحدة. لن ينهجوا منهجا مغايرا لدستورهم المعقد يتطرقون به وجها جديدا للإنسانية، مقيدون جدا. سائرون في طريق ضيق لا عودة فيه.. هكذا كانت قد رسمت لهم دساتيرهم العقيمة المسار دون نقاش، فما عليهم سوى الالتزام بالقواعد بحذافيرها. سوى تنفيذ ما مناط إليهم. متبعين ارشادات دائرتهم وتعاليمها دون هذر ورأفة، دون أن يحيدوا عن المسار المعتاد قيد شعرة.... ما على الموظفين سوى أن يمضوا بتطبيقِ مسلمات تلك القواعد والقوانين الرصينة حَرفيًا؛ حتى لو كان على حساب الصحة الذاتية أو الحالة النفسية، رغم قناعتهم بعجرفتها.

أنها نقطة تقاطع ثقافات، فاصلة تحد الشرق عن الغرب، بادئة أقدار وعقبات وقرارات وتقبل الصعاب وتحمل الصراعات على حساب إنسانية الإنسان وحاجته الذاتية والبدنية والنفسية

والروحية. هذا ما زاد من سعة الهوة بين الشخص المهاجر والموظف المسؤول في دائرة الهجرة الذي يتعامل مع المهاجر بمهنية عالية كتعامله مع الآلة التي لا تملك أحاسيس ومشاعر.

على ضوء ذلك وجدت جنان ذاتها أسيرة عقد كيفما شاء الحظ، وجدت ذاتها أسيرة قضبان ليس لها وصف. لا تعلم كيف ستجيل تلك العقد عن مسارات الطرق؟ كيف ستنتقم لذاتها من الظرف السليط الذي أوكل سعيها لهمجية القدر وخيبة الموظفين، وكيف تتعامل مع الذي أوهمها بتفاؤل مخنوق مبهم بين أوراق هؤلاء الموظفين؟...

كيف تعوض النفس الأبية عن أهم فترات حياتها وهي لازالت ترتدي بدلة العرس البيضاء؟ متى ستشف آلامها، متى تشفق عليها السماء بنور يسلك لها دروبها المظلمة المجهولة وهي سائرة على راحلة الصبر والهوان؟ متى سترتدي ذاتها اللطيفة التي تعودت عليها قبل أن تبصم على عقد القران؟ متى ستتحرر من القيود وهي قابعة تحت تلك الظروف الشائكة المتقلبة المخيبة؟.. هكذا بقيت تتأمل استفاقة الحظ من سباته، ليرشدها لوهدة الحياة الطبيعية قرب زوجها.

هكذا إذا مال بها خط الحظ ليسقط من قمة البهجة بها كحجر لجوف القدر المظلم، أغشاها وأغشى أحلامها على حين غفلة، أعشقها في صرة العذابات بين رتق يأس مصفر ووحِدّة دهماء مذلة. زمن جعلها تمسك دلو حياةٍ مثقوبٍ بيد وأحلام وأمنيات بيد، دون أن يمتلئ قِدْرها بجزء من رغباتها. مال بها الحظ

لتركن ذاتها إلى وحدة مجنة في غرفة من غرف كامب شنيبر السيء الصيت في سكسونيا الجنوبية.

الكامب بناء ضخم مكون من ثلاث بنايات متشابهة كل واحدة منها تتكون من خمسة طوابق وعنابر بطول مئة متر، مسيجة بسياج حديدي كقضبان السجن وبارتفاع ثلاثة أمتار، معد لاستقبال وتدريب العناصر المستجدة من تلامذة كلية الشرطة. هذه الثكنة العسكرية كانت قد استأجرتها دائرة الهجرة...

بموقعه العتيد وشكله الخارجي والداخلي الكلاسيكي يعد أشبه بمنفى للمجرمين والعابثين، لقسوة التضاريس ولقربها من حدود دولة الجيك، مطروح فوق هضبة تحيطها مجموعة هضاب ووديان سحيقة، يبعد عن مركز المدينة مسافة 4- 5 كم. المدينة مغمورة في وديان متشعبة ومنحدرات شتى شمالا. التشديد المتبع من قبل إدارة وحراس الكامب والمتبعة لنظم وقواعد عسكرية وقوانين مسلم بها تخص دائرة الهجرة. إضافة لظرف الطقس البائس والتضاريس المعقدة، فأن المكان لقسوته لا يطاق، إضافة لما يُتَبع فيه من نظام مسنة في إدارة ملفات المهاجرين. المبنى معد في الأساس لتدريب تلامذة الشرطة، ليتحملوا قسوة الظرف والطقس المتقلب والتضاريس المعقدة، لا أن يزج به النساء والأطفال والعجزة، فذلك يعد مخالفة للإنسانية.

وضعت جنان في هذا القفص لدراسة ملفها بعد أسبوع فقط من دخولها القفص الذهبي، هجست به قفص مجن لا يرنوا إلى حقيقة أسمه، بعد أن سَّفَ زفافها وفرحها وثوبها الناصع قدر

مجن أودى بأحلامها إلى فج اليأس وهي لازالت برعم في أوج الفتنة بين يدين الزمن. لازالت في أوج فرحها وردة مزهوة بحمرة خدودها، ترتع في ألق شبابها، في قمة ابتهاجها واغتباطها وشغفها بالحياة الزوجية، حبورة، جذلة، رقيقة، حالمة، لينة. لازال دبق العسل عالق في ثنايا مفاتنها وملامح وجهها المشرق وفي رضاب شفاهها الكرزية. الحلم الذي انتظرته طويلا، التي تغنت به منذ أن كانت صبية دون البلوغ، منذ أن وعت وصبت في جنة الوالدين، في جنينة لبنان العالقة في ثنايا خيالها وشعرها الفاحم كمشط عاجي، تلك الصورة القابعة في عينيها الواسعة كلحاظها ولمعتها.

كانت ولم تزل تتأمل حياة أوسع تسعدها، مغنجة باللذة والمحبة والرعشة اللازبة في قوام جسدها الرشيق، الجميل الطلة. مراقة في إغواء حركاتها المستهامة ونظرات عينيها الغضيضين. كانت ولم تزل مزهوة بالسحر والضياء والرقة والهناء، خلجة في صفاتها، خجلة في رغباتها وطلباتها، هائمة بمحبتها، شاردة الذهن، مستظلة، متيمة، دَنِفَة، لدنة، طرية، فكِهة، شبقة، تهجس بطلتها كمصباح الطريق لا أحد يشعر بمعاناتها ووحدتها.

بقيت جنان لائذة في الكامب على ما كانت عليه، صماء، لم تأخذ من دورة الحب والحياة سوى رشفة علقت بشفتها الهدل، موشحة بالبهاء، الشوق يلتمع في صفاء عينيها كصفة سواد قرنية عينيها الذي يزيدها فتنة وجمالا. ذلك الألق البدوي اللازب بها لم يخف سحره ووطئه في لاحظ عينيها قط، تهجس

بهـا تفـتن الفتيـات كزنبقـة البـراري، بارقـة، مضـيئة، شـبقة، تسـتهوي النـاظرين برقـة حـديثها وحلـو عشـرتها وفتنـة مفاتنهـا وجميل طولها.

بالطيـب الـذي يكتنفهـا كانـت قـد أسـرت مراوديهـا، وعلـى ضـوء ذلـك السـحر والبهـاء؛ بقيـت تعـيش متقوقعـة فـي غرفتهـا الكئيبـة أجمـل فتـرات العمـر بصـحبة زميلاتهـا هنـادي وأميمـة اللاتـي آزرتنها وصادقنها.

وعنـدما تكـون بـذاتها فـي غرفتهـا تتفقـد النافـذة الوحيـدة المطلـة علـى جهـة المدينـة البعيـدة والطريـق المشـجر بأشـجار الصفصـاف والصـنوبر. المكـان جعلهـا تحلـم بالحريـة كالعصـافير وهـي تتأمـل زقزقتهـا وصـدح الطيـور الغريبـة التـي تـزر المكـان خـلال المواسـم وهـي فـي طريـق هجرتهـا، فتبـدو وكأنهـا تصـاحبها، تشـعر بـذاتها طليقـة، تهجـس بـذاتها ترفـرف مـع طيـور البـراري السـعيدة... سـرعان مـا يغزهـا ألـم الفـراق حـين تنكفـأ علـى نفسـها متـذكرة زوجهـا، حـين تجـد حمامـة ترتـع برفقـة رفيقهـا وهـنَّ يتجـولن فـي الرقعـة الخضـراء، فيعـود اليهـا الـوجس حسـرات تألمهـا، تقيـدها بـالروتين الـدائر فـي الكامـب فتـزداد شـوقا وتحنانا لحضن الحبيب.

لـم يخـف رنـين الشـوق عـن خـف قـدميها إزاء خطواتهـا قـط. مـع الـدقائق والثـواني المنبثقـة تجـدها تنحـرف نحـو وهـدة السـكينة والصـمت، تقد هواجسـها ومشـاعرها فـي بوتقـة خيـال ينقلهـا لباحـة الحبيـب، لتجـد ذاتهـا غارقـة بهـوس طيفـه وهـواه. فلـن يعيـدها

لعالمها المادي سوى إغفاءة تسرقها، أو طارئ يطرق عليها بابها.

كان قد شاقها الحظ، جدل ضفيرة صبرها بخيط من العناء والكرب، جعل احلامها تختنق في مساءات الحسرات والألم.. هجست ببهت لون شبابها بعد وصولها الكامب بفترة وجيزة، كأنها ندمت كثيرا على استعجالها الزواج قبل أن تنهي دائرة الهجرة إجراءات الإقامة وملحقاتها المعقدة. حيث لم تتحسب لروتينية الإجراءات التي تتعامل بها دائرة الهجرة الألمانية وبالذات مع العرب والمسلمين، فجاءت النتائج عكس توقعاتها ومتطلبات حظها ورغباتها النفسية، فاختلطت عليها التصورات والرغبات والحلول، أضحت بذاتها كعجينة الورق، سطرت عليها الاحداث والأقدار كيفما تشاء، كرقعة مجدولة في دورق الشك..

كانت قد جنحت خلف الحلم واللذة الغريزية التي عصفت بها، لتنحرف بوصلة المسارات والطرق باتجاه خندق العقد دون إرادة. لم تجمع في حساباتها تلك العقد، لم تتوقع بأن توضع في كامب شنيبر وهي لم تكمل عشرة أيام من شهر عسل زواجها.... كانت قد تزوجت في مدينة لايبزك التي تبعد بـ 140 كم تقريبا عن شنيبر دون عقد رسمي في المحاكم، لأنها لم تمنح تصريحا بالبقاء في المانيا لينطبق عليها القانون الألماني. كما أنها لم تكن لها معرفة بمدينة شنيبر وقسوتها، إلا أن القدر ساقها لمنطقة لم تسمع بها من قبل، تعتبر بمثابة منفى

فـي قياسـات وحسـابات وأمـاني المهـاجرين، لنأيهـا عـن المـدن وعن مكان إقامة زوجها.

جـاءت التقـديرات علـى عكـس جدولـة حياتهـا ومـا تشـتهيه الـنفس، لـذا وجـدت ذاتهـا تـدور فـي دوامـة مفرغـة مـن الخيـارات، بـين عُقد لا مفك منهـا أفرزهـا الظـرف المحـيط بهـا، وبـين أن تقبـل الواقع المر بأن ترفض وتسفر لبلدها لبنان.

حـين حضـرت إلـى ألمانيـا حضـرت كضـيفة شـرف، كحمامـة حميمـة، لطيفـة، مـراءة، صـرة الأحـلام معلقـة فـي جيـدها. جـاءت تحجـل بالأمنيـات، لتبجـل سـنواتها عمرهـا العشـرين بطـوق الياسـمين، بفرحـة تنقلهـا لضـفاف الألـق والسـعادة التـي طالمـا حلمـت بهـا برفقـة حبيبهـا وهـي صـبية. يمـلأ قلبهـا شـغاف حـب وأشـواق جمـة. جـاءت مزهـوة بكـل مـا فيهـا مـن فتنـة ومعنـى وخضـل وطفولـة ومجانـة، لتـدخل كسـيدة فـي عـالم الفـردوس الـذي تحلم به كل فتاة وهي في مقتبل العمر.

ذلـك الفـردوس تخيلتـه فـي أول وعيهـا، فـي طـور المراهقـة، مـرق علـى ذاكرتهـا مـذ كانـت صـبية أبنـة الخامسـة عشـرة سـنة، تأملتـه قـبس فـي عـالم الفانتازيـا يضـيء حياتهـا؛ حتـى فـتن الـود جسـدها حـين تـوردت حلماتهـا بلهـب الشـوق. كبـرت مـذ عرفـت معنـى الحـب، حـين مسـت حـرارة وجناتهـا المتناسـقة، حـين هجسـت بـه يغشـي ملامحهـا فـي المـرآة.... تغيـرت طباعهـا مـذ أن وجـدت فـي سـيقانها ثـورة شـبق وضـياء وفتنـة وألـق، حثتهـا علـى تسـلق الأفـق قبـل أن يجلهـا الـزمن؛ كـان قـد أضـطرم النـار فـي فتيـل مشـاعرها،

اضطربت، صاخت المشاعر في جحرها وهي تجوب مرافئ الفرص بحثا عن فارس يلجمها.

في مخيلتها كانت قد تصورت بيتها وحديقتها وزهوها، رسمت المرافق بريشة عاشقة على جدران قلبها، جمعت كل ورود الأحلام والأمنيات لتعلقها قناديل ود على أغصان شجرة الميلاد الجديدة، في سرها علقتْ عليها صور المحِبة بلون الربيع، وهي في ربيع سحرها وفتنتها.

مذ تلك اللحظة بدأت تغزل بساط الأحلام في فلك غزلها، بغت تدرك الغد المميز من حياتها بشكل مبكر، لتجد ذاتها في نهاية الطريق مركونة في ركن معزول محاط بأسيجة حديدية يصعب على الطير أن يفل منها. حزن مغتم اصاب قدرها، هجست بذاتها نبتة زرعت في غير موضعها، في صفحة لا توائم فتنتها، في أجواء لا تتنفس هواء نقيا، لا تستطيع أن تفتك من قيد أسرها.

ظلت تلك الزنبقة تعاني الويل بسبب قسوة قرارات دائرة الهجرة التي لا تحسب حساب الفروقات الفردية بين المهاجرين ولا تميز بين الجنسين، لا تراعي الجنس الناعم، لا توجد في قواميس الألمان ما هو عيب ومخجل والتي لا تضع عادات الشرقيين في الحسبان، لا تميز بين ما هو إنساني وغير إنساني. قوانين عمياء، الكلب أكثر اعتزازا وقدرا وتقديرا منها، هكذا بقيَّ الحال لا يرتقي لحدود الأماني، حتى يتمم دراسة ملفات المتقدمين للجوء كل على انفراد.

ذلك ما لم تفهمه، ذلك ما الـمَّ بها وشفّ ضوع عطرها ونورها. لقد تقبلت الأقدار مغصوبة، وجدت أحلامها يدعس عليها حرس الكامب وموظف دائرة الهجرة دون أن تنبس بشفة، صابرة كالصبير في فلاتها، الصبر المر كان قد أكل الفتنة من قوام جسدها الرشيق، عفس بسحرها قدر الضيم الذي شاقها. ذبلت ورود الخدود الريانة، تعصفرت وجناتها بلون الزعفران؛ تصدعت الفتنة وهي في أوج شبابها وألقها، لائذة في غرفة من غرف الكامب الكئيب لوذ الحمائم بين الماء والطين. بدى المكان الذي ركنت فيه بحق سجن دميم حاق بها وبرغباتها، لولا نورها لا تهجس بالضوء يطفح في اسرجته، كأنه يستنبط الضوء من زيت فتنتها؛ القدر قرض انفاسها وأذل جبروتها وهي غير متهيئة لملاقاته. نتيجة المخطط الغير مدروس؛ لم يعد الظرف يصالح ذاتها، حتى غزى الشيب فكرها بعد أن شفت ينابيع الذهن.

في الحقيقة الكامب الذي وضعت فيه كان قد عد كملحق لتدريب وتأهيل الضباط المستجدين من صنف ضباط الشرطة. أي أنه يلم بكل ما هو عجف ومقرف وثقيل ودميم لتعليم وتدريب المنتسبين على تحمل الصعاب والعناء والمشقة والقسوة والأناة والجلد والصبر المر... إذا الموضع الذي وضعت فيه موضع يتصف بالقسوة والمجانة والمشقة، معد لتهيئة رجال العسكر الذين ينامون ببساطيرهم بعد أن يلفهم جوح التعب والجوع، معد لتدريبهم على الجلد والصعاب وأقسى درجات النظام والتحمل وتحمل ظرف الطقس المتقلب وتلك التضاريس المتشعبة، أنه مهيأ لبناء الرجولة والرجال

الأشداء، مهيأ لفرض الصلابة والحدة والشدة، وليس لعلاج تقرحات الروح والهوى والوجد والشوق ونار الجوى، ولا لتشريق البسمة ولضم الاعتلالات النفسية للمهاجر جراء تردي أوضاع بلدانهم وأوضاعهم الخاصة...

الموضع تحول لغصة، لمكب النفايات، لدرء المهاجرين، عبارة عن سكن مؤقت للمهاجرين الذين دخلوا البلاد دون إذن لدراسة ملفاتهم لغاية استتباب أمر تواجدهم في الدولة بشكل قانوني، قد تطول هذه الدراسة سنة أو أكثر، ولا تقل عن ثلاثة أشهر قط..... لذا اضطرت أن تركب مركب الصبر دون أن تتبع نوتيًا يجنبها مطبات القدر، لتجد ذاتها أسيرة الوحدة في غرفة تعيسة من غرف المبنى. الكامب يبعد عن مركز المدينة المغشية بتضاريس الوديان قرابة أربعة كيلومترات دون مواصلات يسيرة، فلا يمر في الموضع سوى باص واحد كل ساعتين مرة، أي أنه أشبه بالمعتقل، معزول تمامًا، كما أن أقرب نقطة مواصلات إليه تبعد عن باب الكامب مسافة كيلومتر.

الطريق المؤدي إلى مدينة شنيبر عبارة عن شارع منحدر بإنحدار قاسٍ، يميل بين 10 درجات إلى 30 درجة مؤوية. أي من تعينه الجاذبية في الذهاب وهو يتدحرج كالحجر الساقط من القمة، تعرقل مسعاه المرتفعات خلال عودة الإياب؛ إلا من كانت له قدرة شبابية فذة تعادل عشرة أحصنة من القوة. شنيبر ذلك الاسم المرعب الغامض تعني مدينة الثلج، لغزارة سقوط الثلوج في محيطها خلال فصل الشتاء.

كانت جنان قد استدعيت من لبنان من قبل خطيبها أحمد المقيم في المانيا لغرض ترتيب أمور الزواج، وكانت قد اضطرت أن تتزوج منه زواجا عرفيا بسبب صعوبة تسجيل عقد قرانها في المحاكم الالمانية وهي لاتزال أسيرة القدر لا تحظى بصفة لاجئة اصولية، لعدم وجود صفة قانونية تسمح لها بذلك.... لتثبيت عقد القران في محاكم الدولة؛ عليها تحمل المشاق والحصول على الإقامة أو تسجيل اسمها بصفة لاجئة لدى دائرة الهجرة، ذلك ما يتطلب منها أن تصبر صبر أيوب لتنال غايتها، أنه القدر، وقد تطول مدته أشهرا أو سنة أو سنتين أو أكثر.. ذلك يتبع سياسة الدولة ومزاج موظفي دائرة الهجرة وشروط قوانين دائرة الهجرة ودرجة التفاضل. حيث تلعب العصا العنصرية دورا في تسليك الأمور، فالجنسيات الأوربية لها حظوة أكثر من الآسيوية والأفريقية، الاوكرانية والسورية والاثيوبية كانت لها الأولوية على الجنسيات الأخرى حسب تصنيف أمريكا والصهيونية للإنسانية، كما للكنيسة دور في تفضيل المهاجر الذي يترك دين الإسلام مقابل انتمائه للمسيحية... وبذا بقيت تعاني الأمر، تنتظر أن تحصل على صفة لاجئة رسمية لتدوين عقد قرانها في سجلات دوائر الدولة.

تراكبت مكعبات العقد في طرقها مع دخولها الأراضي الالمانية دون تخطيط مسبق من قبلها أو من قبل زوجها، كانت قد جازفت بالهجرة بعد فترة معاناة طويلة عانت من لاعج الحب والأشواق الذي جمع بينهما على سفرة الحدث من جهة،

ومـن عقـدة السـفر ودخـول ألمانيـا والمعيشـة بهـا بحريـة مـن جهـة أخرى. حيث بان ظفر سيف القلب على حسام العقل.

كانـت قـد تصـفحت قـدرها ضـمن سـجل الأيـام والسـنين فوجدتـه معلـق فـي هـامش الـذاكرة، فـي المفـازة التـي جـدلتها فـي ضـفائر حـب لـم تسـتطيع تخطيهـا أو مقاومـة أزماتهـا؛ لـذا قـررت أن تجـازف بفتنتهـا وتنقـل موروثهـا النفسـي والفكـري والقلبـي إلـى ضـفة الأحـلام. عنـدها الـزمن حاصـرها فـي زاويـة الأشـواق، عنـدها وجـدت ذاتهـا مجـدول بـين مطرقـة القلـب وسـندان العُقـد، محجـرة بـين شـبح الفـراق وغصـة الهيـام، لا يشـكمها اسـتقرار ولا يحتضنها وئام.

بـذلك تكـدرت حالتهـا النفسـية مـع تـوالي الايـام، صـعقت بمـا واجهتـه مـن رز وعقـد، صـعبت عليهـا مهمـة التـأقلم مـع تفـاقم المعوقـات، نتيجـة سـعة الفـراغ الـذي وضـعت فيـه ولسـعة الفـراق الجـانح عـن حبيبهـا. بقيـت مشـتتة الـذهن، لـم تسـتطع لملمـة أجـزاء فكرهـا المتنـاثر بـين أشـواك الحلـم الفسـيح وقوقعـة الواقـع الضـيق المريـر. هجسـت بفلتـان خـرز الحلـم مـن بـين أصـابعها، تماهـت متطلباتهـا النفسـية فـي سـدم الشاسـع مـن الفـراغ، كهبـاب تلاشـت تحـت نظـر العـين الداخليـة. تراكمـت عُقـدِها النفسـية داخـل ذاتهـا امتـدت لغايـة بـاب الرجـاء، أودت بهـا إلـى نسـيان ذاتهـا وأشـواق الحبيـب بسـبب همجيـة الشـقاء والعنـاء الـذي حصـدته. شُـتِت ذهنهـا شك وجـود، فلـم تجـد علـى شـجرة المحبـة التـي تأملتهـا بلبـل الشـوق يطربها، ولا حست بورق الحنين يظل عاطفتها.

على الرغم من أنها في محاولاتها البسيطة على التأقلم كانت قد كسرت بعض أطواق العُقد البسيطة، سدت بعض الثغرات الجانبية لتحتمل شجون الوحدة والغربة بصحبتها بعض فتيات الكامب اللاتي تواجدن معها بذات الظرف؛ إلا أنهن لم يغنِ النفس على فراق حبيبها، لم عوضن ليلة من ليالي الأنس وهي في كنف زوجها. كانت قد أجبرت على جرع أقراص الصبر وسرط حبوب تهدئة الأعصاب والنوم، لحين أن تمسك بتلابيب الفرج، لحين امتطائها سنم الحياة من جديد.

بحساباتها غدت كروزنامة تستقطب الزمن بثوانيه، تترقب قدوم اليوم الجديد بتأمل، بمنظار صبر مر عبر ثغرات الصمت الدقيقة في نافذة الفكر والسلوة التي تشغل بالها بها. تعلقت كعقدة الجدائل بضفيرة الحلم، سعت في محاولاتها الملحة خلف حبيبها بشيء من المداهنة والرقة والمحبة، طرقت أبواب الشوق برجاء الهاتف الذي لم يهدأ صفيره، صاحبت فتيات الكامب ليخففن عنها وعن ذواتهنَّ زجل الوحدة والكآبة. أصبح الهاتف الرفيق والعشيق والصديق والحبيب، صار ذا أهمية كبرى لقتل الفراغ اللعين، صار المعين الأوحد بمنهجها وتسليتها، به تسلك الساعات الدميمة، به تنعم صوتها بصوت الحبيب، على الرغم من عدم وجود شبكة قوية تفي بالغرض وتشفي غليلها.... به تمكنت من أن تفلت من قبضة السجن، لتهرب خارج حدوده، طيرا تجوب مواقع مآربها، وما أن يكف الهاتف عن لجلجلته؛ حتى تعود أدراجها لداخل ذلك السجن مقيدة بقواعده وسلاسله....

لــذا فكــرت أن تمــتهن ســلوكا آخــرا لا يوافــق آراء الحــرس والمـوظفين، قـررت أن تهـرب مـن الكامـب لأيـام عـدة، لأيـام أو أسبوع بـه تشفي غليلها من نبع الحبيب. حصل ذلك في الأسبوع الثـاني من تواجدها في الكامب، غابت مدة ثلاثـة أيام، لم تصبر علــى فـراق الحبيـب، قضـت أوقاتـا خـارج جحرهـا بـين ثنايـا الشوق، عدتها فترة نقاهة لتعيد لها حيويتها والبهاء.

مــع تــداول الايــام صــارت تتكــدس العقــد فــي الطــرق كركــام النفايــات، كلمــا تزيــل إربٍ منهــا تتفــاقم وتتجــدد أخــرى كخلايــا السـرطان... هكـذا تحـول يومهـا إلـى مكـب نفايـات العُقـد، هكـذا حاولـت بشـتى الطـرق عـلاج مرامهـا دون أن تـدرك غايتهـا إلا مـا نـدر. بـذلك تحولـت صـيغة الحيـاة لـديها مـن حـال إلـى حـال، مـن صـفاء إلـى رجـاء، مـن رجـاء إلـى ملـل، مـن ملـل إلـى روتـين ورتابة، لرتن وتكرار ورماد محن.

غـدت صـيغة التكـرار صـورة مـن صـور مهاتفـة زوجهـا بتكـرار الاحاديـث وطـرح العُقـد دون جـدوى وحلـول، كمـا وجـدت فـي الفطـور والعشـاء نغمـة روتـين تعلـو نغمـة الشـهوة بـلا هـوادة، لا تجديـد بمكونـات الطعـام، كمـا أن الغـداء فـي معظـم الأيـام باهـت الطعـم، تتبعهـا أوامـر صـارمة وأجـواء مخلخلـة، فـي ظـل وحـدة سليطة لا ترحم.

تلـك الأعبـاء جعلتهـا تمـتهن العقـد، عقـد نفسـية وذهنيـة وجسـدية واجتماعيـة وغريزيـة إلـى جانـب عقـد معاملـة وروتـين وملـل تعامـل بهـا رجـال المـارتيزر(حـرس الكامـب) المتخـومين بعقـد القـوانين العقيمـة المفروضـة علـيهم، إلـى جانـب تـأثير أجـواء

الظـرف والمكـان السـلبي علـى الـذات... كـل ذاك نقلتهـا إلـى فسيفسـاء مـن الجـزم والعنـاء اليوميـة التـي تفقـع قواقـع تأملاتهـا مـع شـرذمة مـن المهـاجرين المختلـة والمختلفـة الـوانهم وسـلوكياتهم وطبـاعهم وأجناسـهم الغريبـة، كـل ذلـك الـرتم احـاط بهـا ليزيـد مـن أرقها وعنائها وكدرها النفسي.

هكـذا بقيـت الأمـور معلقـة علـى حبـال الصـبر دون تجديـد فـي جـدول مغريـات الحيـاة والتـي لا ترتقـي لنفسـيتها، بقيـت لفتـرة تزيـد عـن أربعـة أشـهر ونصـف بـذات الـنهج، خاصـة كـان الطقـس يمـر فـي موجـة سـبات كئيبـة مـن فتـرات الشـتاء القـارص، وبالـذات فـي تلـك السـنة الغريبـة 20 - 21 بطقسـها وأمراضـها بعـد أن تفشـت جائحـة فـايروس كورونـا اللعـين الـذي خنـق الحيـاة علـى البشـر فـي كافـة أنحـاء الكـون، والـذي توافـق مـع شـتاء قـارص طويـل جـدا، حيـث الأمطـار والثلـوج دكـت الحيـاة بـالروتين الممـل ابتـداء مـن شـهر العاشـر ولنهايـة الشـهر الرابـع مـن السـنة الجديـدة، لقـد ابتـدأت الغيـوم بـزخ الامطـار والثلـوج بوقـت مبكـر جـدا، بحيـث علـى مـدى خمشـة أشـهر لـم نـرى قـرص الشـمس فـي السـماء إلا مـرة أو مـرتين. فتـرة غـدت بهـا الحيـاة رتيبـة، فتكـت بالمجتمعـات، توقفـت النشـاطات فـي كافـة مجالاتهـا، وبالـذات فـي شـنيبر التـي يرتفـع بهـا الثلج بارتفاع قدم عن سطح الارض.

فـي تلـك السـنة بقيـت الثلـوج تغطـي التربـة بشـجن، لتحـيط المكـان ببحـر ناصـع البيـاض مـدة خمسـة أشـهر تقريبـا، لتزيـد مـن قبضـة اليأس والشجن، مما سهل قبضة السجانين عليها.

كانت الأجواء أجواء باردة جدا، تخللها صقيع وزمهرير ورياح سهكة بشكل يومي، حالة متجددة كنهر يتدفق سخطا من جوف الفضاء، رياح وأعاصير ثلج وزخات مطر لا تبطل وتيرها، تهجس بها كأهوال صخب لم يخف وطئها طيلة فترة مكوثها في الكامب. غدت البيوتات اشبه بمراكب سفن في البحر الناصع البياض.

حياة مملة يركبها جمود عام إلى جانب نوعية الطعام الباهت، الفطور والعشاء المتكرر والمحدد بصمونة وعلبة لبنة صغيرة مشبعة بالثوم والزعتر وعلبة مربى تحتوي على ملعقة شاي وعلبة عصير اصطناعي رديء النوعية يولد حموضة في المعدة لحامضية المواد والسكريات الحافظة فيها، بينما الغداء يقتصر في معظم الأحيان على البطاطا والمكرونة إلا ما ندر، يرفقها فخذ دجاج أو شريحة لحم أرنب أو شريحة بقر لا تفي بالغرض.

السبب في ذلك بأن تلك الكمبات مداراة من قبل شركات أمنية خاصة، شركات ربحية مكلفة بإدارة الكامب، لا تكلف ذاتها عناء المصاريف الإضافية مقابل التوازن الربحي الدسم الذي تقبضه من قبل الحكومة الألمانية، لتبقى ترتع على قمة المنافسة الإدارية مع الشريكات الأخرى المنافسة، ولتتمكن من دفع الرشاوي إلى مرشحيها في الدوائر المسؤولة بطرق سرية غير شرعية.

بذا صارت جنان تعاني من سوء التغذية، حالها حال الآخرين؛ حتى نحل الجسد وضعف البدن وبهت رونق ألقها، افتقدت

الكثير من فتنتها عما كانت عليه قبل فترة الزواج، أمتدَّ ذلك الضعف الى مباهج بدنها، نتيجة السهر والأرق والقلق والجمود المستمر في الحالة التي هي عليها، وللقناعة التامة بقدرية الحالة وعقم الفرج على المدى القريب.

الظرف جعلها تتقبل الأوضاع على ما هيَّ عليه مضطرة، لغاية الحصول على شهادة حريتها وتقرير مصيرها من قبل دائرة الهجرة، فخلال تلك الفترة اضطرت أن تدعك روتين الأيام بالصمت والأمل، اضطرت إلى مضغ علكة التصبير التي لا بديل عنها، مقابل الصرامة المعلنة من قبل الإدارة بمنع الطبخ الخاص داخل الغرف، على اعتبار الفترة فترة مؤقته، فترة خلخلة وغربلة المهاجرين، فترة بها تدرس دائرة الهجرة ملفاتهم قبل أن تقرر مصيرهم وجدوى بقائهم من عدمه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجنيب نزلاء الكامب مشاكل الحرائق والتجاوزات التي تحدث من قبل بعض المتطفلين والسذج إلى جانب الروائح الكريهة والدخان الناتج والتدخين الحاصل داخل أجنحة السكن التي يتعمد بها بعض المدمنين على التدخين من قبل المهاجرين، سلوك في إساءة إلى الى الذين يبغضون الحشيش والنرجيلة.

والحقيقة المرة عكس ما تدعي الشركة تماما. هي؛ ألا تخسر الشركة مسؤولة اناطة إدارة الكامب كمصدر ربح جارٍ، وذلك إذا ما سمحت للمهاجرين طبخ الغذاء في الغرف فأنها سوف ترمي طبخها على المزابل. ففي تلك الحالة تضطر الشركة إلى غلق مطابخها الخاصة والتي تغدق عليها الكثير من الأموال،

إذا ما علمنا بأن نصف مرتب المهاجر يدفع للشركة اجبارا، مقابل توفير الأكل.

بعد مرور شهر من مكوثها في الكامب لم تحتمل منغصاته، هاتفت حبيبها ليزيح عنها كربها وجزعها. وما أن جاءها زائرا؛ حتى فلتت من قبضة الكامب للمرة الثانية بالهرب معه والاختفاء في جوف سعادة مشلولة مدة ثلاثة ايام، فترة كانت بحاجة لها لتعيد نشاطها الزهري لذاتها ولجسدها الظامئ فالغريزة الجنسية ضرورية، تعطي نشاطا معنويا للجسد.

كان لابد لها من الهرب قبل أن تنفجر قروؤها وخاصة أنها تسكن غرفة مفتقرة لأبسط أشياء الترفيه ألا وهو التلفاز، كانت بحاجة إلى اللمسة الحنونة، إلى الحضن الدافئ، إلى استعادة شيء من حيويتها وعاطفتها التي جفت قروؤها، كانت قد أضحت في عداد نفسها شجرة ظامئة، منتكسة أغصانها، ودت أن تجدد حيويتها برذاذ حبيبها، كانت بحاجة لروية محبة تزيدها ثقة بالنفس، تهم بها جرع مرارة الصبر...

كما كان لابد لها من العودة للكامب؛ وإلا لن تكمل الهجرة إجراءات اللجوء الخاص بها، بغيابها كانت قد عبثت بحلقات مسلسل روتين الهجرة، بذلك زادت من عقد الضغط عليها لمخالفتها النظام المتبع من قبل الشركة المسؤولة، والتي تضطر إلى رفع تقاريرها اليومي عن المهاجرين المتخلفين لدائرة الهجرة لتتجنب مسؤولياتهم.

حين عادت من جوف الحبيب؛ عوقبت من قبل الشركة بفردها في غرفة معزولة من ناحية المنام والاكل مدة اسبوعين. كانت قد عادت في وضع نفسي افضل، استمرت تلك الحالة فترة وجيزة، لتعود بعدها لحالة القرف والروتين التي التصقت بذهنها وبمشوارها وبالاحتكام بمشاعرها، بضنها أضحت لعبة صغيرة بيد القدر، ككرة صولجان مشتطة بين مغارب الظرف وعناء تحمل البعد والطقس السيء والغريزة الجنسية.

عند عودتها ركنت في الطابق الرابع من المبنى مع فئة المحجورين المخالفين لشروط إدارة الكامب. لتحجر في تلك الغرفة مدة اسبوعين دون أن يسمح لها بحرية الحركة، لتجد ذاتها مسجونة في سجن داخل سجن، أشبه بالمجرمين المحكومين بسجن انفرادي. صار الأكل يصل غرفتها بعلب جاهزة دون أن يسمحوا لها دخول باحة المطعم، أضحت محاسبة من قبل مشرفي الكامب (المارتيزر) في تأكيد وجودها في غرفتها الجديدة.

لم يتركانَّها زميلاتها هنادي وأميمة، صرنَّ يجتمعنَّ في غرفتها أو في غرفة أميمة التي توطدت علاقتها معها، أضحينَّ أشبه بالأخوات.

أميمة فتاة فاتنة من المغرب وهنادي أبنة فلسطين المغتصبة لا تقل عنها فتنة وعفة. بتنَّ يقضين أوقات الفراغ بالحديث واللعب والتسامر، وأحيانا بالتركيب والطبخ السري بعيدا عن أنظار المشرفين، وبالذات الالمان منهم، لشدة بأسهم، كونهم من أصحاب الشركة التي تدير الكامب. إي في حالة السماح للنزلاء

بـالطبخ داخـل غـرفهم، ذلـك سـيترك فراغـا شاسـعا فـي إدارتهـم ووظـائفهم ومرتبـاتهم، وبالتـالي قـد يحـال قسـما كبيـرا مـنهم إلـى التسريح من العمل.

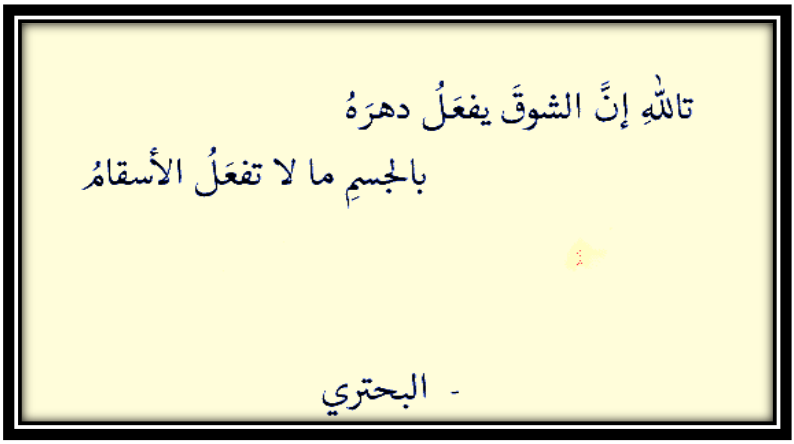

2- الوحشة

جلستْ ذات صباحٍ وهي على غير عادتها ونشاطها، انتابها صُداعٍ شديدٍ أودى بها إلى التقيؤ والغثيان، أحست بوعكة ولوعةً تنتفض في أمعائها، أرهقت كاهلها. المغص أجبرها على النكوص فوق سلة النفايات، صار ينتابها ذاك الالم مع ساعات الصباح الأولى لعدة أيام، مع لحظة استيقاظها، تجد ذاتها ليست على ما يرام، مريضة، متعبة، قد تكون وعكة برد أو أزمة نفسية حادة أجبرتها على النكوص دون أن تتمكن من أن تقرن السبب، تفكيرها منشغل في وحدتها وحبيبها ومصيرها المعلق في ذيل قوانين عقيمة ألتفت على عنقها. خاصة أنها لم تسجل عَقدِ قرانها في المحاكم الالمانية، لنقص في أوليات الأوراق كما أشرنا.

في بادئ الأمر أحالتْ الحالة لأزمة الطقس المكلة بالزمهرير، خاصة تلك الثلوج المتراكمة كأنها تفيض من باطن الأرض لكثافتها وفورانها، تهجس بها كملأة السرير الحريري تحيق بالأفق من كل الجهات، نث غزير يتدفق من جوف الغمائم كندف القطن... دائما ما تكون الأجواء ملبكة بالعواصف والأمطار والثلوج، دائما ما يكون الطقس في حالة هيجان دون هوادة، المنظر العام يختزل المشهد، الصورة كأنها بطانة للكون على ما تسعه العين من مدى. مسالة صيرورتها على التمدد غريبة، منذ فترة شهر وأكثر وهي تنث نثارٍ الندف فوق تلك الهضاب دون أنقطاع، لذا اعتبرت ازمتها مجرد أعراض برد ألمت بها، خاصة تدفئة الغرفة ليست بحجم غضب الطبيعة.

أكاد أجزم بأن النزلاء لم يروا قرص الشمس منذ شهرين سوى مرة واحدة ولفترة سويعات قليلة، كأنها أشارت إلينا عن وجودها أسيرة خلف قضبان الغمائم العتمة، منذ شهرين اضحت علاقة المكان بالشمس علاقة نفور وقطيعة وزعل. فالذي يود أن يتسوق أو يذهب بمشوار لقضاء أمر من أمور الدنيا؛ عليه أن يرتدي بجامتين تحت البنطلون وسترتين مطرية مبطنة بالفرو فوق بعضها ليجنب ذاته لسعات البرد الشرسة وخربشة الصقيع المؤذية. من ينوي زيارة الأسواق والتبضع، سيجد ذاته مكبول بحمل البضائع في مسارات مفتولة، قاسية، تتحكم بها تضاريس الارض، وبالذات في حالة تجلد الجليد حين يصبح كالزجاج المؤذي تحت أقدام الشخص، والذي

يتحول لراقص باليه وهو يجتاز مسار الطريق، يترنح في مشيه ذات اليمين وذات الشمال.

أضحت الألفة حميمية بين الأرض والسماء، تهجس بعشق خفي يجمع بينهما، أنه موسم عرس نادر، به ارتدت الأرض حلتها البيضاء، لتعكس أضواء مصابيح الأعمدة لعنان السماء في النهار والليل المعتم، فتبدو الدنيا مضاءة بالانعكاسات المتداخلة للأضواء، فتبتهج الأجواء بالعرس، بنثر نداف مخزونها فوق البسيطة، وأحيانا تزخ غزير المطر لأيام مدامة؛ حتى تعم البهجة والطير والشجر..

هكذا الدفق يشعرها بأجواء محبة الشتاء عبر نافذة الغرفة وهي قارصة في زاوية منها، متلحفة ببطانية مهترئة، مرمية فوق سرير بال وبين أن تنعم ذاتها بإغفاءة أو تتبع أفكارها المنفلتة في عالم الحرية، دون أن تجد من يعينها على مجاراة الحالة وتقبل فرضية الوضع براحة بال، تريح به اعصابها المتوترة.

تلك الظروف جعلتها تكره لون حظها الباهت، العاثر، الذي أودى بها إلى ذاك المصير دون رضا، الظرف جعلها تشغل بالها في تفكير مستمر بما يحيط بها من جزع وقرف وإزعاج ووحدة وإهمال، خاصة خلال ساعات الليل الطويلة والتي تجعلها دائمة التفكير في المصير وحل العقد، فالشمس لا تشرق صباحا إلا بعد الثامنة والنصف، فيما موعد غيابها قرابة الثالثة عصرا، أي ليل طويل دميم ووحدة مقيتة. حالة العتمة تحكمها بالكآبة. غدتْ تنبذ الظلام والوجوم المقيت والعرف الذي شطف

أحلامهـا وأزاح سـتائر الـود عـن فكرهـا حتـى تـدلقها المجانـة لمـنجنٍ آخـر، ألا وهـو احتمـال إصـابتها بمـرض كرونـا اللعـين الـذي أعراضـه تشـبه أعـراض مـرض الإنفلـونزا. صـارت تفتقـد شـهية الطعـام بسـبب تزايـد حـالات القـيء التـي تخطـر معـدتها فـي أوقـات متفاوتـة، أودعتهـا فـي حالـة قلـق مسـتمرة وخاصـة زادت الوفيـات عـن الحـد المعقـول كمـا تشـير الأخبـار، فـي ظـل وحـدة سـليطة لا يُؤنسـها ونـيس، حالـة أنسـتها لـذة الابتسـامة والصـحبة والطعام معا.

نتيجـة الـروتين القـابع فـي جدولـة التعامـل؛ جزعـت حالـة معيشـتها وهـي تحـاول أن تعيـد لـذاتها جـزء مـن حيويتهـا بكـرع قـدح مـاء دافـئ مـع الليمـون، عسـى بـه تحـل أزمتهـا. تكـررت حالـة القـيء فـي الصـباحات التاليـة علـى مـدى اسـبوع تقريبـا، الأمـر صـار يقلقهـا، تجـاوز حالـة الاعتـداد إلـى حالـة الخـوف مـن تفـاقم الوضـع، فهـي ليسـت علـى مـا يـرام، تـدل علـى أنهـا غيـر طبيعيـة بكـل الأحـوال، فلابـد مـن مراجعـة الطبيـب ومعرفـة سـبب العلـة، خوفـا مـن أن تكـون ضـحية الإهمـال ومـرض كورونـا، النـاس مرتبكـة فـي داخلهـا مـن توسـع تـأثيره، أودع خيفـة فـي تعملهـا مـع البشـر، وبالذات ضعيفي القوام وكبار السن.

ولكـي تهـدِئ مـن روعهـا، وتخفـف مـن جزعهـا أخبـرت زميلتهـا هنـادي بحالتهـا الصـحية، التـي صـارت تقنعهـا بالتعـب والإرهـاق، فـي محاولـة منهـا إعـادة الثقـة لنفسـها وبصـحتها، صـارت تكلـم ذاتها وتقول:..

- أصبري يا جنان، أنها مجرد وعكة برد، ستنتهي مع اكتمال دورتها..

الموقف حرك زغب اشواق العلاقة عن منعطفات الجمود والتقيد. انشغل البال بالوحدة وفراق زوجها، الغريزة دغدغت منابت الشبق في الذهن وفي مواضع الجسد الحساسة، الهبت نتوءات الشهوة في الأماكن الدبقة، ذكرتها بلحظات اللطف والطف والسعادة والآنفة بليلة الدخلة، وهي مغمورة بعطفة تحنان وأشواق شريك حياتها.

ذلك الفراغ أولد في حياتها فراغات متشعبة شتت أزمتها، لم تستطع ملئ تلك الفراغات بما يرضي النفس وبما أصابها من جزع القدر، بقت تتنقل بين سلالم تلك الأزمات من درجة لأخرى، ترتحل من سطح لآخر، من توتر لاضطراب، لاختلاط، لبؤس، لمشقة؛ حتى ملت قدرها وجزعت ذاتها ومصيرها مع توالي أيام الروتين حين كبرت همومها وغدت واضحة للأعيان. عندها ضاقت عليها مجالات الالفة والشجن، عرّ الذهن والقلب، باتت الأسرار تكحل العيون، مما جعل الشكوك تختمر في قلوب المغرضين؛ وكأنها تبعثرت خرز العِقْد في الطرق الشائكة، طمعت العيون الشبقة بفتنتها وذلك حين شعرت ببعض شبان الكامب من المهاجرين يودون التحرش بها. الحالة جعلتها تنكمش على نفسها، تلتصق بهنادي وأميمة، الحالة الوحدانية جزلت مشاعرها، جعلتها تشعر بتغير ملموس في سلوكها العام مع المحيطين بها.

مـع شسـع الفـراغ شسـع الظـن، تفـاقم الشـجن، دخلـت عقـارب العقـد مسـاحات الفـراق بصـمت وحيـرة، باتـت تطـرق أحاسيسـها مطـارق خـوف ورعـب مـن غـدها الآتـي، وهـيَّ لا تـدري متـى ستسـتتب الأمـور وتنتهـي أزمتهـا مـع دائـرة الهجـرة التـي لا توجـد فيهـا فتـرة زمنيـة محـددة فـي منهجهـا، لتنقذ ذاتهـا مـن شَـرَكْ التفكيـر فـي دائـرة الشـك والوحـدة اللعينـة وعـبء مـرض كورونـا المحـيط بها.

متـى يـأتي ذاك اليـوم الـذي بـه سـتنتهي منغصـات الحالـة، لـتعش حيـاة طبيعيـة مثـل كـل الزوجـات كملكـة علـى عرشـها ومملكتهـا، كبلقـيس وزنوبيـا وكيلوبـاترا، لتمضـي فـي عالمهـا المسـتقل بعيـدا عـن التـدخلات الخارجيـة، فهـي فـي عـرف زوجهـا لا تختلـف عـن عشـتار بالنسـبة لـه. كـل ذلـك العصـف عصـف بخاطرهـا، فقالـت لزميلتها هنادي:..

- منـذ أن دخلـت مبنـى دائـرة الهجـرة تغيـرت نفسـيتي، هجست بشيء قد كتم على أنفاسي.
- أنـا أشـعر بـك كونـك عروسـة، تحتـاجين لرعايـة ومـداراة وعطـف وحنـان وألفـة، انـا أعـرف بـأن العسـر طـال أمـده ولكن لابد من يسر يتبع العسر.

كانـت تحـاول أن تطيـب خاطرهـا وتزيـل عنهـا نشـاز الـزمن الغـابر، العـالق فـي فكرهـا وهباريهـا، كانـت قـد تفاقمـت الأزمـة عليهـا مـع تفـاقم الوضـع النفسـي المسـتعر تحـت مظلـة الـروتين، وبالـذات مـع عـدم أنصـافها بنقـل إقامتهـا إلـى جانـب زوجهـا القـاطن فـي مدينـة لايبـزك والتـي تبعـد بـ 140 كلـم عـن كامـب شـنيبر كمـا

اشـرنا. ممـا جعلهـا تشـعر بـاختلال وانحـلال خلايـا الحـس لـديها. هجسـت بـذاتها قـد تبخـرت عنـدها حاسـة الـذوق والتـذوق، وهـي مركونـة كحجـر الزاويـة فـي ركـن مهمـل دون ونـيس وأنـيس يشـغلها، يـداعبها، فـي تلـك الهـوة السـحيقة مـن أبعـاد الـزمن، ضـمن مسـاحة الفـراغ الشاسـعة. مهملـة، ضـالعة برفقـة الهـم والغـم ومصـباح وحيـد يكـاد نـوره يختنـق فـي جحـره وهـو يعـت غرفتهـا بإنارة لا تفي بالغرض في وسط ذلك السدم المحيط بها..

مـا أن تجلـس فـي سـريرها؛ حتـى تهجـس بـذاتها قـد اهتـزت سـرائرها، اهتـرأت نواياهـا، تقرحـت غايتهـا، تحولـت سـعادتها لحلقـة مفقـودة ضـمن حلقـات حيـاة الأسـرة، تلـك التـي ترتـع بالعِشرة والألفة والمسامرة.

فـي غضـون ذلـك شـعرت بـذاتها تتحلـل كمـادة غازيـة، لتمـوه فـي فضـاء التفكيـر الواسـع كحالـة مـن الصـمت، كـذكرى عـابرة، لمـا أصـابها مـن عسـف وهـوان وضـغط نفسـي وهيـاج غريـزي. تهجس بـذاتها وكأنهـا قـد تحولـت لشـكل مـن أشـكال الهبـاء فـي ذلـك المـد الفكـري مـن التناقضـات الواسـعة ضـمن صـيغة الحيـاة، لعـدم اسـتقرارها وثبـات تواجـدها فـي أبعـاد العـين والنظـر، إلا كخيـال في مخيلة زوجها الغائب الحاضر دون فعالية.

كـان الـروتين الجـائر الـذي انغمسـت بـه قـد أبـدل طباعهـا، أضـحت مـرة المـرام، شـرية الرغبـة، منكسـرة الخـاطر، ضـعيفة الإرادة، أضـحت كـأوراق الشـجر لا تحتمـل عصـف الـريح، لـذا تهجـس بهـا تهرب إلى السرير وجوف النوم قدر الإمكان لتنسى مصابها.

أحيانا تهجس بها تتحول لمادة شمعية تذوب في مكانها نتيجة سقم الأجواء، فلا تظهر للملأ إلا إذا طرق باب غرفتها زائر ما، كأن تزورها أحدى صديقاتها. أحيانا تتحول لجدار آيل للسقوط أو لحجر مركون في ممر للمشاة، ليس لها جاذبية ولا تأثير بمحيطها، لما أصابها من جمود في صيغ الحركة والفكر والحياة، بحيث اضحت لا تملك من لدانة السعادة المرجوة غير الاسم العالق في ثنايا ثيابها كعروس لم ينشف دبق العرس.

لذا كانت قد طغت عليها حياة كآبة ذائبة في خواء ووجوم تلك الأجواء، حياة علقت بروحها وصدرها كطوق قلادتها، خارت بين الأناة والرجاء وهيَّ تنظر لذاتها عبر نافذة الصبر كسجينة مقيدة بسلاسل الشوق والمحبة، تنتظر للحظة عصف ترفق بها، تعيد لها بهجتها والحرية المفتقدة مع حبيبها.

الحالة فُرِضَتْ عليها، حالة ظرفية لابد منها، لذا باتت تصرف حيثيات يومها بشكل من أشكال الروتين العبثي، حيث وجدت ذاتها مقيدة في تعاملها مع كرسي أجرد لا يشاركها عذاباتها، وطاولة عبثية مركونة في زاوية من غرفتها تشكي قدرها وإهمالها، وسرير منهك قرب النافذة يطل على جانب تلول جرداء تحيط بغابة صماء وعصماء من أشجار الصنوبر والصفصاف التي تحمل في ثناياها هالة الجزع والرهبة والجمود. تشعر الناظر إليها بـ بجح وخمول وعناء نفسي، يرفقها في غرفتها دولاب حديدي صديد، يصر من الوقوف في الزاوية كشبح شاخص أمامها، يرجوها العناية به نتيجة تراكم

الزغب والغبرة على هيكله، كانه وجد ليراقب حركاتها وحالتها كمراقب سري.

ترى كم من بشر قد مر على غرفتها، كم من نام على هذا السرير واحتضن المخدة؟ كم من أمنيات وأحلام تدهورت ودفنت في تلك الوسادة البالية، كم من بشر وضع خده عليها، هكذا تهجس بالوسادة كسلة نفايات تراكمت بها هموم وأهواء وخيلاء وذنوب مئات من البشر من الذين مروا على هذا السرير، كلٍ منهم ترك في مفصل الوسادة جزء من مفاصل حياته، ترك في السرير شيء من آلامه وآهاته وعبثه وعنائه وأهوائه وشجنه وقرفه وغاياته وأمنياته، فتجمعت تلك التركة كصيغة عبث، شكلت انعكاسات انفاس وشجون وإهواء وهي تتحرر من المخدة كانبعاثات حرارية وسحرية وعقد غازية صُبتْ في جوفها وعلى عاتقها، فزادتها غصة وحسرة وألم وشجن داخل نفسها..

أضحت بوحدتها كدمية مركونة على فرشة بالية تصرخ خيوطها من الدعس والهز والرز وكثرة الاستعمال، تهلهلت مكنوناتها من كثرة الغسل والشطف. فالسرير ليس سريرها، والفرشة ليست فرشتها، ولا المخدة التي أسْمّلت خيوطها تخصها، لكثر ما عبثت بها الأنفاس والأحلام والتهيؤآت المختلفة والتي أثرت بها وخزقت شؤونها ووخزتها، تشعر بالوسادة مليئة بالزن والخرش والنفش والحرش والعقارب وهوام كوابيس شيطانية وجنية تنبعث من ثناياها، تخيفها في

وحدتها، تلسعها في منامها لما تجمع فيها من غرائز وأفكار هجينة تسافح مخيلتها.

أما تلك الخزانة المركنة في تلك الزاوية، والتي لا تحمل في جوفها سوى بدلة أو سترة واحدة وحذائها لضيق حجمها، كأنها خزانة دمى، لا تحتمل سوى علبة المكياج ومرآة صغيرة وزجاجة عطر وزوج أحذية مركنة في قاعدتها، هي الأخرى تكاد تشكي ذاتها من الوحدة والإهمال التي تعاني منها جنان، لقلة اهتمام الزائرين بها، لعبثية الحالة والفوضى العامة. فهي خزانة منتسب شرطة، وليس خزانة عروس في شهر عسلها.

هكذا صارت تشكي ذاتها لذاتها، تلوم تلك الأفكار العبثية التي تجتاحها وتنبعث من داخلها ومحيطها دون قرار، تجردها من طبيعتها، فتجنح لحلات اليأس والتجرد والكآبة. حين زارتها زميلتها هنادي شكت لها:..

- يا هنادي أنا متعبة نفسيا، أحيانا أشعر بذاتي أكلم السرير أو الكرسي أو الدولاب الشاخص أمامي، فأسأل نفسي كم ستطول معاناتي مع هذا القدر؟
- حسب ما قاله المارتيزر محمد بأن هذه الفترة فترة مؤقته، فيها دائرة الهجرة تدرس ملفات المهاجرين لغاية تحويلهم لأماكن ثابتة ومناسبة يمارسون المهاجرين فيها حياة طبيعية.
- لكنهم بطيئي الإجراءات جدا.
- أوافقك الرأي وعلينا تحمل همجية القدر، نحن من قدمنا إليهم وليس هم من أرسلوا علينا.

في غرة الوحدة كانت تحاكي السرير والفرشة، مع ساعات الليل صارت تشكيهما العبث الدائر في حياتها، تجد ذاتها مقيدة بقيود الوسن دون أن تغف عينيها إلا ما ندر، دون أن تهجس بهدوء يعينها على التمعن فيما يخصها إلا ما ندر. إثابة الحالة إلى الروتين جردها من الإغراء والأهواء، كبلها بالعناد والتصرم دون أن تستطيع تغيير مصيرها وتحريك بيدق رغباتها عن موقعه، دون أن تشكم الكرى بطيف الحبيب الذي صار يشاكسها في خيلائها باستمرار.. هي لم تنساه قط، إنما شغلتها المعاناة والوحدة، الهت بالها بالمصير والتهت بلحظات الغزل التي علقت به، متذكرة مداعباته التي تحفزها على الصمود والثبات لتتجاوز المحنة.... ذلك ما أثارها وشغل بالها وأطفأ شغفها، بحيث شكل عصف الغضب جدار صد حاق بينها وبين أعصابها المرهقة. كأنه بطيفه العابث بمنحل مخها، يحاول أن يمزق كفن الفراغ والفراق؛ لينعم كطفل بحضنها وكحمل يسرح بحنانها.

رغم مأساة الوحدة والعناء التي كانت عليه؛ بقيت ملازمة غرفتها كصديقة لها، تصاحب عقدها، تحاول فك أحجية كربها، تيسر أوقاتها، تصبر ذاتها على مضض.. لذا تجدها معظم الأحيان مستاءة من النوم في سريرها، مع ذلك تلجأ إليه عساه يخفف عنها ضغوطاتها ويحيل عنها وجعها وأحزانها لحبور ينسيها محنتها.... حين وجدت رواية طريق الجحيم في يدي طلبتها مع زميلتها هنادي، شغلت ذاتها بها، كانت شغوفة بقراءة أي يشيء يبعد عن ذهنها ذباب التفكير، يجلها من لسعة

الفراغ الذي كبلها. لقد أنهت قراءة الرواية في بيوم واحد، كانت تعلق ذاتها بأي طارئ يخفف عنها منغصاتها.

في غرفتها ومع روتين الأيام؛ صارت تهجس بذلك الغطاء العفن يعوضها حنان زوجها، يحميها من لسعة البرد وكوابيس ليالي الشتاء، يرفأ بها وهي مكورة تحت شجون خيوطه البالية كجوهرة ثمينة متلألئة. فهي في طباعها كأنثى ناعمة، رقيقة، هادئة، تهجس بالقناديل تسرق منها ومضاتها.. فهي في عرفها حكيمة، بحيث من شواهد اليأس تخلق فتنة وجودها، تزرع بسمة على شفاهها؛ مع ذلك تشعر وهي في السرير البالي بلا تنماز يبجلها عما تحويه الغرفة من أثاث قديم بال... بلا صفة تقيمها وتعتبر لها، لاندماجها بأنفاس تلك النفوس التي مرت على الغرفة عبر غابر الزمن. وجدت في تخيلاتها المتشعبة قد احالت ذاتها لشاخص بلا روح إلى جانب الدولاب والسرير والكرسي والطاولة كأثاث جامدة لا أهمية لها، هجست بذاتها من مكملات أثاث الغرفة، لتصبح شاخص من شواخصها... ففي عالمها المراء هي هائمة، كسمكة تجرفها الأمواج إلى حيث المصير، أو كورقة توت لازبة في غراء الطين، ما أن تخرج من محنة العذاب؛ حتى تغرق في فيض الخيال والجزع، فيصيب فكرها المستشيط ما يصيب الجسد من هرش ونهش وهراء وحدة وتوحد.

لكثرة انحلال تفكيرها وهوانها أصابها وجس السهر، غدت تهجع لهجوع الليل كعاشقة، ساهدة، ناهدة، مستاءة من لياليها الطويلة الأدهم، لا تستطيع أن تنام إلا بعد أن تسهر لساعات

متأخرة من الليل، أحيانا تبقى يقظة حتى تطرق جفنيها خيوط الفجر نتيجة انشغال فكرها بالقلق، لذا كانت تبحث عن حبوب منومة من موظفة الصحة المسؤولة عن شؤون المهاجرين.

ما أن تضع رأسها على الوسادة حتى ترتبط حساسات فكرها بطيف الحبيب، تخرج لها من ثنايا شعر رأسها كامتدادات اسلاك تتصل به لاسلكيا، لتحكي له عن ما تلاقيه وما تشعر به، تشرح له عن أنفاس رفاقها المتواجدين معها في الغرفة، عن الهواجس المدفونة في السرير والمخدة من تلك المآثر المتروكة فيها، لقد تعودت أن ترى في السرير طابور من العشاق والمحرومين والسجناء والمشردين ممن استوقفتهم الظروف ليكونوا ضيوفا على هذه الوسادة، هم ذاتهم استخدموا ذاك الدولاب القابع أمامها وذات الكرسي ليتأملوا لحظة هناء وفرج من تلك النافذة.

لكنها تختلف عن كل الذين وطئوا هذه الغرفة، فهي لا تتأمل قدر أن تلتمس وترى بأم عينيها ما لا يراه الآخرين، لحسنها وألقها تهجس بالأشباح تعاشرها دون إرادة، لأنها عروسة مكبلة بالهم، تأتيها الأطياف قادمة من ثنايا تلك الغابة والوديان المحيطة بها، لتنعم بثرى فكرها وشعورها، تلوذ معها تحت غطائها البالي. ربما تخرج لها من السرير لتمارس معها الجنس التي هي بأمس الحاجة له كعروس، أضحت في يقينها مومس لكل من نام في سريرها، ذلك الهاجس كان يحزنها وهي العفيفة المتدينة... في الوقت الذي به تلاحق صور زوجها في مخيلة المحيط المبهم، تلاحق طيفه، تتبع ظله، فيختفي بين

ثنايا الشوق واللهفة، بين ثنايا الفكرة والرغبة، تغمرها هالات حزن، تحاول جاهدة كش وسن الحلم عن جفنيها لتتصل به، لتستمر في سعيها خلفه حتى يخيب ظنها في ظل العقد... حينها تهجس به كهمسة تتماها في غياهب ظن والفكرة، خلف حواجز الرغبة. الوحشة جعلتها تغرق في مجموعة فكر مفروضة عليها..

لن يطول ذلك الغياب سوى برهة ليعاود كرته عليها، كأنه يلاعبها لعبة الغش والاختفاء، يتردد في خيلائها ويختفي سريعا حين تقترب هواجسها من ملامسته، هكذا تتجسم صورته أمام عينيها ثم تتلاشى. ثم يعاود زياراتها مَرّةٌ تلو المَرّة، ليحكي لها قصة شوقه وهيامه وتلهفه ومودته وصبابته. تبتسم له حين يهمس لها بصمته، فتنسى مصابها، لتغرق في أتون الكرى، لائذة في سرها بين اليقظة والحلم.

أحيانا تشعر به يعاتبها، أحيانا يعاكسها، فهي بذاتها مفتاح سعده، ما أن تشعر بذلك حتى تجفل من غفوتها، لتجد ذاتها جالسة مشعشعة الشعر في سريرها كمجنونة لا تعرف ماذا تبغي وتفعل.

لشدة وقع الفراغ وتأثير الوحدة عليها؛ تعود بعد فترة وجيزة مضطرة لتعانق الوسادة. لتبحث في صرتها عن اللغز الذي يثير حفيظتها، ذلك الطيف المختبئ في ثناياها وفكرها، ما أن تضع خدها على وجه المخدة؛ حتى يزاورها طيفه في وحدتها بحرشة تخدش غفوتها، في صمت وجنون يشدها.

هكذا تشعر بطيفه يخرج من جلدها من ثنايا شعورها ووجدانها ليستقر في قلبها وذهنها. ما أن يشاقها الوسن؛ حتى يناور بصوره في سماء ذاتها، يحاكيها، تحاكيه، فتحاكي المخدة بشيء من الانطواء والرجاء والغضب.....

- ترى ما بك يا مخدة، لِمَ تعامليننني بارتياب وقسوة، لمَ تشعرينني بالوحدة، ألستِ صديقتي في الظرف والمكان؟ ألست صاحبتي، حين تحاصرني الحجج التجئ اليك؟ أضع راسي بحجرك؟ أية وساوس تخرج من معدتك؟ أية عُقد ترميها في طرقي؟ فأنا لا أستطع تحمل مشقة هذا العبث. كمجنونة أهجس بالشياطين تشاركني وسني وغفوتي، تحتمي بظلك، بت أخاف منك، أرتعب من عبثك بأحداقي...
يا ترى لِمَ هذه القسوة؟ لمْ أجد برفقتك سوى هواجس تسرح بأطيافي لا أحتمل صحبتها، لا أحتمل تلك الشرارة التي تنبعث من أعماق الظن الكائن في عالمك الموحش، أنه عالم ميتافيزيقي لا يمت لي بصلة، مليء بالفنتازيا، غارق في بحور الشك والارتياب والتكهن.

حينها لا تجد سوى صمت يطغي على أجواء الغرفة، ترفع الهاتف وتتصل بزوجها:...

- الو...أحمد أن مشتاقة لك، لا استطيع النوم.
- وأنا مشتاق أكثر، تحملي هذا العبث فلا حلول لدينا.
- لأجل عينيك سأتحمل، سليني، قل لي كلام حب وغزل عسى أنسى الوحدة ومنغصاتها.

- أحبك – أحبك، أتعلمين حين تزقزق العصافير عند المساء يخطرني طارش يذكرني بك، وعندما تعاود الكرة في الصباح يجلجلني ذلك الطارش بحيث أو احتضانك، ترى ماذا يبغي مني وأنا المكبل بمحبتك؟
- الله حبيبي قل لي أنت ماذا يبغي منك؟
- يبغي أن يرى أن يجمع الحبيبة بالحبيب، أنه يتفقد جمالها، فأنا ذلك العصفور الذي يجهش بالبكاء حين يكون وحيدا، انا ذلك الطارش المشتاق لسحر عينيك ورقة شفتيك الجميلتين.
- حقا ما تقول؟
- هل عندك شك بأنك احلى وأغلى امرأة في الدنيا هل عند شك في ذلك؟ لولاهما ما فكرت أن أرتبط بك، هما اللتان جذبن روحي لروحك الترفة، ثم بعد ذلك تعلقت بسحر الروح والجسد ورقة الأنوثة التي لا تشبه غيرها. أنت لست زوجتي فحسب، بل حبيبتي وصديقتي وعشيقتي.
- شكرا لك، الآن منحتني جرعة كافية من الراحة لأتحمل الصبر، الساعة الآن تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، دعني أنام ولتنام أنت أيضا لتذهب إلى عملك في الصباح بذهن متفتح.
- تصبحين على خير.
- وأنت من أهله.

بعد تلك الموجة من الإرهاصات التي تنتابها؛ تعود لحالتها الطبيعية، تهجس بأنها انزلقت في طريق الوحشة أكثر مما

ينبغـي، لـذا تحـاول أن تعـود لحالتهـا الطبيعيـة، أن تهجـع لـذاتها وتهمـل الأنـا المتسـكعة فـي دروب الخيـال، تـود أن تنتـزع ذاتهـا المنزلقـة مـن متاهـات الطـرق، مـن قيـد الأرق، أن تمـزق وشـاح الظل الذي أضلَّ الروح والحدق.

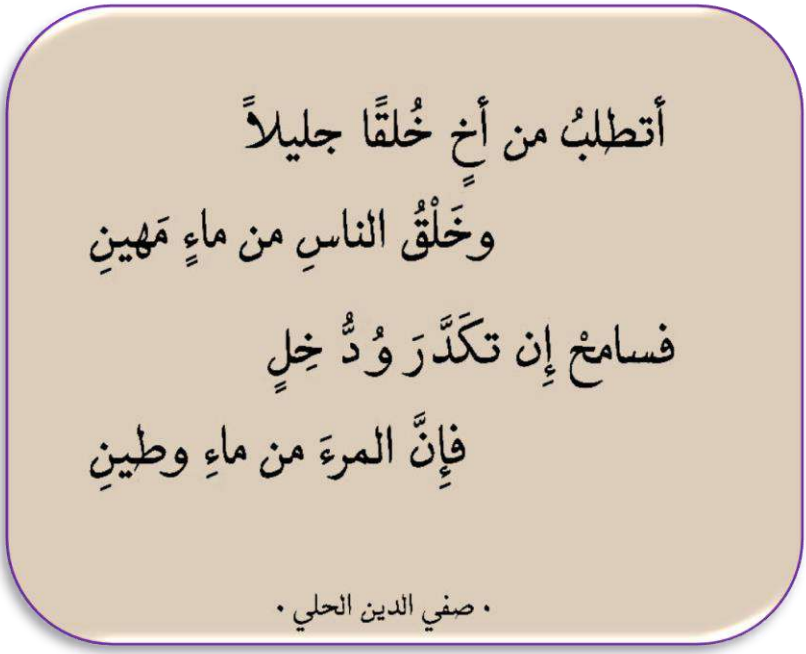

3- الطنطل

جلست في أحد صباحات الروتينية مكدرة، منزعجة، دائرة في مكوك العقد، يشاقها ملل رائب في مخها، ظرف طلس، الطقس العجف لم يغادر دكته، لم ينتهي قرفه. إلى جانب ظرف مماثل دائر في حلقة الهجرة بلباس روتين متبع في الكامب. ما كدر نفسها هو عدم وجود وجه تغيير في محيطها، لم تتبدل الأفكار التي تعيش معها، لم يتغير شيء من السلوك والمعاملة واللبس والمأكل، كل شيء بقي يدور في فلك الروتين، فلم تجد ما يلهي ذاتها وما ينسيها وجودها بالكامب ولو لفترة معينة، لتتحمل الصبر وعقدة الوحدة.

صارت تتجول في تلك المساحة الضيقة من الغرفة، تتحول من السرير إلى النافذة، إلى الدولاب إلى الطاولة وكأنها تبحث على شيء ضائع أو شيء ما يسليها، تحاول تغيير نهج حياتها بطريقة ما. لذا بادرت بتغيير مسارات العين نحو تلك الأشياء المحيطة بها. تغيير الفكرة نحو قيمة الأشياء ووجودها في طوق المصاحبة. ودت رسم هياكل أشباح تؤانسها، تحاور ذهنها؛ حتى لو كانت من الجماد المحيط بها تلهي ذاتها. المهم أن تتحرك بذاتها عن نقطة الجمود الفاصل بينها وبين تلك الأشياء، لتتحرك وتتحرر تلك الأشياء مع تحرك الفكرة في ذهنها، عليها أن تتخيلها بأرواح، لتهجس بالأرواح تعيش

معهـا، حيـث التغييـر قـد يجلـي الصـدأ مـن بعـض صـدفية الـذهن، يجلي لزوجة العسر والشؤم من سُرى التفكير.

إذا مـع دقـائق الصـبح أضـحت مرنــة، حالمـة، رقيقـة، دقيقـة، مـا أن تنظـر إلــى شــيء مــا؛ حتــى تتشــبث بــه، تحــاول أن تجلــي وسـخه، تمسـحه، تصـبغه بصـبغة الـود، تصـيغه بصـيغة جديـدة، تبحـث فـي مكنونـه عـن روح صـدوقة، عسـى أن تجـد فيـه صـلة تجمعهـا بـذلك الشـيء، أو تخلـق صـلة صـداقة معهـا لـتهجس بأنهـا لهـا دور فـي تسـوية العقـد ولملمـة الأجـزاء المبـذرة مـن الحيـاة، تحـاول أن تتعـرف عـن الاشـياء المُلمـة والمحيطـة بهـا، بـأن تحلقهـا بــبعض الأعمــال التــي تخترعهــا لــذاتها، أو تعلقهــا كــأقراط فــي ذهنهــا لتشــغل تفكيرهــا بمــا يســليها، أو توضــب اشــيائها فــي مسارات فكرها لتبجيلها وتنعيمها...

نظــرت إلــى الطاولــة التــي كانــت قــد أهملتهــا طــوال فتــرة المصــاحبة، علــى الــرغم مــن أنهــا تحولــت مــن غرفــة لأخــرى بسـبب مخالفتهـا شـروط وقواعـد الكامـب بهربهـا لحضـن زوجهـا، إلا أن صـحبة أسـبوعين مـن العنـاء تركـت فـي الغرفـة الكثيـر مـن الأشـياء التـي لـم تنتبـه لهـا. وجـدت الأشـياء مكومـة فقوهـا، وجـدتها متسـخة، مهملـة تعـاني مـن القـذارة، تتـراكم عليهـا أشـياء مـن المفروض تكون في سلة النفايات.

تلـك النظـرة للطاولـة جعلتهـا تحـن إليهـا وتـرق لوجودهـا؛ حتـى عاتبتهـا بالأشـياء المتراكمـة عليهـا، كأنهـا مـا كانـت تنظـر لهـا قبـل ذلـك، كأنهـا قالـت لهـا؛ أهملـت ذاتـك لعقـدة تخصـك، لفتـك، فكفـى إهمالـك لـي، أهتمـي بـي مثلمـا دعتـك فتنتـك أن تهتمـين بهـا، مثلمـا

تهتمين برشاقتك وجمال وجهك ودفتر أسرارك، جنبيني قرف الاشياء التي تركتيها على عاتقي دون اعتناء...

من نظرتها هجست بها تحاورها بقائمة من العتب، وكأنها تخلت عن صفتها، تخلت عن رونقها، صارت ترفأ بالكراكيب والقذارة والغبرة التي غطت نضارتها. نضت رونقها وهيَّ تحمل بعض أشياء التي هي ليست ضرورية، غارقة في عالم من الحزن والكسل. هجست بها تعاتبها عتاب العشرة، لما تكلل به حملها من أشياء جزلت لونها ورونقها والقها وبريقها؛ كللها عجز عن رفع تلك العناوين عن كاهلها، لعدم وجود أماكن أخرى تشاركها الهم وتفي بالغرض.

صارت تحصي تلك الأشياء المطروحة فوقها من علب عصائر كارتونية فاضية ومملوءة، علبة الحليب وأجبان أصابها العفن لطول فترة بقائها مفتوحة، مما صار نتنها يخنق الأجواء دون أن تنتبه عليها، وعلبة سمك السلمون التي صارت مصدر تغذيتها الرئيسية في تمويل حاجتها من الغذاء بعد أن كرهت طبخ المطعم المكرر، بالإضافة إلى صمونة جلدة أضحت كالحجر وبعض أكياس تحتوي على فواكه من برتقال وتفاح، وعلبة شامبو وفرشة أسنان كانت نستها من يوم أمس بعد فرش أسنانها قبل أن تركن إلى النوم، نتيجة الروتين الذي صار يمتص جهدها وألقها وفتنتها دون أن تشعر بذلك.

أخذت ترفع عنها الاشياء الغير ضرورية كعلبة العصير الفارغة وفرشة الاسنان وأكياس الفواكه والاشياء المستعملة،

مسحتها بقطعة شاش، بدت تستعيد نضارتها وحيويتها والقها، أضحت تبتهج في داخلها وتعاتب نفسها:....

- ما بك يا جنان؟ لمَ كل هذا الإهمال؟ ما كنت هكذا من قبل، عودي لبعض جنان ما قبل الزواج، يا ترى إلى هذا الحد أثر فيك حبيبك؟ أحسبي ذاتك غير متزوجة، أخرجيه من فكرك.

لا يا جنان.. فيما سبق كنت أعيش مع أهلي، أمي، أخواتي يحيطون بي، أما الآن محاطة بالوحشة والسرير والطاولة والدولاب والكرسي. كيف أنسى؟ أنني مكبلة بقيود لا استطيع تجاوزها، فيما سبق كنت أمتلك الحرية، أما الان مقيدة بالهم والروتين، على الرغم من تقييد ذاتي بالزواج إلا أني أعشق قيوده.

آه يا جنان... هذه الدوامة متى تنجلي لأشعر بعودة الحياة لمسارها الجديد، لألقها وفتنتها، مشتاقة للحرية وحضن حبيبي....

عادت لغرفتها بعد أن أخذتها الأفكار بعيدا، نظرت للطاولة نظرة ثانية، كأنها ابتسمت لها وشكرتها على إعادة حيويتها لها، أضحت أفضل مما كانت عليه. عزمت على تنظيف الغرفة والدولاب والكرسي... اتجهت إلى الكرسي، ترى ما بك حزين لا تهتز لوجودي؟ هل الغبرة أعمت بصيرتك؟ أم الوحدة والإهمال؟.... لا بأس، سأجليك، انظفك، أراعيك. سنكون اصدقاء..

اخذت قطعة الشاش ومسحت بها الغبرة من على الكرسي، هؤلاء هم اصدقائها وشركائها في الغرفة الكرسي والطاولة والدولاب والسرير والنافذة، عليها أن تبادلهم العناية حتى تهجس بشيء من البهجة. بعد أن أنهت نظافة الكرسي الذي بات هو الآخر يبتهج، اتجهت نحو الدولاب لجلي الغبرة عنه، وجدته شاخصا في الزاوية كشبح، لنحافته وضيق حجمه لا تستطيع أن تضع فيه سوى علبة مكياج وسترة تقئها شر البرد. هو الآخر بدا أفضل حالا من الأول...

ثم استأذنت من عامل النظافة الذي يأتي كل صباح بين الثامنة والتاسعة لينظف الممر بان تستعير مكنسته لتنظيف أرضية غرفتها من الغبرة، يبدو انها منذ أن سكنتها لم تعر اهتماما بها. هكذا تمكنت من تنعيم أجواء الغرفة وتبديل شكلها لتضفي عليها شيء من الألفة والراحة، لتجعلها باسمة بوجه ضيوفها.

بسبب الروتين كانت جنان قد نست ذاتها واهملت حالتها، اضحت أشبه بالمريضة، أضحت تعجز من المحيط ولا تحتمل ذاتها، لا يعجبها العجب، ولا تغريها أكلات المطعم. لا تهجس بلون فرح يؤنسها قط حتى لو تخيط به جفن الحدق. ظلت تعيش في ظل وحدة عجفاء، فاقدة الألق والعاطفة، بسبب حجم الكبت المراق في جوف حياتها...

بقيت مشكولة بالهم والعقد، أنها لعنة الغربة والحسد، لعنة الهجرة والفراغ الذي صار يبتلع الأشياء من حولها دون أن تهجس بالمد والفطنة، غدت حاجاتها الخاصة ليست ذا أهمية في حياتها، ذهبها مركوم في خزانتها، ساعتها مطروحة على

الطاولة، علبة مكياجها وأمشاط شعرها في الدولاب، صارت تنظر لحاجاتها بازدراء، تلك الاشياء افتقدت ميزاتها ومعانيها في حياتها وفي عينيها. تلك الأشياء عاشت معها الغربة والوحدة بذات الكبت فافتقدت قيمتها، تحولت لأشياء تافهة مغشية بالغبرة والهباء، قلت حاجتها الشخصية لها، ارتدت لون الروتين والهباء الذي جزل رونقها، لبست ثوب الوحدة، صَدَأْتْ في أركانها، تجردت من الغاية والعناية، طالما لا تجد من يقدر ألقها ونضارتها.

تلك الجواهر الماثلة بين يديها؛ هي من ثمنتها حين أعطتها قيمة من فتنتها وألفتها وحسنها ورشاقتها وألقها. هي من جعلت لها هالة في عين الحبيب والناس المحيطين بها حين لبستها. هي التي سنفرتها بحسن بشرتها وفتنتها، فجعلتها تغر أعين الناظرين. لمعتها، غرتها بحلاوة قدها المياس والطراوة المدفونة بسر البشرة وجميل الجيد المرمري، أعطتها ذلك المد من الالق وخصلة من الروح بمدى التماسها مشاعرها وعطفها واحاسيسها وفتنتها. هي التي القت عليها ظلالها ولون بهجتها وبريق ابتسامتها وسر نجواها.

كل تلك الصفات المطروقة على سحرها ورقيها، قد أذيبت بنار وحدتها السليطة، اختفت عن شبكة العين والذهن، غارت في متاهات القلق والتفكير، وذلك بعد أن طُفِئت شعلة انوثتها في الجسد. هجست بأن الجمال ليس له صلة بالجمال الذي تقصده دون حرشة الحبيب؛ فهو لا يعني لها سوى قبح يلعق بالجسد دون إطراء الحبيب ولمسة يده الحنونة. لذا صارت لا تتجمل،

لا تصقل ذلك الحسن والبهاء بدرجات لون الحياة دون حافز يحثها على تجديد حيويتها. في الوقت الذي به كرهت العيون المتلصصة بها، عجزت عن فهم التجمل دون أن تقرأ حروفه ومعانيه في عين الحبيب.....

لمن تتجمل؟ لمن تشيع أبداع الجسد والروح وهي غارقة بفيض الآهات وصخب الجدران الصماء؟ تلك التي لا تفقه معنى الصمت والتأمل والجمال الغائر في ذهنها.

باتت تأكل من ما يوزع عليها من مؤن مجبرة، تأكل لتعيش، لكي لا تنفذ تلك الفتنة من جسدها، لكي لا تنضب تلك الطاقة، لتبقى متمسكة بالحياة قدر الإمكان حتى يحين الفرج. فهي لا تأكل إلا ما ندر، محتفظة بتلك المواد التي توزع على المتواجدين في الكامب بأكياس معلقة بخيوط تتدلى خارج النافذة، كي لا تفسد وتتفسخ وتتعفن، لعدم وجود براد داخل الغرفة. حيث درجات الحرارة في الخارج تشير إلى درجات متدنية بالسالب.... على الرغم من أنها تسكن في الطابق الرابع؛ إلا أنها لا تستطيع تجنب عبث الفئران التي تتسلق الجدران لتنقض على الأكياس المليئة بالأجبان والخبز لتفسدها، كما أنه إذا ما تركتْ تلك المواد في داخل الغرفة ستهاجمها البكتريا خلال يوم أو يومين، كتلك الأطياف والوساوس التي لا تنفك عن ذهنها.

بقيت تعيش في غرفتها الصماء في حيرة من أمرها، مشكولة بين عبث الفئران ونقمة البكتيريا من جهة والبرد والثلوج المحيطة بها وبعد الاسواق عنها من جهة أخرى....هكذا عاشت

في حيرة من أمرها، بين عصف الوحدة وفراق الحبيب وتنكيل الفئران والبكتيريا، والترقب المذل لقرارات دائرة الهجرة المنغمسة بإجراءات الروتين، دون أن يكون لها ارادة في ذلك.

كانت تضطر إلى الاحتفاظ بعلب الأجبان والحليب والخبز والعصائر في الشبابيك للحالات الطارئة، خاصة وهي تعيش في بقعة نائية تبعد عن أقرب متجر بأثنين إلى ثلاثة كيلومترات مع عدم وجود موصلات سلسة تفي بالغرض، في بقعة معزولة تحيط بها أسلاك شائكة وثلوج كثيفة بارتفاع قدم، تمنعها من ان تجازف بذاتها وخاصة إذا هبت الرياح السهكة في المكان.

ففي حالة نزول الثلج أو هطول المطر؛ يستحيل علينا الوصول لمركز المدينة دون عجلة خاصة، هذا إلى جانب الزلق الذي نتعرض له والبرد القارص الذي لا نتحمل جلده. لذا تجد النفس عاجزة على تدبير أمرها دون واسطة ما تذلل الصعاب، لن تستطيع قطع المشوار الطويل وهي تجر ذاتها بوحدة تكاد تأكل من ثنايا فكرها ورغباتها الكثير، هذا إن كانت لها رغبة في تجديد حيويتها ومقاومة الكسل وجز صدأ الوحدة. فتلك الرغبة إن كانت لها وجود؛ لن تدوم في داخلها طويلا مع ظرف طقس سيء وعصف ريح جافلة تصاحبها أحيانا الزوابع، كون المنطقة جبلية مرتفعة عن المدينة التي تقبع في عمق الوديان. فتلك تتطلب جهدا استثنائيا لإزالة المصاعب لا تقاومها أنثى.

كان النزل البوسني يسكن مع عائلته إلى جانبها، كان يمتلك عجلة **فاكس واكن** صغيرة ينقل بها بعض أفراد عائلته المكونة

مـن سـبعة أشـخاص للمدينـة لغـرض التبضـع، أحيانـا كـان يقـوم بخدمـة النـزلاء مقابـل مبلـغ بسـيط يعـوض بـه قيمـة مصـروف البتـرول. كانـت تسـتغله جنـان وهنـادي وأميمـة لإنجـاز مهـامهم الضـرورية والعمليـة. يكلفونـه بالمهـام فـي الأسـبوع مـرة أو مرتين.

علـى أيـة حـال كانـت قـد جلسـت علـى الكرسـي الوحيـد المطـروح فـي الغرفـة، والـذي بغثاثـة سـكونه زاد وحـدتها جزعـا، لعـدم اشـغاله فتـرة طويلـة مـن قبلهـا أو مـن قبـل آخـرين منـذ أن سـكنت الغرفـة. لـم تلتفـت إليـه، لـم تحركـه عـن مكانـه، لـم تحيلـه لخـدمتها. هالـه الإهمـال والجمـود، ركبـه الغـرور النـاجم عـن العقـد التـي صـاحبتها. لـم ترفـأ بـه ولـم تقـدر وجـوده كالطاولـة والخزانـة. كـأنَّ وجـوده وعـدم وجـوده سـيان. وجـوده فقـط مسـلم باحتضـان ظـلِ الحبيـب الغائـب، أحيانـا تتخيلـه قـابع علـى الكرسـي أمامهـا، أو تشـبحه يملـي ذلـك الفـراغ بكيفيـة مـا، تضـامنا مـع مـا تهجـس بـه وتحس به نفسها.

مـا أن جلسـت علـى الكرسـي؛ حتـى شـعرت بجلـده، بجلوسـها عليـه دبـت فيـه رعشـة، أو شـيء مـن الحيويـة، دبـت بـه نشـوة وهـو يحتضـنها، صـار لـه قـدرا وجـدوى. كانـت قـد مسـحت عنـه غبـرة الوحـدة والـزمن بشـاش أبـيض، ارتـدتْ لـه حيويتـه، صـار لـه قيمـة مـن ضـمن قيمتهـا، علـى الـرغم مـن أنـه مجـرد كرسـي خشـبي أجـرد، إلا أنـه يفـي بـالغرض، علـى الأقـل مـا يخـال نفسـها حـين تتخيل الحبيب جالس عليه وهو يحاورها وتحاوره...

لصفة خشب الزان الجلد والذي عقر مقعدها، جزل عنها راحتها وصحبته، لذا لم تدم بجلوسها عليه سوى دقائق معدودة، بعدها طفقت تقف في النافذة لتستطلع ما حولها من مناظر مبعثرة في الأفق، بعضها بهيجة وأخرى يكتنفها الكآبة، مناظر تجعلها تفكر بسر القانطين في تلك البقعة.

وهي تنظر من النافذة إلى ذلك الفضاء البعيد المترامي، وتلك الغابة من سواد الظل المحشوة بين الوديان، هجست بالوحشة تبدأ من هناك، كدخان يزحف على الأماكن المحيطة بها. بدأت تنتابها تلك الوحشة والتخوفات الغير مبررة والتخيلات البعيدة عن الواقع، نتيجة السكون الدائر حولها إلا من صفير الريح ودندنة قطرات المطر الرخيم، تخيلت تلك الغابة في ظل الهدوء والوحشة التي تحيط بها ما في داخلها، خالها تعيش بها وحوش وشياطين والجن مثلما كانت تسمع من جدتها في لبنان، بل تخيلت اشجارها الشامخة هي ملجأ لتلك الوحوش ومويئ للجن والشياطين، خنادق عميقة تشق جوف تلك الوديان خلف الهضاب المحيطة بها، تعيش هناك لتبتعد عن صخب البشر، خلف حاجز الظن والسكون، هناك حيث ترتعد الفرائس....

تخيلت ذلك الوحش الافتراضي يدور في مخيلتها، بل لبد فيه كحقيقة، هجست به يقترب من سرائرها مع تدفق الوجوم، مع وحشة الليل، يخرج من تلك المهادن الغائرة في جوف الليل ليقتحم أسوارها برفقة جيش من الكوابيس التي تنتابها أثناء غفوتها. تلك المخيلة لم تفارق صحبتها إلا مع تباشير نور

الفجر، حين يطارد الوحشة في محيطها وفي مخيلتها، عندها يصمت صرير الخوف والسكون المطبق.

مع مرور الأيام وجدت تسلية في صحبة الغابة والتي أضحت مداعباتها روتينية، تسلية سرقتها من محيطها الكئيب، أعانتها على تجاوز أزمتها العصيبة لفترة انشغالها بذلك المحيط، لتنقلها لبوادر أزمة أخرى نفسية. كانت قد تعودت على جزع تلك الأشجار الباسقة، والتي تبدو عن بعد تحت أضواء مصابيح الأعمدة كظلال عتمة، تتحرك مع مرج الريح وزخات المطر، وكأنها طناطل متهافتة في الوديان، تحف السبل مع صفير الريح وشغب العتمة. هجست بها لا تختلف من حيث الظرف عن حال وحدتها، مرمية في تلك الأرض الجرداء المقفرة كالسجين....

باتت الصور تتقلب وتتجسد أمام ناظرها بأشكال متعددة، تظهر لها بأوجه وأقنعة مختلفة، تراها وحش يتقمص هياكل الأشياء الجاثمة خلف النافذة. أحيانا تشعر به جان أو طنطل أو شياطين تتحرك، تحرك الريح أو الريح يتلاعب بها، حيث تهجس بأعمدة المصابيح تقترب منها. بل تهجس بها تلبس شكل عمود النور القابع خلف البناية لتتحرش بها، فيميل فكرها مع فورة الضياء المتوهج تحت رذاذ المطر بحيث تهجس به يتراقص مع موجة الريح السهجة، حين تسف حبات المطر الساقطة إلى النافذة، فيشتط الوهج تحت وابل سقوط المطر ونثار الثلج..... ما أن يستعيد الطقس بعض عافيته تهجس به يتخلل مشاعرها حتى يخفت ويخفق هدره.. كأنَّ روح ما تتجسد

قـوام عمـود النـور والأشـجار الغـائرة تحـت جـنح الليـل. وكأنهـا ترتعد من زمهرير الريح والمطر.....

كـل شـيء غيـر طبيعـي، حركـة غريبـة دائـرة حولهـا، الأشـجار وأعمـدة النـور وزخـات المطـر والـريح السـهجة، كلهـا تتـراقص فـي تظـاهرة احتفاليـة مـع نشـيج الرعـب المتـدفق والمتمثـل بـالعزف الـدائر فـي الأجـواء والمنطلـق مـن غابـة الأشـجار. كأنـه كرنفـال فـرح تحتفـل بوجـود الأميـرة جنـان فـي تلـك البقعـة النائيـة، كـل شيء مبتهج؛ حتى الظلام والقدر والسَّحر...

مـع تتبعهـا المسـتمر للمنظـر القـابع تحـت سـقف الليـل؛ كـل شـيء بـدا مـن حولهـا بـارق بقلـق غيـر طبيعـي، تهافـت وشـاح النـور نحـو الأرض، أنتشـار الاشـباح مـع صرصـرة الـريح، المطـر المنهمـر منـذ أيـام ممـا أجبـر قلبهـا يخـق بخفقـان. صـار يتـراءى لهـا النـور عـن بعـد كجـدار هيـولي لا يمكـن تحديـد مكانـه، يتحـرك مـع رشـق الـريح وزخ المطـر، أصـيبت برجفـة وجفلـة اخترقـت مفاصـلها، خـارت فـي ظنونهـا، ممـا اجبرهـا بـأن تلـوذ فـي جـوف السـرير لبرهـة. ثـم عـاودت النظـر إلـى رقصـة الأشـجار وذلـك النـور الملفـت للنظـر مـرة أخـرى. اسـتمرار خريـر المـاء عبـر المزاريـب بـات يقلقهـا، لـم يخـف وطـأ المطـر ابـدا، كأنهـا تحضـر زفـة عـرس، فـرح دائـر بـين وهـج ضـوء العمـود ومـيلان أغصـان الشـجر مـع عـزف الـريح ورقـص المطـر. هكـذا تـراءى لهـا المشـهد العـام بعـد أن تـوهج الضـوء توهجـا شـديدا ثـم خفـق وخـف وتـلاش. وهـي فـي مكانهـا تنظـر مـن النافـذة، كـأنَّ عمـود النـور أبتسـم لهـا، طمئنهـا، فـرح بوجودهـا، هجسـت بـه يقتـرب منهـا.. مـا أن تصـيبها رجفـة

حتى يستشعر بحالها وقلقها، ليعود لوضعه الطبيعي الصحي ينير محيطها، تهجس به جان غرَّ بفتنتها، مع اشتداد المطر تهجس به يقترب من ظنها، قرين يود الارتباط بها، هكذا خيل إليها المشهد...

ما أن تهدأ مخاوفها حتى يعاود كرته ووهجه برفقة العصف، حيث يزداد وهجا وألقا حتى تسعى الأشجار خلفه نحو النافذة مبتهجة. الجداول لم تكف مسيلها.. وماهي سوى هنيهة من الزمن حتى فض صبره، أنتحر المصباح فعمت الأجواء دماسة مريبة. كان قد توهج وهجا شديدا بحيث غطى على المحيط كله ثم أنفجر على حين غفلة... عندها خفقت الدائرة المحيطة بها، أخافتها، جلتها لسريرها والرعشة تكبل أطرافها، كأنها هجست بذلك الضوء المستفيض دخل غرفتها ثم أختفى في زاوية منها وربما في سريرها..

على مضي ايام ضلت تراقب ذلك المحيط بوجس، وبشيء من ذلك التطفل الطفولي، خوفا من المفاجآت التي تهابها في وحدتها، فالمسافة التي تفصلها عن تلك الغابة مليئة بالوساوس والقلق والاشباح الطائرة، تقطنها أنفاس من الريبة والتخريف، تختلف عن تلك القابعة معها داخل الغرفة التي تأنسها احيانا، تلك التي تتبع مخيلتها في ظل الوحشة والوحدة.

تلك النظرة المتشائمة انعكست في مرآتها، لتجد ذاتها مرفأ تستقبل تلك الهواجس بوجس، ترفقها بخيلائها خارج مضمار الغرفة، لتقيس حجم هوسها على مر الايام بالمحيط الذي يشاركها ذلك الوجس وريبة المكان. هكذا تشكلت الفكرة

وتبدلت النظرة من يوم لآخر، ما أن تختالها الوحدة حتى تركب مركب الخيلاء، ترغب بكسر طوقها والقيود المرفقة بها، لتنطلق نحو صرة الحياة بشيء من الحرية وأن كانت تحبط عزيمتها تلك المخاطر بالمخاوف. وما أن يشتد البرد؛ حتى تتكور مشاعرها ككرة الثلج، فتحتضن مخدتها مناجية حبيبها البعيد بالتخاطر، بعيدا عن عالم الغاب والوحشة.

ذلك الفضاء من الكون الطافح بالأشياء من حولها، هو عالمها الثاني المليء بالتناقضات والوحشة والسكون والهدوء، ففي الوقت الذي تتأمل أن ترتع بالحرية التي تتمناها؛ تسلبها هويتها، كأنّ الوحش القابع في جدارية مخيلتها يتدخل بشؤون مصيرها، يعبث بثنايا قدرها، يهجع إليها كبعبع من حيث لا تدري أثناء نومها، يسطو على مخدعها، يخطف أسرارها وسرائرها... تلك المخاوف جعلتها تهجس بأشجار الصنوبر والتي قسما منها تعرت وتخلت عن عفتها امام الصقيع كامرأة مومس، لا تخجل من العهر، نضت أوراقها، شرحت عسر الحالة لكل من ينظر لها، بعد أن تولاها الخريف بوحشته. كأنها بظرفها تحسد جنان القابعة في غرفتها كملكة، بعيدة عن جلد الطقس ولصلصة العيون والريح السهكة التي تعبث بها وهي لا تخجل من تجريدها لباسها.

حينها حمدت الله على النعمة التي فيها، احيانا الأنسان لا يرى النعمة التي بين يديه إلا حين يفتقدها أو حين يقارنها بمحيطه، هكذا صارت جنان تقنع نفسها وهي تقارن ذاتها بتلك الأشجار بأنها في نعمة. حمدت الله على ماهي عليه، لأن الذي يعتريها

مجـرد هـوس، حالــة شـيزوفرينيا نفسـية، انفصــام وقتــي، نتيجــة تكبلهـا بمجموعـة عُقـدْ. وهـي ليسـت حالـة اسـتنزاف مثلمـا كانـت تعتقـد، أنمـا وعكـة أيـام خريفيـة خفيفـة، سـتزول مـع تجـدد فصـول الـزمن، كمـا سـتزول الوحشــة والعقـد بمجـرد أن تعتـرف دائـرة الهجرة بوجودها كلاجئة.

تلـك الأشـجار والشـارع الأجـرد وعمـود الكهربـاء الـذي يشـتكي حالـة الوحـدة، وحـراس الكامـب الـذين وضـعوا ذواتهـم تحـت وقـع ذلـك الظـرف كعبيـد للمـادة، جميعـا قيـدوا أنفسـهم بقيـود الوحـدة والتصـحر مـن أجـل بعـض الـدولارات التـي لا تسـمن ولا تغنـي مـن الجـوع، مـن أجـل شـحن أنفسـهم بكـأس خمـرة وعلبـة سـجائر يقتلـون بهـا الفـراغ المحـيط بهـم.... هـؤلاء هـم المؤسَـف علـيهم، مجـردون مـن المشـاعر كهـذه الهضـاب، وسـور البنايـة وعمـود النـور، يمنعـون عـن أنفسـهم دبـق الحريـة ونعمـة الحركـة والتعامـل مـع الطبيعـة، بـل أنهـم يسـجنون أنفسـهم بأنفسـهم مـن أجـل ملـذات لا قيمة لها.

وحـين تنظـر إلـى تلـك البيوتـات المترامیـة فـي منحنيـات الوديـان البعيـدة عـن نافـذة الحيـاة مـن وجهـة نظـر جنـان؛ ينقـبض صـدرها، تراهـــا وكأنهـــا أوكـــار شـــياطين وثعالـــب تقطـــن الســـفوح والمرتفعـــات. بيوتـــات تهجـــس بهـــا خاويـــة نتيجـــة العواصـــف والأمطـار والثلـوج المحيطـة بهـا، فـلا تـرى منهـا سـوى ضـوء خافـت مختنـق فـي جـوف الظلمـة، تشـكي زيـف الحيـاة وملـل القـاطنين فـي تلـك الـدور. كـأنَّ سـاكنيها ميتـون، أو كأنهـا بيوتـات مهجورة..

لرضاهم وقناعتهم بالعيش في تلك النقطة النائية البعيدة عن المتعة، تهجس بهم ليسوا بشرا اسوياء. وكأنَّ الحياة توقفت في هذه البقعة وبالذات في تلك البيوتات الخاوية. كل دار تتخيلها امرأة شمطاء فقدت ملامح أنوثتها، فافتقدت الجاذبية تماما.

لم تبقى في يدها سوى ورقتها الأخيرة لتزيح بها هم الوحدة والكآبة والقرف والتعاسة التي تلاحقها وذلك العبث الذي صبغ أظافر أناملها بلون الصفرة.... تلك الورقة هي: زعفران الصبر وقبس الدين ولباس الورع والعفة التي تبجلها، تلك الورقة لما فيها من صفات مبجلة؛ تزيدها شأنا وقدرا، تضفي عليها صبغة الاحترام وألق ومحبة المتواجدين معها في الكامب، ورضا كل من يلتقيها ويكلمها.. أنها فعلا ورقة ساحرة تزكي جاذبيتها وصفاتها وأناقتها التي تعبر عن مكنون جنان في مقابل عبث ذلك الظرف السليط. وخاصة هي الوحيدة من بين النسوة التي ترتدي الخمار الذي يبجلها ويميزها عن سائر النسوة.

4- شريط الاختبار

على مضي أسابيع؛ بقي ذلك اللون الداكن من الصدع ملازما لها، وأن كانت تتدرج ألوانه بين ألوان الطيف احيانا. أحيانا ترى حالها عقيمة بشدة البؤس وغلاظته كعتمة السدم، وأحيانا رخيمة بصدع الكمد الرمادي، هكذا ظلت تراوح في مساءات الحالة بين وحدة عقيمة وعسر لابد في القرارات يتحكم في مسكنها.

استمر ذلك المخاض من الإسفاف والحزن فترة تواجدها في الكامب لأكثر من شهر، غدت الحالة تنزف وجودا لفترة مريرة من العقم، دقت رفيف عينها لأكثر من مرة، بقي ذلك العناء يجزل مرامها وقوامها وهي تعيش غيبة الوجود بمزاج متقلب، بسبب عدم وجود حل آني بين يديها، بسبب البؤس العام المصاحب لها.

صار ذلك الوجوم يعتلي قدرها، يعاود جفاه بين فترات اليوم المتباعدة، لتجدها تحتضر وهي أسيرة شوق بين هنات النفس المتعاقبة، قابعة تحت جلد الوحدة السليطة وحالة غثيان تصحبها كل صباح بشي من الألم ولعبان النفس دون إرادة.

صار الشك يرتع في حقل الفكرة، غدا يعكس ظلال العناء على محاسن الوجه ورشاقة الجسد، شغب الفكر شغل القلب بإرهاصاته، بل أمتد وجله إلى أجزاء البدن، بحيث هجست بالجسد قد خس ونحل كثيرا عما كانت عليه قبل القدوم والمكوث في الكامب.

وهي في همها جذبتها الذاكرة لحوضها، شبحا ما تمثل لها بشكل الحبيب، مس فكرها، قمص جسدها، تغزل بمفاتنها ورقتها، جعلها أسيرة الهيام، لتنسى محيطها المقرف حتى حين.

ما أن تَظِلْ؛ تُظلْ الشفتين بمسحة كآبة؛ حتى ينضب ريقها ويشف رضابها، تهجس بالحشفة خشنت وجفت لغلالة الود الذي يركبها، ليطفح عصف الفراق على الجفنين كظلال عناء وتعب نتيجة الأرق اللابد في الجفنين.

صار نار الشوق يمتد فوق قوام الجسد بشيء من الحمى، يغرق مواضع الفتن بلفحة الرجاء، بل أنه غرز الحمى في كل خلية من خلاياها، في كل ثنية من ثناياها؛ حتى تحول ذلك الجسد لقطعة جمر تشع لظى صمت، نتيجة عبث الألم الذي في مرافئ الفتنة..

هكذا صارت الوحدة تقودها إلى وهدة عزف الجنون، بحيث تجعل الحمى تفيض بدخلها، سخونة تتجمع في مرافق الأنوثة من الجسد، تشعشع حساسات الرغبة الجنسية لديها لتميل ميل الثمر الدانية قطوفها إلى جهة الحبيب، لتجد الطفح الوردي من البقع ينتشر على ثنايا الجسد كعلامة رصع أو مرض. رافق شعورها غثيان وتقيؤ، وبالذات في الفترة الصباحية بعد استيقاظها من النوم مباشرة. لم تترك لها فرصة تحسس الراحة والوجود قط، الجفلة اقتحمت صمتها وأناتها، أودعت في قلبها شك وفي ذهنها وجل بإصابتها بمرض كورونا اللعين الدائر في الكرة الأرضية...

اعتبرتْ الحالة مجرد عصارة تراكمات وغصات الم ووحدة لعينة تفجرت في داخلها قروؤها، فتمادى الألم يسري في الجسد، ليشرع تأثيره على كل موضع من مواضع السحر والفتنة، وكأنها هي الأخرى صارت تتبع قدرها بحثا عن سر الألم ولغزه دون جدوى.

العياء بدى يسري في الجسد، غزاها كحشرة خبيثة دخلت في ظنها وفكرها وشعر رأسها، استباحت ثناياها، غطت على مفاتنها. أضحت لا تدرك حقيقة تلك الحشرة إن كانت رديف روح زوجها، أم زيغ العيون الحاسدة وأنفاس المغرضين والمغرمين بفيض حسنها وفتنة جسدها، أم عبث شيطان أستهام بها فأولغ الشك في صدرها وظنها. أضر بها المرض، فأصبح ذلك الجسد البريء المحشو بالجاذبية والأنوثة كخيش من الألم والدنف والشك، لا طراوة ولا رقة فيه....

مال بها الشك إلى أصابتها بلعنة الكورونا التي لا تفرق بين الفتنة والقبح، انحدرت إليها كون شكواها تعدت حدود النفس فأضرت بها. أضحت أسيرة هوس وقلق وهوى وأحلام غائرة في جوف العدم، ما عادت تنعم بسنا نجم ولا ترأف بنور القمر ولا بضياء الشمس.

لا تدري ماذا تفعل حيال نفسها، كي تجرد ذاتها عبث الظرف وقيد الوحدة ولغز التفكير وذلك التغير الفسيولوجي الطارئ على أعضاء الجسد، لقد تحملت نكد الظرف مدة شهر ونصف قبل الزواج حتى تعلقت بزوجها؛ ثم نكث بها القدر، قيدها في صرة العقد مع دائرة الهجرة، ثم ركنها في هذه البقعة الرخوة

المليئة ببكتريا الوحشة والتوحد والانعزال، والتي صارت هوامها تجيش في الذاكرة بكم العقد، بحيث افتقدت قابليتها على التناغم وتحمل منغصاتها المتجددة.

ظلت تعاني مدة أسبوعين كاملين من حالة الضعف والهوان وفقدان الشهية والتقيؤ، فقدت قابليتها على تحمل أزف الحالة، بل أنها باتت تنزعج من دبابيس الشك وصعقتها، ففي قرارة نفسها أيقنت بأن حالة الصداع ليست حالة مرضية، ولكن استمرار تقيؤها يؤكد شكها بمرضها. ما يخيفها بأن أحد المعنيين نقل للمشفى ثم فارق الحياة وهو بغر شبابه، نتيجة اصابته بعدوى الكورونا.

بددت شكوكها زميلتها هنادي حين أخبرتها عما يحصل معها، التي تبدو أكثر خبرة منها في مجال الحياة، كونها بكر أمها، أودت بها إلى إبعاد فكرة إصابتها بمرض الكورونا، قالت لها:...

- لا أرى فيك أعراض المرض، المرض لا يصبر على مريضه مدة أسبوع واحد، أشعر بوعكتك وعكة حنين وزواج وتغير فسيولوجي.

فكرت مليا بذاتها من أن حالتها فعلا لا تشبه أعراض أمراض البرد، فهيَّ لا تشعر بقشعريرة في جسدها، ولا بنحول وألم في مفاصل وعضلات الساقين، ولا بتعب في الشهيق والزفير، ولا تنتابها قحة الى تلك الأمور المصاحبة لأمراض البرد والتي قد

تطرأ على بال المضطرب، لتزيغ عن فكرها وطأة الشك الذي أنتابها، قالت لهنادي:....

- ماذا تقصدين؟ وما ذاك الذي يصيبني؟

ثم أن الحالة بدأت تتكرر عليها مع استيقاظها من النوم كل صباح، تشعر حيالها بصداع يصحبه حالة غثيان وتقيؤ ينهك جسدها ويرهق صحتها.

- أقصد ألا تشعري بتغير في المناطق الحساسة من جسدك؟ مثل حلماتك، مهبلك، رائحة جسدك؟
- بلا، حلماتي توردت، ورائحة جسدي تغيرت، واشعر بسائل لزج عند التبول...

كانت قد شعرت بتغير طفيف يعم المناطق الحساسة من الجسد، إذا وجدت هناك تغير في لون حلماتها، بدت تبدو أغمق لونا مما كانت عليه، أضحت بمثابة الورود الوردية، كما صارت تشعر برطوبة مهبلها بشكل دائم، وتغير رائحة الجسد، هجست بها شيء من الزناخة عطن جسدها. حينها بدت تتخوف من شيء مخفي لا تدركه يطل عليها من ثنايا الفكر.

كانت قد شكت ذلك لزوجها مما يصيبها؛ حتى أنها عزلت ذاتها عن الاحتكاك بزميلاتها بعد أن هجست برائحة جسدها زنخة شيء ما، أو شيء من هذا القبيل شعرت به، حينها هجست بذاتها مريضة وأنها ليست على ما يرام. في البداية بدأت تؤول الحالة وأوعزت ذلك إلى تفاقم حالتها النفسية المتعبة، بسبب

تجهم الظرف المجحف التي مرت به منذ أن دخلت دائرة الهجرة وكامب شنيبر المنبوذ. ربما تلك الحالة المضطربة أودعت في جسدها تلك المخاوف والتغيرات، ربما نتجت عن الفراغ الكبير الذي نزحت إليه وهي مكبلة بأسلاك الوحدة، منشغلة البال بفراق زوجها. تلك الحالة من التجافي والأرق أحست بها، نثرت في جسدها ذلك التغيير لبعد المسافة من جهة، وطبيعة العزلة بالكامب من جهة أخرى.

أطرقت الفكرة لصديقتها هنادي، تلك الفتاة الجذابة بهدوئها وحسن ملامحها والملازمة لها كظلها، أشارت إليها بما تعاني منه، فاقترحت عليها أن تجري اختبارا للحمل. شجعتها على الثبات، لقد رافقتها إلى الصيدلية خلال شرائها شريط الاختبار، تلك التي تقبع على بعد ميلين من سكن الكامب في قصبات مدينة شنيبر. ذهبتا سيرا على الأقدام عبر ممر السابلة بين ثنايا الأحراش والحشائش ومنحنيات الأرض الطينية الزلقة وتراكم الثلوج. اشترت شريطا لاختبار الحمل بسعر يورو ونصف لتقطع دابر الشك عن اليقين.

وفي صباح اليوم التالي جلست باكرا مع أول الشروق، نتيجة القلق الذي لازمها وأرهقها، والمستفيض في أعماقها؛ أسرعت إلى الحمام بشيء من الرهبة، أسقطت فوق شريط الاختبار قطرات من البول على الجزء الحساس منه، ثم تركت الشريط على أرض مسطحة لدقائق وهي لا تبغي مفارقته، انتظرت دقائق التحليل والنتيجة....

مـرت الثـواني بقلـق وترقـب، صـاحبها نـزق ارتعـاد مـن مـا سـيحدث وهـي تنظـر بعـين الصـمت إلـى ذلـك الشـريط الـذي بـات يتـأثر تـأثرا طفيفـا بمحلـول البـول، سـاورها قلـق مـع تغيـر طفيـف فـي خطـوط الشـريط الدالـة علـى التحليـل.... بعـد مـرور خمسـة دقـائق أصـابها الهـوس والـذهول وهـي تـرى فيـه خطـان متوازيـان باهتان يتخذان موقعهما على الشريط، أنها المفاجأة...

لكنهـا لا زالـت فـي موضـع شـك، حيـث الخطـين بـاهتين، لا يفصحان عن حقيقة الحمل، قد يكون حملٍ كاذبٍ.

لكنهـا بقيـت نظراتهـا معلقـة بثنايـا الشـريط، وروحهـا معلقـة بـذلك البصـيص مـن الشـك الـذي يـراود فكرهـا وذلـك الأمـل الـذي يـدور فـي خلـد كـل امـرأة لتتـوج بالأمومـة، كأنهـا لـم تصـدق عينيهـا مـا ترى، وما أخبرها شريط الاختبار...

مـا أن مـرت دقـائق أخـرى؛ حتـى ثبتـت الفكـرة فـي ذهنهـا بغمقـة لـون الخطـين، ازدادا وضـوحا بلـون أزرق نيلـي، أكثـر دقـة وبـروزا، خطـان متجـاوران بلـون غـامق.... عنـدها نزلـت عـن محجريهـا دمعـة فـرح وغبطـة رطبـت خـديها، أيقنـت بـأنَّ مـا أصـاب جسـدها مـن تغييـر كـان بسـبب عامـل الحمـل، أنهـا حامـل، أنها حامل.....

قفـزت عـن مكانهـا وهـي تظـم شـريط الاختبـار إلـى صـدرها، حينهـا هجسـت بخفقـة فـي فؤادهـا، كأنهـا طرقـت إذنيهـا همسـة غريبـة لـم تهجـس بهـا مـن قبـل، فيهـا إحسـاس مفعـم بالأمومـة، قادها احساسـها إلـى سـماع همسـة تخـرج مـن بـاطن شـريط الحمـل

تدعوها إلى الصلاة والشكر، صوت ناعم، ناغم، أنه صوت جنينها وهو يقول لها:....

- صبح الخير يا ماما.. هكذا تخيلته..

حينها التمعت عيناها بالدمع، تهلل فغرها بالبسملة والبسمة، أنها فعلا سمعت صوتا قادما من أعماق الروح، همس لها بإذنها عبر شارات مورس، تكورت أحرفه في ذهنها بكلمة ماما، ليخبرها بأنَّ نبضات قلبه قد ارتبطت بنبضات قلبها، وبدوره نقل القلب تلك الإشارة إلى المخ ليفسرها عبر مستشعرات الاعصاب الحساسة والحاسة السابعة.

ذلك الإحساس لن يشعر به غيرها، جعلها تستجيب له بردة فعل سريعة لا إرادية، تمثلت بالغبطة ودموع الفرح، ردت في قناعة وصمت هامسة وهي تحاكي الشريط:...

- شكرا يا رب، أحفظه سندا لي....

ثم دنت على الشريط مقبلة إياه ولتصبح عليه، قائلة؛....

- صباح الخير والنور يا حبيبي، يا روحي، لقد شغلتني طويلا، وها أخيرا أصفحت عن وجودك وطليت عليَّ بالفرح.
- أنا بخير يا ماما لا تقلقي.

لقد جاءها الرد سريعا، نبع ذلك الصوت من الروح، هز كيانه اربكها كمس كهربائي، جعلها ترتجف، جاء من عالم خفي يقبع

في جوفها، جنح بها وليدها لمسرح الحقيقة، أنطلق مغردا من ذلك الشريط الزمني العابر للأحداث، أشبه بالمارد، ليقول لها صباحك خير يا ماما. أنها مستشعرات حساسة تعمل عبر الأثير كجهاز مورس تخبرها بالفعل....

أنها رسالة اطمئنان، تخبرها بأن لا تقلق، أن لا تجزع، أنه قادم إليها قريبا، سيحمل عنها وزر مصاعب الحياة، سيمحي شهقة الآه ورجفة الأنين وشجن الوحدة... التمعت عيناها، تمعنت جيدا في ذلك الشريط لتتأكد من حقيقة الصوت، أنه فعلا صار يظهر أمامها بأشكال الطيف. حلم كانت تسعى خلفه، هجست بذاتها تسمع كركرته، ابتسمت له لطمأنته، ولتطمأن على سلامته. المفاجأة جردتها من عالمها المادي، دعتها تمرح معه في خيال طويل بألوان الطيف، كأنها كانت تفتقد حاجة ما ثمينة وعلى حين غفلة وجدتها أمامها، فتعلقت بها. صارت ترفق به وتعتني به بلطف وعطف منقطع النظير، أنه شريط أبنها وَرابطُ قلبها، ستحتفظ به حتى تريه ما عانت لأجله حين يكبر بحضنها.

ما أن لمحت غمقة لون شريط الاختبار؛ حتى قفزت من مكانها وهي واضعة راحة يدها على بطنها تتحسس جنينها، حينها صاحت بوحدتها شكرا يا ألله.... كأنه سمع ندائها فرد عليها بتلك الهمسة قائلا:...

- لا تقلقي يا ماما أنا بخير- أحبك يا ماما،
- ها حبيبي.....ها يا روحي، أنت تسمعني؟ أنت معي؟. هجست بك تناديني، ها أنا قربك.

أدركت مع غمقة الخطين بأنَّ جنينها يحاورها ويقترب منها، بل ود مفاجئتها بوجوده، فارتعشت أوصالها، رف جفنها، شغف قلبها، ارتجفت أطرافها، صارت تتمعن بالشريط بدقة بين مصدقة وغير مصدقة. احساسها هيءَ لها تحادثه..

فعلا ها هو يبتسم لها، لقد برز لها من باطن ذلك الشريط أشبه بالمارد، طيفه يلاعبها لعبة الاختباء؛ سمعت همسته ترتد إلى صوان إذنيها...

- صباح الخير...صباح الخير يا ماما...

الله كم جميلة تلك النغمة التي تخرج من الروح، شعرت بنشوة وابتهاج واغتباط وانشراح وسرور وسعادة ما بعدها سعادة، تهلل وجهها بمسحة الفرح وكأنها كانت تنتظر تلك المفاجأة...

عادت ودققت بشريط الاختبار مرة ثالثة ورابعة وخامسة، وكأنه في كل مرة تمسح الشريط تشعر به يخرج من الشريط يكلمها ويقول لها:.....

- ما بك يا ماما؟ كأنك لم تسمعي همساتي ولم تصدقي وجودي؟..
- انت مرة ثانية تهامسني..
- كأنك لم تصدقي ولادتي، أني قادم يا ماما أعتني بنفسك وأعتني بي، كي تكمل أعضائي وتقوى عضلتي وعظامي....

- سوف أفعل، أهلا وسهلا بك يا حبيبي، انا بشوق لرؤياك، سأبذل قصارى جهدي لتعيش....

بقيت تنظر إلى الشريط بإمعان وذهول، أنه هو ذلك الطيف الذي كان يراودها، ها هو قد حل على حين غفلة، سحر عالمها، أبتسم لها بلطافة الشريط. كانت تهجس بملامح وجهه كدخان يخترق الأجواء، تختنق به ملامح ودودة، كلما دققت فيه تهجس بلطافة وجهه، الطيف يحوم حولها، تود أن تحفظ بتلك الملامح ولكن سرعان ما تختفي الصورة في ديجور الفكرة، تنغمس في ذاك الدخان، كأنه يقول لها لازلت في طور التكوين دون ملامح واضحة. ما أن تهامس الطيف بإحساسها الرهيف حتى يتماها في دهاليز الفراغ المحيط بها، ليتشكل خيال طائر يطوف في أروقة ذهنها.

أحيانا تهجس به يتبعها، يغف بين ذراعيها، يغور في خيالها، تتقلب صوره بين عوالم الحقيقة والخيال، في امتداد عام لعروق مجسات مستشعراتها. هكذا ترتقي البعد الروحي الذي عقص فكرها. لم تستطع تحديد تلك الملامح، لكنها هجست بوسامته وبلطافة طبعه، بجمال صفاته وطيب قلبه وإذكاءه وإطلالته.

تركت شريط الاختبار على الطاولة ليذكرها به، لتتمعن به بين لحظة وأخرى، صارت تشعر بألفة مع تلك الطاولة التي حملت صورة وليدها، بقيت على تلك الوضعية لساعة زمن أو تزيد؛ حتى أرتقت الشمس درجات الأفق، حينها رفعت الهاتف لتفرغ

بـه مخزونهـا لينقلهـا لجـوف الحبيـب، لتفـرح زوجهـا بحملهـا، لتشركه فرحها.

صـورت شـريط الاختبـار بهاتفهـا، ثـم لفلفـت الشـريط بمحـارم ورقيـة، احتفظـت بـه فـي حقيبتهـا، أنـه عزيـز عليهـا، فيـه شـيء مـن روح وليـدها، فيـه خبـر قـدوم فلـذة كبـدها، لـذا أهتمـت بالشـريط ليبقى ذكرى جميلة تذكر به زوجها.

فـي ذلـك اليـوم لـم تـذهب للمطعـم، كأنهـا كانـت قـد شـبعت مـن الفـرح الـذي أغتبطهـا بسـرور وابتهـاج عـم فكرهـا، داهمهـا علـى حـين غفلة، قشع هالة الهم والغم عن قلبها.

سُـدَّتْ نفسـها عـن ملـذات الأكـل، غصـت مراكبهـا فـي بحـور الخيـال، أخـذت الأفكـار تتهافـت عليهـا، تتحفهـا فـي دوامـة الغـد وملذاتـه، أغمضـت عينيهـا، طافـت حقـول ومراعـي الأمـل والمسـتقبل. فـي تجوالهـا خالـت وليـدها يرافقهـا, يـدور معهـا فـي مشـاويرها، حلمـت بشـكل وليـدها ولـون عيونـه وبسـمته وحركاتـه وهـي تداعبـه وتلاعبـه. مازحـت زوجهـا، ودتـه يشـاركها أحلامهـا، ليستشعر بشعورها، همست له وفي ظنها يسمعها:...

- يـا أحمـد؛ هـل تسـمع صـوت صـغيري؟ أنـه يشـبهك، ولكنـه أكثـر وسـامة منـك، أنـه قطعـة منـي... هـل تسـمعني مـاذا أقـول؟. تعـال وأجلـس بجـانبي، تعـال فـأني لا أطيـق البعـد عنـك، لكنـي منـذ اليـوم لـن أكـون وحيـدة فـي غرفتـي، وأن غبـت عنـي وتركتنـي، سـتبقى معـي روحـك تجـاملني، تسـليني، أنهـا تسـبح فـي جـوفي، فـي جسـد صـغير، أنـي

حامل يا أحمد، سأداعبه وكأني أداعبك، سألاعبه وكأني الاعبك.. هل تسمعني؟؟؟؟؟

شعرت بلغز الحياة يطوف في أرجاء الغرفة، هجست بضياء نجمة بعيدة تهمس لها، تقول لها لا تجزعي من وضعك ستكونين أم عن قريب، سيشغلك وليدك عن هموم الدنيا، تلك النجمة كأنها كانت مختبئة في سقف الغرفة، في مصباح الإنارة، ظهرت لها من خلف وجل اصاب سماء فكرها، ثم تماهت في باطن الشك كضوء مداجي خبا ثم تلاش في الأفق بفعل ضياء الشمس...

ذلك الخيال بات يتنقل بها من قمة لقمة، ومن بسمة لبسمة، هجست بلحظة عابرة تحتضن وليدها بين ذراعيها تداعبه، تناغيه ويناغيها، وما أن تعود لواقعها حتى يتلاشى ذلك الطيف من بين أنامل أصابعها.

بين ابتسامة وحزن صارت تمر اللحظات بأشكال متقلبة، تذكرت فترة الحمل الطويلة الذي ينتظرها ومن ثم آلام الولادة والعسرة المرافقة، أنها أشد اللحظات التي لا يمكن تجاوزها، كيف بها ستحتملها، كيف ستولد إذا ما بقيت في الكامب؟؟؟؟...

لكنها ستتحمل في سبيل أن يعيش وليدها، تلك هي قمة السعادة والتضحية، حين ترى طفلها يرتع بين ذراعيها، ستتمعن في دقة تفاصيل وجهه، حتما سيشبهها... بقيت ساعة زمن غارقة في تلك الصور المتقلبة في ذهنها، عالم غريب وبعيد. بقيت

سارحة فيه حتى رن هاتفها الأيفون، كان على الخط زوجها، يود الاطمئنان على صحتها:.....

- الو....
- هلو حبيبي، صباح الورد والياسمين والجوري والفل والكادي والقرنفل والتوليب واللافندر والغزل والمحبة والصفاء..
- صباح الخير حبيبتي، اراك منطلقة هذا الصباح، ما ورائك ؟ ثم من هذا صفاء؟؟؟؟ أتعبثي مع غيري؟؟؟؟ (ممازحا لها على وجه الصبح)
- .. مشتاقة لك يا سليل الروح بقدر البعد الذي يفصلنا، وبسحر وطلة صفاء...
- الله الله يا جميلتي وحبيبتي على هذا الصباح الفاتن الذي تغردين به كالكروان؛ ماذا جرى لك...هل جننت؟؟؟؟، هل أنت بخير؟ تكررين أسم صفاء، من هذا صفاء؟ أوجدت حبيبي غيري؟
- نعم وجدت حبيبا جديدا، أنا بخير يا عمري، بخير يا سعدي، أود أن أبشرك يا أحمد بقدوم صفاء....
- لم أفهم حيرتني بصفاء، افصحي من هذا صفاء؟.
- أبننا ... قررت أن أسميه صفاء سواء كان ذكرا أم أنثى، أنا حامل.....
- صحيح؟ ألف مبروك ، مبروك أني سعيد جدا بالخبر، هذا يعني سأكون أب عن قريب..... وكيف علمتِ؟

- أفتح الكامرة لأريك شريط الاختبار....أو دعني ارسل لك صورته عبر **الواتس آب** لأن النت ضعيف جدا قد لا تشتغل الكامرة.
- يكون أفضل..
- دقق به، سترى فيه خطين متوازيين، هذا دليل على أني حامل، لو خط واحد يدل على الحالة سلبية، أما خطين يدل على الحالة الإيجابية. تمعن جيدا ستجد فيهما سلام لك من بنتك صفاء. سترى كم هي جميلة الملامح....
- تقصدين أبني عمر..
- أي عمر أقول لك صفاء، أني أتمناها بنت، أسم صفاء يصلح للبنت والولد...
- على رسلك أي كان ولدا أم بنتا أني أتمناه يشبهكِ يا حبيبتي. مبروك علينا، ألمهم يكون بصحة جيدة، غدا سآتي وآخذك من الكامب للبيت لترتاحي من قرف الكامب قليلا.
- افضل شيء تعمله، أنا في انتظارك.

ما أن فتحت حقيبتها أخرجت شريط الاختبار، أبعدت عنه المحارم، تمعنت به جيدان وجدت وليدها يتمثل لها بذلك الدخان وهو يبتسم لها، حيث الخطان في شريط الاختبار ازدادا غمقة، مما يؤكد أنها حامل. هذا يعني أن وليدها قادم في الطريق.

- يا أحمد أنظر إلى الخطين، صار لونهما أكثر غمقة من الأول، هذا دليل كاف على أني حامل، أني فرحة جدا، لا أريد أن أبقى هنا، يجب أن تأتي غدا لتأخذني من هذا

السـجن، أود أن أرتـع بأحضـانك وأشـم عطـر وأنفاسـك. أني متعبة نفسيا..

- كـوني مطمئنـة، أهتمـي بـذاتك. غـدا سـأكون عنـدك فـي تمام التاسعة صباحا فأنا مشتاق لك..
- هيا مع السلامة، دعني أعيش لحظات فرح مع صفاء...
- مع السلامة.

الغثيان والوحم عند المرأة الحامل خلال الاشهر الثلاثة الأولى.

5- نصائح أم هنادي

منذ أن علمت بحملها؛ تبدلت طباعها، أنقلب حالها، تغير مزاجها، غدت مرهفة الأحاسيس والمشاعر، تخلصت من كم الضغوطات التي حاصرتها والتي عاندتها وشاكستها، أضحت مرنة سلسة المزاج، هادئة، لطيفة، رقيقة، منزوية بوحدتها. كأنها تخلصت من لفائف العقد المفروضة عليها والتي قوضت نفسيتها، لا بل أصبحت أكثر إشراقة وجمالا وفتنة وألق على الرغم من انها كانت قد خست كثيرا من وجهة نظرها وتقديرها لنفسها، لكنها التمست وهج شعلة سعادة ما تورد في داخلها.

أدركت مع ذاتها بان الوضع الذي هي فيه قد تغير شكله ولونه وإطاره وبروازه ولطفه وصمته وسكونه، صارت الاحداث لا تخصها فقط أنما ركنتها في زاوية القدر، وأن الأحقاب التي أرهقتها والتي مازالت ترهقها؛ لها تبعية وصدى في داخلها، لكنه خف وطئه، فما عليها سوى التخلص من الوساوس التي أفرزتها منغصات الظرف وعناء الأيام التي ابتلعت مزاجها وجمالها وذاتها على حين غفلة؛ وإلا سترهق ذاتها وجنينها، وستفقد زمام الأمور إذا ما تقوقعت بالظرف السليط وتمسكت بالعقد.

يجب أن تواجه القدر الذي عاندها بالحكمة واللامبالاة، عليها أن لا تؤول العقد، عليها أن تأخذ الامور ببساطة، حالها حال الفتيات الأخريات اللاتي يعشن معها ذات الظرف، خلافا للواقع وتعقيداته. لتنعش ذاتها وتنعش صحة جنينها، عليها أن تؤجل رغباتها النفسية والغريزية وحل مشاكلها، فالزمن كفيل بحل العقد.

مـع تكـرار الغثيـان كانـت قـد نصـحتها أم هنـادي كونهـا ذات خبـرة طويلـة فـي هـذا المجـال، حيـث أنجبـت خمسـة أطفـال فـي مسـيرتها بعد هنادي، جلست معها ونصحتها بالتالي:....

- ابتعـدي يـا أبنتـي عـن محفـزات الغثيـان؛ سـواء كانـت أطعمـة تجـديها فـي غرفـة الاسـتراحة أو روائـح عطـور تسـتخدميها أو مـذاق أطعمـة معينـة تكرهيهـا، ابتعـدي عـن أي شيء يحفز شعورك على الغثيان.
تنـاولي وجبـات خفيفـة بـين الحـين والحـين. قـد تسـاعدك المقرمشـات والساندويشـات الخفيفـة الأخـرى كثيـرًا علـى تخطي فترة الغثيان.
احتفظـي بكميـات مـن الفواكـه الحمضـية قـرب سـريرك، لتتناوليهـا عنـد الحاجـة وقبـل النـوم كالبرتقـال والليمـون. كمـا قـد يسـاعدك مشـروب الزنجبيـل الطبيعـي أو شـاي بالزنجبيـل فـي هـذه الفتـرة. تنـاولي جرعـات مـن فيتـامين12- B-6. فهـو آمـن أثنـاء الحمـل ومتـوفر دائمًـا. وقد يساعد على تخفيف الغثيان.

شـكرتها علـى نصـحها، وجـدت ذاتهـا كأنهـا فـي حضـرة عائلتهـا بتجمـع هنـادي وأميمـة وعائلـة هنـادي إلـى جانبهـا. لـذلك أحيانـا كانـت تكلـف أخـوة هنـادي خـلال نـزولهم للمدينـة بجلـب بعـض متطلباتهـا مـن الأغذيـة المعلبـة لتخزنهـا قـرب سـريرها لأوقـات الحاجـة، وخاصـة وجـدت ذاتهـا تتسـلى بـالزيتون خـلال فتـرة المسـاء، وفـي الليـل تسـلي ذاتهـا بكـرز حَـبْ البطـيخ وعـين الشـمس

والفستق المملح، وشرب العصائر الجاهزة ومشروبات الطاقة.... الخ.

لذا وكأنها أخذت بمشورة أم صاحباتها، باتت تهتم بنفسها وصحتها دون تفكير بالغد، صارت شرهة، تلهم ما يقع تحت يدها من أجل أن يهنأ ويصح قرة عينها، غدت تقتني من الأسواق القريبة كل ما هو مفيد وصحي. أكثرت من علب السردين والتونة والدولمة والحليب الدسم وخاثر اللبن والعسل، صارت تقتني أشيائها من السوبرماركت، لما في تلك المواد من طاقة قلوية تشد من أزرها، ولما لها من بروتين يعينها على ضعفها مع زيادة رغباتها بأكل اللحوم، كما صارت تلهم التمر والدبس والطحينية وزيت الزيتون والزعتر والجبن...الخ من ما تجده مفيدا يعوض ما ينقصها من طاقة وما لا تجده في مطعم الكامب.

زميلاتها هنادي وأميمة كنَّ قد عنينَ بها، حملنَّ عنها حاجياتها، أجبرنّها على أكل الفواكه والبروتين، شاركنَّها حياتها في الألفة والضحكة؛ حتى هجست ذاتها قد كسرت قيد الوحدة، وأن كنَّ لا يعوضنَّ غياب عطفة أمها ورِواء تحنان زوجها.

ما كان يزعجها هو حالة الغثيان ولعبان النفس عند الصباح الذي كان يداهما باستمرار، يشعرها بالاستفراغ والتقيؤ. ذلك ما يحدث للحامل عبر فترات متفاوتة أثناء بدايات فترة الحمل وبالذات خلال الاشهر الثلاثة الأولى منه، دائما ما يشتد الغثيان

بعد الاستيقاظ من النوم وممكن أن يتكرر خلال النهار أو الليل فيعكر مزاجها.

ما كان يزعجها هو الغثيان الذي لوى مزاجها، وقد يستمر الغثيان مع بعض الحوامل مدة فترة الحمل كله، ذلك ما كانت تهابه. لذا كان عليها أن تساعد ذاتها باستخدام بعض العلاجات المرحلية لتخفف أضرار الغثيان كما اشارت عليها أم هنادي، كأن تتناول وجبات صغيرة مالحة على مدار اليوم أو تكثر من شراب الزنجبيل والليمون، أو أخذ بعض العقاقير المسكنة المتاحة دون وصفة طبية التي تخفف من شعورها بالغثيان كالبرام أسيتول أو براسيتول كما نلفظها.

كما أنه في حالاتٍ نادرة، يكون الغثيان الصباحي شديدً الوقع عليها يصاحبه قيء متقطع، فتتحول حالتها إلى حالة تُعرف باسم القيء المفرط الحملي، الذي يسبب فقدانًا للسوائل وضعفا في البدن على ما كانت عليه قبل الحمل، هذا ما بان فعلا على هيكل جنان دون أن تلم بالأسباب وراء ذلك.

شغلها جنينها عن كل ما طفق في حياتها، جعل فكرها يدور في فلكه، لا يشذ عن ذكره؛ حتى وهي منشغلة مع زميلاتها في أمورهما النسوية المشتركة، بات تفكيرها به يأخذ جل وقتها، أضحت لا تماري النفس عن نسيان ذاتها حتى وهي بين زميلاتها، لتذهب إليه حافية القدمين بهواجسها، تخاطره بلهفتها، تنحرف عن قوس الفة زميلاتها بسرحان قد يطول أمده، لتجد ذاتها مصطفة خلف هاجسها المرهف، جانحه، كأوراق الشجر المتشبثة بالغصن... لذا كانت كثيرا ما تسأل

زميلاتها عن موضوع المناقشة وجوهر الحديث الدائر بينهن لتدخل في غضون الألفة من جديد، لتثبت لهنَّ وجودها على خط التواصل والحوار الساخن الدائر بينهن. إلا أن زميلاتها يعذرنها ويضحكن عليها..

قد يكون نسيانها ذاتها هو شكل من أشكال الهوس بجنينها، نتيجة فرط تفكيرها وخوفها عليه وولعها به ومراعاة صحته وشكله ونوع جنسه، ذلك ما غربل فكرها، فأنساها وجودها ومصيرها وعقدة الكامب وقرارات دائرة الهجرة ومدة الانتظار التي لا تعرف امدها وصدع العلاقات بين عناصر المهاجرين ...الخ من تراكمات تشغلها، وقد تكون المسألة طبيعية نتيجة ثورة التغيرات الفسيولوجي التي طرئت على جسدها فعبثت بسلوكها الشخصي وبتغيير مزاجها.

خلال مكوثها في الكامب قبل أن تدرك بأنها حامل؛ كانت قد أصابها التيه كأصحاب السبت، ظلت تعيش أزمة ضياعها وشرودها الذهني، تعيش أزمة نفسية مثقلة بالتناقضات، ازمات متقلبة مع ذاتها المتقلبة، عاشت لحظات تحد لم تتهيأ وتعد ذاتها لها، لا تعرف شيء عن مخاضها ونتاجها. إلى جانب أزمة الظرف والوحدة والفراق التي شغلت تفكيرها، إضافة لأزمة ثقة بالنفس على تجاوز الواقع المر الذي تعيشه بمفردها وهي مركونة في رفوف ذاكرة دائرة الهجرة.

الوحدة التي شعرت بها هي وحدة فكر وليس وحدة وجود، وحدة صوم عاطفي أرهقت ذاتها، وحدة مجانة وتفكير مستمر أناء زوجها. بعدها عنه كلفها ثمن العناء والشقاء مقابل

صحتها، جف عروق التواصل، جعلها تبدو كنبتة في قفار جرداء لا تتخللها لهفة ولا عطفة ولا طاقة، صَلتها شمس الوحدة. كانت بحاجة لرواء جنسي واعتناء ذاتي وترميم نفسي بعد أن تآكل جدار العرس بالفراق. كانت بحاجة إلى مناقشة أمر الحمل وإدارة العواطف مع شريكها عن قرب. فهي أنثى، تود الاهتمام بمفاتنها وصحتها وراحة بالها، تسعى أن تجعل من كيانها أصيص ورد بهيج في كنف الحياة الزوجية، أن تكون نهر محبة ترعش سنابل الحبيب.

لقد قسى عليها الزمن بحكم الظرف، وجدت ذاتها كقشة تهفو بها الريح في ذلك الفراغ الشاسع المحيط بها، على الرغم من أنها تهاتف زوجها بشكل يومي وروتيني في الصباح والمساء، إلا أن ذلك لا يفي بالغرض ولا يعوض عن لحظات التناغم والتلاحم الجسدي بينهما وخاصة تكرار العبارات تجعل الاتصال ممل، حيث بمجرد انتهاء المكالمة تعود الأمور لسابق عهدها، تمحى هالات العواطف من ذاكرة الهاتف، تخف شهقتها للحياة، بالذات إذا ما وجدت ذاتها أسيرة وحدة وجدل ومكان بغيض.

بأناملها الرقيقة أخذت قلما وورقة، صارت تدون عليها بعض منغصات الحياة التي تتكرر عليها خلال فترات اليوم، كما صارت تسجل عليها جدول يومها المجدول بالروتين والعبث كالتالي:.....

يوم السبت، 8\1\2021:....

الفطـور: قطعـة جبنـة، صـمونة دائريـة صـغيرة بقطـر عشـرة سـم، ملعقة مربى، علبة حليب، بيضة.

الغـداء: معكرونــة، صلصــة فطــر، علبــة كارتونيــة صــغيرة مــن عصير التفاح المصنع، قطعة خبز الماني بحجم نصف الكف.

العشـاء: قطعـة جـبن، صـمونة صـغيرة، ملعقـة عسـل، علبـة حليـب 100 ملم

الطقـس؛ غـائم، مـثلج، ريـاح خفيفـة السـرعة، درجـات الحـرارة ستة تحت الصفر.

يوم الاحد: 9\1\2021

الفطـور: قطعـة جبنــة صــغيرة، صــمونة صــغيرة، ملعقــة مربــى، علبة حليب، تفاحة.

الغـداء: مغرفـة رز مـع فخـذ دجـاج، مـرق بطاطـا، علبـة عصـير برتقال نوع دالي.

العشاء: قطعة جبن صغيرة، صمونة ، ملعقة مربى.

الطقـس؛ غــائم، تســاقط وفــر الــثلج، ريــاح خفيفــة ســرعتها 10 عقدة\ ساعة، درجة الحرارة خمسة تحت صفر.

النزول إلى المدينة لشراء بعض المستلزمات الضرورية.

الأثنين – الثلاثاء – الاربعاء – الخميس – الجمعة ...

نفس الروتين، كانت قد حفظت المنهج، أنها شركة ربحية تمتص دم المهاجرين، فلا تهمها ماذا نأكل وماذا نشرب. المهم أن تزيد من دخلها، لتصبح في نظر الدولة شركة ضامنة، لها باع في سرقة قوت المهاجرين، لتجدد عَقْدِها مستقبلا.

كانت قد دونت تاريخ يوم اختبار شريط الحمل في 2020/11/21 على حائط الغرفة كي لا تنساه، ومنذ ذلك اليوم انشغلت بفترة تكوين ونمو الجنين، انشغلت بصحته وعمره الحقيقي. ترى كم صار عمره؟ ترى لم لا تنتهي فترة الغثيان والتقيؤ؟ فهي قليلة خبرة في هذا المجال، هي بكر أمها والوحيدة لها، أي أنها لم تحظى بتجربة سابقة في بيت أهلها ولا مع نفسها. فاذا ما ضاقت بها الأمور تلتجأ إلى النساء ذوات الخبرة المحيطين بها لاكتساب الخبرة منهن، أو تهاتف أمها وقت الحاجة.

صارت تعد مع نفسها أيام عمر صفاء، ترى كم عمره الآن؟ أسبوع، أسبوعان، ثلاثة أسابيع أربعة. صارت تقلب صفحات النت بحثا عن معلومات تعينها، تصفحت عدة مواقع، لتكون على دراية بمراحل تكوين الجنين. بدت تستعجل الأيام، تود لو دورة الحياة تتخطى فترة الانتظار لتحظى بوجه وليدها، فلذة كبدها، لتحضنه، لتراه بعينيها وهو يرأف بصحة بين يديها، فطيفه لا يفارقها، يدور في فلك ذاتها، لا يغب عن حدقها.

كانت قد أتصلت بوالدتها وحماتها بمناسبة حملها لتكتسب المعلومات منهن، شجعتها والدتها على الهدوء والصبر بعيدا عن القلق والتعصب والشد التي تتصف بها، كانت قد أخبرت

والدتها بحملها في يوم اختبار شريط الحمل وقد وصتها حينها بالحذر:...

- ماما أبشرك أنا حامل!!!
- مبروك يا أبنتي، ألف مبروك، فرحي من فرحك، أنتظر بسرور قدوم حفيدي، أوصيك أن لا تجهدي نفسك، لا تحملي حاجة ثقيلة، لا تشدي أعصابك وتقهري ذاتك، فأنا أعرف طباعك العنيدة، أنت عجولة والأمور لا تأتي إلا بالصبر، فاكبر عدو للجنين هو حالة عدم الاستقرار النفسي للأم ، تلك الحالة تؤدي إلى تضخم البنكرياس وبالتالي يفرز مادة سمية حامضية تقتل الجنين.

كوني حذرة، هادئة مع ذاتك ومع زوجك، أحذرك للمرة الثانية من حمل الأشياء الثقيلة خلال فترة الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل حتى يثبت الجنين في الرحم، هذه فترة حرجة، فترة التصاق الجنين برحم الأم، أي عبث منك قد يؤدي إلى موته أو إسقاطه! وتكون خطرة على حياة الحامل.

- شكرا ماما على هذه الملاحظات، أطماني، أني أدرك تلك الخطورة، لقد قرأت عنها في صفحات الأنترنت.
- طيب... أخبريني بكل جديد، وسأتصل بك في كل يوم، مبروك عليك الحمل ومع السلامة.
- مع السلامة يا أحلى ماما....

صارت تتصل بها كل يوم تقريبا لتطمأن عليها، كما لتنصحها وترشدها إذا ما احتاجت الرشد والنصح. ولكثرة ابحاثها أغنت ذاتها بالمعلومات عن فترة الحمل والعناية بالجنين؛ كانت قد وجدت في أحدى المواقع تفسيرا جيدا لحالتها، شرحت لها عملية الحمل وحساب عمر الجنين كالتالي إضافة للمعلومات التي استقتها من طبيبتها:.....

من خلال تصفحها مواقع الانترنت كانت قد أدركت بأن مدة الحمل تحسب بعد بداية الحمل بأسبوعين، أي إضافة 7 أيام إلى أول يوم من آخر دورة شهرية، ومن ثم إضافة تسعة أشهر لفترة اكتمال نمو الجنين، ومن المتوقع عملية الحمل تأخذ مدة زمنية محصورة بين 37 – 42 أسبوعا.

ما دعاها لشراء شريط اختبار هو انقطاع الدورة الشهرية عنها، أي بعد أن تكَوَّنَ الجنين في رحمها بأسبوعين تقريبا.... كانت من المفروض أن تأتيها الدورة قبل عشرة إلى خمسة عشرة يوم من الآن، كانت قد هجست بانتفاخ الأثداء وتغير لون الحلمة، وزيادة حساسيتها، هجست بتغيرات أخرى أحست بها، شعرت باختلال في مزاجية النفس ورهافة التحسس بشكل عام، نتيجة اختلال هرمونات الجسم. ما أصابها كان شيء من انحلال واختلال وقيء وغثيان، جعلها تَدْبِرُ إلى فراشها لتريح جسدها وذاتها. وبالذات عندما تهجس بذاتها قد تراخت وذوت؛ أو عندما تنزوي في غياهب وحدتها وخيلائها..

لقد لمست اختلالٍ في الجهاز التناسلي، بسبب كثرة الافرازات والتبول، مما دعاها تشعر بقلق حيال ذلك، خوفها جعلها أكثر

رهافة وتحسسا مما كانت عليه، إضافة للإرهاق والإعياء وغشوة النعاس والكسل الذي أرتمى على جسدها وكور مزاجها المتقلب في ميدان حيرتها في تلك الفترة. ما جعلها تلتفت إلى صحتها بعد أن طفحت نقط حمراء على سطح الجسد وبالذات في موضع الأطراف والبطن، تلك التغيرات شغلت بالها، جعلتها تراجع طبيبها وتقيس مستوى السكري في الدم..

في البداية كانت قد ارتعبت من تلك التغيرات قبل أن تعرف السبب، كانت الأمور مبهمة، غير واضحة، لا تعرف بأنَّ طفح تلك التغيرات نتيجة انغراس البويضة في سقف الرحم. ما أشعرها بالغثيان والتقيؤ وتغير حاسة الذوق والشم وتغير رائحة الجسد ....الخ، يعزى ذلك إلى تغير مستوى الهرمون في الجسم....

كانت الطبيبة قد طمأنتها على صحتها وعلى سلامة حملها، كما أوصتها بوصايا أمها الروتينية وأم هنادي. خلال عملية التكوين يدخل الجنين في مرحلة نمو مبكرة بهيئة نطفة، ثم يستقر في قرار مكين ليتطور لمضغة خلال الشهرين الأوليّن من النمو، ذلك ما أخبرنا به القرآن والعلم معا، في هذه المرحلة يبنى الهيكل العظمي للجنين، ثم تكسى العظام بالعضل والغضاريف، ثم يُعَرَّف بعدئذ بالجنين.

يتكون الجنين في البداية من بضع من الخلايا فقط. وعندما يأخذ دوره في النمو، تبدأ هذه الخلايا في الانقسامات والتطور، وفي آخر الأمر تتضاعف إلى تريليونات من الخلايا التي تشكل الكائن الكلي.

بعد أن استطلعت تلك المعلومات، تصورت حجم الجنين في خيالها وهو في طور التشكيل في أحشائها. هذا ما جعل فكرها ينشغل به بشكل مستمر، وتراعي ذاتها في التغذية لألا يصاب جنينها بالضعف والتشوه.

المفهوم العلمي يطابق الحقائق التي تحدث عنها القرآن الكريم في التكوين ونمو الجنين، ذلك هو الإعجاز في القرآن، آيات تشرح مراحل نمو الجنين قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، وصفت خلق الإنسان في بطن أمه ومراحل تكوينه وتطوره بدقة، من لحظة تشكيله كنطفةً إلى أن يخرج من بطن الأم وليداً كامل الأعضاء، سليم الحواس. طفل في أحسن مظهر ومنظر وتقويم. مما حير العلماء وذوي الألباب، بل إنّ ألفاظ القرآن الكريم من الدقة في وصف مرحلة تكوين الجنين قد أذهلت العلماء بشكلٍ كبير، مما أدى إلى إيمان الباحثين عن الحق منهم برسالة الإسلام.

كان قد تحدث القرآن الكريم في قوله تعالى:....

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ*) [المؤمنون: 12-14] صدق الله العظيم.

إذا في مرحلة النطفة، يرتبط حيوان منوي من الرجل في إخصاب بويضة أنثوية، وينتج عن هذا الإخصاب النطفة المكوّنة من ماء الرجل ومن ماء الأنثى، إنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (قرآن) : أَيْ مِنْ نُطْفَتَيْنِ مُخْتَلِطَتَيْنِ، والتي تنقسم لخليتين لتكوين الجنين والمشيمة.

في فترة الظهيرة استكانت عينيها على شريط الاختبار، كانت قد سدَحَتْ على السرير لتقرأ طالعها السعيد في ذلك الشريط وهي تكلم ذاتها:....

- يا ترى أأنت ولدٌ أم بنتٌ؟ أني أتمناك بنتا، وأبوك يتمناك ولدا.... صارت تمعن النظر به وتحدثه وهي تهجس به مصباحا يضيء مستقبلها، بل متوهجا أمام عينيها كمصباح علاء الدين السحري، ما أن لامسته بأتراف يدها؛ حتى هجست بدخان ينفذ منه، بان لها طيف وليدها وهو يدور في فلك ظنها مبتسما لها، مرددا:...
- أهلا بك يا ماما.. كيف حالك؟ أهلا بك يا وردة...

فتستجيب خواطرها له دون كلف:....

- ها حبيبي من أين أتيت؟ من أين يخرج هذا الصوت الذي يهامس أذني؟
- هاهاها... من أين؟ ..أنتِ وأبي تلعبان معا وتقولين لي من أين؟
- هههههههههه, أنت ذكي.
- جدا. ألم تقرأ قوله تعالى" فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" لقد نزلت من ظهر أبي، حملت جيناته. ثم دخلت في نفق الحياة، وجدت أمامي بيضة، طرقت بابها، فتح الباب، دخلت بها لأغرف من جيناتك أضيفها لجينات أبي، وإذ

بهـا صـارت لـي مركبـا تجـري بـي فـي قنـاة مائيـة، حملتنـي وتزحلقت في تلك القناة شبه برحلة نهرية..

- نعم حبيبي.... أنها قناة فالوب.
- هههههـه لا أدري مـن أيـن تخترعـون هـذه الأسـماء...ها إذا أنتِ تعرفين القصة..
- أود سماعها منك؟
- هـذه القنـاة اخـذتني لحـوض كبيـر جـدا، أهجـس بهـا كغرفـة مكيفة، هجست بدفئها فاستقريت بها.
- هـذه الغرفـة تسـمى الـرحم يـا حبيبـي، رحـم الأم وحضـنها الــداخلي، أو بيتــك، بيــت الطفــل حتــى يكتمــل نمــوك. ســأتحمل عبثــك فــي رحمــي حتــى تخــرج وأراك بعينــي وأحضنك...
- وأنا بشوق لرؤياك يا ماما لألعب معك.
- أحبك أنت جزء من روحي....
- مع السلام يا أمي

الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجه وهو يتغزل بثغر فاطمة الزهراء

6- تطور علاقتها بالجنين؟

وهي تتطلع إلى مراحل تكوين الجنين في هاتفها؛ كانت قد هفا بها الخيال لمنح آخرٍ بعيدٍ عن الواقع، حين تخيلت صغر حجمه في بداية التكوين، أنه صغيرٍ جدا، أنه نقطة!! نقطة صغيرة في صفحة بيضاء، في معدل الحسابات لا تساوي شيء، ومع ذلك كان لها كل شيء بالنسبة لها، روحها وحياتها ومستقبلها وعشقها...الخ. لأنه أصبح جزء من روحها، لأنه فيه جزء من روحها، لأنَّ وجودها سبب وجوده. تدرجت المهمات في حياتها، بعد أن كان ضرورة وجودها في الحياة يعد في المرتبة الأولى بالنسبة لها؛ أضحى تسلسل موقعها من الناحية الأهمية الثانية، بعد ظهور جنينها التي أسمته صفاء. حل وجودا من هو أهم منها، من هو أعز من روحها إلى روحها...

على الرغم من حجمه لا يزيد عن حجم نقطة، إلا أن هذه النقطة حلت الكثير من الإشكالات المبهمة في حياتها، أفصحت عن معاني جمل كثيرة كانت مبهمة لا تدل عن معنى مفهوم بالنسبة لها, غيرت من أبجديات وأولويات الحياة لديها، قلبت مسلسل حياتها رأس على عقب، غيرت صيغة المشاهد العبثية الغير مرتبة وأوضحت الغير مرئية؛ غدت مشاهد تراجيدية ذا أهمية وعمق ووضوح أكبر، جعلتها تتمسك بالحياة، تحب الحياة، تتسلق جبالها وتمرح في سهولها كالطيور، تطير مع النسيم فوق المروج، تغيرت مفاصل حياتها كليا.

أضحت أكثر نضوجا وحيوية وكبرياء، أكبر أهمية في عين زوجها بعد أن خاطرته بأنها تحتفظ له بأغلى هدية يتمناها. هذه النقطة التي وجدت نتيجة إفرازات الرجل بحيوان منوي، بنت حياة شراكة فعلية بينها وبين حبيبها، زادت من آصرة الحب بين الأثنين، قوت أهمية وجوده في حياتها مثلما قوت أهمية وجودها في حياته، أنها تجارة ربانية. فخلية حية من المَني عملت كل تلك الفوضى بعد أن أتحدت مع بويضة لتكوين تلك النقطة التي علقت في جوف رحمها....

حينها صارت تبسمل وتُسَبْحل وتحمدل وتُهلل، بسم الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله ألا الله على عظمة خلقه وجميل لطفه. يقول الله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الروم 21).

إذا بعد أن تتم إخصاب البويضة بـ حيمن الرجل، تبدأ رحلة تكوين الجنين الطويلة، مرحلة معقدة من عمليات التكوين ما بعد الإخصاب، تتمثل لنا بتفاعلات كيميائية تنتج لنا خلية تسمى بالنطفة، وهي بمثابة زرع بذرة في رحم الأم، عادة يتم الأخصاب داخل جسم الأنثى، وفي حالات خاصة من العقم يكون الأخصاب خارج جسم الانثى فيما يسمى بأطفال الأنابيب. ما يهمنا هنا هو وضع جنان بعيدا عن زوجها في كامب للمهاجرين حيث ينحدر تفكيرها في وحدتها لمهاو عديدة تجيلها لحالة التوحد والخيال.

وهي تقرأ مراحل التكوين تتنقل من صورة لأخرى، تجعلها أكثر التصاقا بأمها، زاد قدرها ومحبتها في داخلها...

عفرت خدها دمعة نزلت من عينيها، دمعة خشوع وشكر وعرفان بعظمة الخالق، قادها الخيال لسرحان بعيدا في جوف الزمن، لعالمها المتقلب وهي تسبح في شجون ذاتها وما سيحدث معها غدا وبعد غد، خالها أن تجد ذاتها ترضع وليدها وتحتضنه ثم تداعبه، تخيلت لحظة جوعه وبكائه حين تهمله مجبرة، تخيلته يضحك معها على أمور تافهة تشده، لأنه يهجس بها كذلك أو لأنه لم يتعود على مشاهدة الحالة.... سرعان ما أنقطع ذلك الوصل، لتعود إلى عالمها الملموس وهي تمسح دموعها بترف كفها، تصورت ذاتها أن تنجب وليدها في الكامب بعيدا عن أمها والاقارب، كيف ستوفق بذلك مع الوحدة؟ ما جعلها تنحو نحو تلك الفكرة؛ مشاهدتها للمرأة البوسنية وهي تنجب وليدها الخامس في الكامب، لذا قارنت ذاتها بها. لكن البوسنية تعودت على الأنجاب، أما هي فلم تجرب المخاض من قبل.!...

أخذت هاتفها لتتصل برفيقتها هنادي، لتملي عليها وحشتها ووحدتها في تلك الساعة من الليل، حاولت مرتين الاتصال بها، لكن شبكة الاتصالات ضعيفة جدا في تلك البقعة، لم تسعفها على الاتصال بها.

عادت تتابع عملية الخلق داخل رحم الأنثى، علمت بأن الإخصاب يحدث في قناة فالوب، ثم تتحرك البويضة المخصبة

للأسفل عبر قناة رطبة حتى تصل إلى رَّحم الأنثى، لتجد لذاتها مأوى فيه.

سؤال خطر في بالها:...

- يا ترى؛ من الذي يرشد الخلية بأن تتجه إلى الرحم بدلا من أن تنحرف مع الحيوانات المنوية الأخرى للقناة البولية ومن ثم ينتهي أمرها في المرحاض؟

من الذي يرشدها لتتحرك عكس اتجاه باقي الحيوانات ليجعلها تستقر في الرحم؟...

بدأت تسبحل مع ذاتها تلك الملاحظات وتسبحل؛ سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم. الحمد لله رب العالمين.... كل الخلايا حية، إلا أنها خالفت بقية الحيوانات في الاتجاه، إذا أنها فيها ميزة، أو أنها مسيرة وليست مخيرة !!!!!....

إذا الخلية تتصرف وفق قواعد وعقل وتخطيط محكم بها ولم تكن حركاتها عبثية، تهجس بها خلية حرة، فيها طاقة. أو مسيرة من قبل طاقة مجهولة دون إرادة، إرادة خفية تتحكم بها وتقودها إلى هدفها.

هذا التفكير شغل بالها، جعلها ترتد لذاتها بسبب مخاوفها السابقة، فاذا كانت الخلية مسيرة فما بال الإنسان؟ وهي تحاول أن تقنع نفسها بأن الخلية المخصبة تتصرف بعقل، نعم تتصرف بعقل يكمن في داخلها، على الرغم من صغرها

المتناهي جدا، ذلك الذي جعلها تعيد النظر بقسمتها ووضعها في الكامب، جعلها تتقبل الظرف، وكأنه مرسوم لها. كأنها اكتشفت حالة معصية غير مكتشفة من قبل العلماء بعد.

لشغفها بحملها صارت تكمل ما بدأت تقرأ، علمت بأنه في نهاية الأسبوع الأول من الحمل يطلق لفظ جنين متقدم على جزء الحمل في الأنثى، فيه يقوم الرحم بتغذية وحماية الجنين المتكون حتى يوم الولادة. أي أن الخلية بمجرد التصاقها بسقف الرحم تصبح جنينا.

كما علمت بأنه خلال فترة الإخصاب تنتقل إلى الجنين الكثير من مميزات الأبوين، مثل لون الشعر وطول القامة ولون البشرة ولون العين والذكاء. حيث تتحد صبغيات الكروموسومات من الحيوان المنوي والبيضة لتكوّن صبغيات الجنين المستقلة بذاته. هذه الصبغيات هي أجسام خيْطيَّة مكونة من الجينات التي تنقل السمات الموروثة من الوالدين، كما أنها تحدد نوع الجنس ونمط عملية التطور والنمو ...الخ من عمليات كيميائية معقدة التكوين يمر بها الجنين، أشبه بمصنع لصنع عجلة، حيث كل مرحلة من مراحل الصنع تمر العجلة على الورش بالتسلسل، تركب فيها القطع من الهيكل ثم المحرك ثم الاجهزة الكهربائية والتبريد والإضاءة والغطاء والعجلات لتخرج من تحت الورشة الأخيرة عجلة متكاملة صالحة للجري في الشوارع..

إذا عدت رحمها مصنع. هههههههه، يا ترى كم عجلة ستصنع خلال حياتها؟؟؟.

وفي اليوم التالي ظلَّ الفكر منشغلٌ بما تصفحته في ليلة أمس، كانت قد سرقتها المعلومات التي طالعتها عبر صفحات المواقع الإلكترونية عن واقعها. في نهاية المطاف وجدت ذاتها قد سرقتها غفوة تسربت لأعضائها، فركبت مركب الخيلاء العجيبة، سافرت بها لجهة ما، خارج حدود الكوكب، لما خالها من صور جنينها وهو يكبر أمام عينيها، يرافقها بصحبة في مشاوير الحياة. تخيلت شكله وطوله بشكل زوجها وطوله. حالة النشوة أنستها ذاتها والأسوار الحديدية والحراس المحيطين بها، أنستها حُزم آلامها وأحزانها وهمومها وهي تبحر خارج حدود الكون، لتلتقي بتلك الصور العديدة لأبنها، وهيَّ أسيرة سعادة رهينة، ذائبة بلحظات زمن اللقاء القصيرة.

وهي في تلك النشوة كان قد طرق ذهنها صوت هامس وهي لازلت مغشية في غفوتها. صعقها الصوت، وهي في أوج نشواها. جاء ذلك الصوت من الأعماق محملا بفرح مفاجئ عبر غياهب جب الوسن، عبر عالم الخيال الواسع. كان قد صعق وجودها كما هو البرق، شج سماء ذهنها بنور جعلها تنتبه لذلك الصوت الناعم الذي أنحدر إلى عالمها من داخل جوفها، صوت ناغم لا يشبه أي صوت، تعرفه تماما، فيه جاذبية وألفة ومحبة خالصة. تعرفت عليه بأحاسيسها، أنه صوت جنينها. هجست به كودق الصيف، كنسمة الصبح، عانق فؤادها، همس بأذنها. هجست بحلاوته وسحره، كتغريد البلبل وهو يصدح في أجواء الصبح، كصدح الكروان والشَّقِرَّاقُ مع بزوغ الشمس. صوت لا يشعر بحلاوته وذبذباته غيرها، هفا

بخواطرها بنشيج الآه النابع من روحها، كان قد ود ملاطفتها، حيث قال لها:....

- ماما، مساء الخير، كيف الحال يا ماما؟
- روح ماما، أين أنت؟ كيف تتكلم وأنت لا زلت نطفة، نقطة.

هجست بكركرته وهو يضحك على كلماتها حين شبهته بالنفطة، قائلا لها:.....

- هذا ليس أنا... هذه روحي دخلت غرفة خيالك، استشعرت بخوفك وقلقك فارتبطت بك، ودت أن تخفف عليك هيجان الوحدة وتزيل عنك مخاوفك الجافة، كفي قلقا أنا بخير.
- فدى روحك، كيف حالك؟ حقيقة أنت بخير؟
- نعم أنا بخير طالما أنت بخير، لا تشغلي بالك بأمري؟ عيشي حياة طبيعية، أهتمي بجمالك ونفسك، اهتمي بتغذيتك وبتكويني. لا تشغلي بالك بأمور الدنيا.
- أنا سعيدة بوجودك في حياتي، لقد جزلت عني هم الوحدة وعناء الكامب فعلا.
- سأطل عليك بين فترة وأخرى، سأخبرك عن صحتي ومدى تطور بنيتي، سأكون كمصباح الطريق اراقب شجونك واتحسس جوارحك.
- وانا سعيدة بك وبانتظارك في كل وقت. قل لي كم عمرك الآن، وبماذا تشعر.

- أشعر بسعادتك ولطفك واهتمامك بي، لا تقلقي عليَّ، لازلت صغيرا. ها أنا تجاوزت الأسبوع الثالث من العمر، انقسمت خليتي لخليتين، أحداها كونت المشيمة لتكون أمي الثانية حتى أولد، والأخرى في طور تكوين الجسد.
- يا حبيبي، اريدك نشطا دائما، لتبقى بصحة جيدة ولتكبر بسرعة.
- هذا يعتمد على مزاجك وتغذيتك، حالتك النفسية هي مقياس لصحتي وهي ديمومة بقائي، حيث كلما كنت في حالة إيجابية ستنشط خلاياي بشكل طبيعي. أود أن أشكرك أنت وأبي، أتمنى أن تتخيلي شكلي في عيونك الجميلة، فهي مفتاح الحلم والسعادة، في سحرها تأمل مدفون بها، فأنا أسبح في ذلك التأمل والخيال الجانح في ذهنك. كأنك تريننني أسبح بين النجوم وأنا أقرب إليك من حبل الوريد. أعيش كنطفة في رحمك، لذا أتحسس بإحساسك، بآلامك، بخوفك وشجونك. لذا تجدينني أتبع احاسيسك ومشاعرك وموطئ الحب والغزل الكامن في نفسك. سأكون معك وإلى جانبك أينما تكونين، أتبع ظنك وسرك وهواك كظلك، أتعلق بأطيافك أحلامك التي بها تحلمين، ستجديني معك وأمامك في كل مكان تقصدينه.
- يا حبيبي كم أنا سعيدة بذكائك، وتفانيك وروحك الجميلة، جعلتني اشتاق كثيرا ليوم اللقاء.

- سأزورك بين فترة وأخرى لا تقلقي، سأخبرك بكل ما يعترينـي، سأكون حاضرا في ذهنك، سأكون كالشرارة الكهربائية قربك بمجرد أن يلامس ظنك شرودك، بمجرد أن يهف قلبك لملاقاتي، أو عندما تطالعي بعينيك الجميلتان شريط الاختبار الذي أمامك. لا تقلقِي، لا تحزنـي، سأخبرك بمراحل تكويني، أهتمي بصحتك وغذائك كي يبنى جسدي بشكل سليم...مع السلامة
- حاضر حبيبي... مع الف السلامة

كأنها مع غياب طيفه تبددت الغفوة من عينيها، غارت في سدم تلك السعادة التي أستشعرتها وهي تحاكي جنينها، كشطت من على جفنيها وسنها وأرقها ومن على جسدها إرهاقها وكدرها. عادت لوعيها وهي غير مصدقة ذاتها بعد تلك الإغفاءة السريرية العجيبة التي نقلتها لخيال حقيقي. ربما الحقيقة هزتها دون أن تدرك؛ كأنَّ التيه الذي أوطف ذهنها بالغياهب، كان قد أوشح ذاتها بالنسيان، أصاب الأنا بحمى السكون في لحظات السهو والغثيان.

جلست وهي مغمورة بنشوة ألبكت أمرها، غير مصدقة ذاتها ما جرى ويجري معها، ترى كيف لها أن تخاطب جنينها؟ كيف تستشعر بتلك الاحاسيس؟ هل ما جرى معها كان من وحي خيال أم حقيقة؟ بقيتْ تدور في دوامة ذلك العصف، بين أن تجزم بالحقيقة وأن تقر بالخيال، حلم كان أم رؤيا، واقع أم ظلال؟ اختلطت عليها الوشائج، ودت أن تعود لعفويتها

وغفوتها، لتستكشف المزيد من ما لم تتأكد منه، لتلقف الحكمة من وراء ذلك الحدث الجلل.

لكن الذي مضى لن يعود بسهولة؛ طالما تحول الذهن من حال لحال، من خيال لواقع أو بالعكس، طالما تغير مسارها وخرجت من سدم الخيال لتدخل حالة الوعي الذي أضحى حاجزا منيعا بينهما، ماض تلاشت ذراته في صور الحدق، في حاضر الذاكرة، به تحول الحاجز الوهمي لحاجز مادي وفكري ملموس لا يمكن تجاوزه، لا يمكنها أن تمسك بضفائره أو تتجاوز عصفه.

إلى جانب ذلك العصف جنح بها القلق إلى حيث الوجود الدميم، القلق من أنها لا تعرف كيف تجاري الظرف المريض في المكان المريض، لا تملك عصا موسى لتغيير واقعها المتزمت... لكنها ساورتها نشوة فرح ولدت مع انقطاع خيط وصلها مع الجنين، أدركت حينها بأن ارتباطها بجنينها لم يكن ارتباط عبثي قط، أنه عالم خفي لم تألفه من قبل من علم الباراسيكولوجي، عالم الغياهب والتخاطر والترابط الروحي عن بعد، مرتبط بذوبان الوعي في عالم العلاقات الخاصة الصميمية عبر الزمن، تتحول بها الأجهزة الحسية إلى أجهزة توصيل وتخاطر كهرومغناطيسية، تعمل تحت كل الظروف من ذاتها بشكل لا إرادي وبشكل ميكانيكي، تَحْدُثُ فيها خلط تام بين عمليات الجذب والتجاذب والتخاطر، تحول التأويلات المشاعة لأحاسيس تتبع نبض الفؤاد وشهقة الروح وترددات الذهن، وذلك بتناغم إلهي وفطري بين الطرفين، أمثلها كعمل

جهاز المورس في نقل المعلومات الذهنية إلى كتابية عبر المسافات البعيدة.

وهي في تلك النشوة تتبع خيط الحقيقة في تفاصيل ذلك الحلم، عاجزة في محاولة تفسير سرب الذبذبات التي تطنب أذنيها؛ طرقت بابها زميلتها أميمة تود مرافقتها وأخبارها عن موعد الغداء في المطعم العام.

- تفضلي يا أميمة، تعالي أنقذيني من هوسي.
- ما بك إلا الخير. ماذا جرى لك؟
- كلمني.
- زوجك؟
- لا... حبيبي.
- أتحبين من وراء زوجك يا لعوب؟
- وقعت في الشرك، أجبرني على محبته.
- عودي لصوابك يا غثيثة.
- لا استطيع.
- لازلتِ في قيد العلاقة الزوجية، بل في أول عهد الزواج، لا تدعي أهوائك تفسد عليك حياتك؟.
- خرج الأمر من يدي، بات يتحكم بأهوائي دون إرادة.
- أنت العاقلة تقولين ذلك؟ وكيف بنا اللاتي لم ندخل قفص الاتهام بعد، كيف بنا ونحن نستقي الحكمة من المجانين من امثالكِ؟....
- تعالي وأسمعي ماذا قال لي؟
- من هو يا مجنونة؟

- حبيبي.
- أي حبيب وأنت لازلت عروس؟ ماذا جرى لك، وماذا ستقولين للذي في بطنك؟
- هو الذي كلمني هو الذي في بطني.
- هههههههههههه، يا عالم جنان قد جنت، (صارت تلتث حول نفسها وتدور في حركة راقصة وهي تضحك وتصرخ وتهلهل كالمجانين) هههههه. وكيف يكلمك وهو لا زال في بطنك بقدر حبة الحمص؟
- والله العظيم أهجس به كلمني، روحه خاطرت روحي، سألته بنفسي كيف تتواصل معي؟ قال؛ هذه روحي ولست انا، هناك شيء ما يجمعنا، سر ما لا اعرفه يربط بيني وبينه، لقد ظهر لي مرتين، في المرة الأولى حسبته ضربا من الخيال، وكنت أحسب ذاتي مجنونة كما تصفين، لقد شعرت بهمساته في لحظة ظهور الخطين على شريط الاختبار، وها هو اليوم وقبل قليل جاءني مرة اخرى كطيف غزى مشاعري بسحره وحبه وولعه وذكاءه.
- ماذا قال لك يا مجنونة؟ دعيني أسمع عسى أفسر هوسك، أو أعرضك على شيخ من الشيوخ يقرأ عليك تعويذات الشفاء من السحر والجنون.
- (أغرقت عينيها بالدموع) صدقي ما أقوله لك، أنها عواصف الجنين التي تضرب قلاعي وخيمتي، شرح لي مراحل نموه بالتفصيل، وصف لي هواجسه ومشاعره نحوي. تصوري قال لي أحبك....

- هههههههههه، يعني انا كلمت أمي حين ولدت؟.. يكفي تخاريف... أنا لا أتذكر شيئا من هذا القبيل، أمي لم تخبرني بشيء من تخاريفك. هههههه.
- على رسلك لا تصدقي، لكن لا تكوني فضة وسخيفة معي وأسمعي ما قاله لي.
- هيا جهزي نفسك للغداء، دعينا نذهب إلى المطعم قبل فوات الأوان وفي الطريق كلميني.
- أنا سررتك وأنت تصفينني بالمجنونة، فمن يصدقني إنْ تكذبيني.
- لا أكذبك، ولكني لا أستوعب حالة الجنون التي ركبكِ، المهم نجهز أنفسنا قبل أن يمضي وقت الغداء ويغلق باب المطعم، فأنا أشعر بعصافير بطني توصوص، دعينا نمضي ونكمل حديثنا خلال الطريق.
- وهو كذلك.....

خلال الطريق إلى المطعم صارت تشرح لأميمة الحالة التي مرت بها، وهي تلاحظ ما ظهر على وجه أميمة من تعابير واستهجان وغرابة، لذا حاولت أن توضح لها الأمر قائلة لها:....

- تلك تكهنات ما لها أساس في الواقع، لم تكن سوى ذبذبات خوف وقلق أعترت ذهنك، خبر الحمل عصف بكيانك، جعل تركيزك يصب في مجال واحد دون أن تبصري الجوانب الأخرى من الحياة. ذلك ما صور لك شكل الجنين وطيفه الذي هامسك. لذا أنصحكِ بقراءة

القـرآن وأن تطّلعـي علـى معلومـات تخـص الجنـين، وأن لا تعزلي ذاتك ولا تجلسي وحيدة في غرفتك...

غيـر أن جنـان كأنهـا لـم تسـمع شـيئا مـن حـديث أميمـة، جعلتهـا تذري كلماتها في حقل النسيان.....

فـي المطعـم وقفـن فـي خـط الطـابور الطويـل ينتظـرن مـا سـيملي صـحونهنَّ الشـيف خالـد الجزائـري ممـا طـبخ، تـرى مـاذا سـيكون الغداء؟ حتـى أنـه جزائـري لا يفهم كثيـرا فـي طـبخ عـرب آسـيا. لا يعرفـون سـوى الكسـكس والمكرونـة التـي لا نستسـيغها. ومـا أن أدركنَّه مددنَّ أياديهن إلى الموجود من الطعام...

- أنـه مجـرد قطعـة لحـم دجـاج مـع مغرفـة مـن الكسكسـي. (قالت ذلك أميمة)...
- تـرى يـا أميمـة هـذا قـد يعجبـك كونـك مغربيـة ولكنـه لا يعجبنـي كـوني لبنانيـة، لمـاذا يطبخـون مـا يحبـون هـم لا مـا نحـب نحـن؟؟ ثـم أبهـذا الأكـل سـينمو الجنـين بشـكل صحي؟ إلى متى سنحتمل هذا الوضع المقرف؟
- والله أنـا زهقـت مـن الكسـكس والمكرونـة، ألله يكـون فـي عونـك وأنـت عـروس جديـدة وحامـل، تـرى كـم سـيتحمل الشـخص مزاجيـات دائـرة الهجـرة التـي لا تفكـر بنـا ولا بتنظـيم سـجلاتنا، ولا تـريح المـرابطين فـي الكامـب، ولا تسـرح هـؤلاء الـذين يسـجنون أنفسـهم بأيـاديهم تبعـا للمـادة علـى حسـاب الصـحة والعائلـة هـذا إذا كانـت لهـم عوائـل يهتمـون بهـا، هـؤلاء الـذين لا يهمهـم سـوى تـوفير قيمـة الكأس والسيجارة.

- سأخبر أحمد بوضعنا ويجب عليه أن يتصرف، لا أن يعمل العمل ويترك الامور على غارب الزمن دون تخطيط ومراجعة، فأنا لا أستطيع تحمل المزيد من قرف الهجرة والعقد في حياتي.

بعد أن أتممن الغداء، عدن يجرنَّ خطوات الخيبة للغرف في ظل الصقيع الدائر من حولهن، درجة الحراة تحت الصفر بدرجات، البرد يجبرهن أن يأوين إلى غرفهن التي تعتبر بمثابة سجن الإقامة المؤقتة لأجل غير مسمى. خلال العودة للغرفة اطرقت أذنيها أميمة بخبر ولادة البوسنية قائلة لها:...

- هيا شدي حيلك لأكون جارتك هنا، لنولدك عن قريب، البوسنة ولدت في غرفتها كما تعلمين، هههههههههه...
- هل تتوقعين بأننا سنبقى في سجننا هذا لثمانية أشهر أخرى، سأموت هنا أن طالت المدة..
- لا لن تموتي أنا وهنادي وفاطمة وأخريات سنعينك على جلدك..هههههه.... لا أمزح معك بإذنه تعالى نخرج قريبا من هنا...

وهي تجر بخطواتها الحثيثة؛ كان قد خطر لها خاطر، ذكرها بلحظة اختبار شريط الحمل، مما ولد في داخلها شهقة الم، هجست بالشجن يطوق عنقها، فنزلت على خدها دمعة ساخنة، وكأنها حفرت على وجنتها الموردة خندق صمت جف عروقه. هجست بشقاء عفر وحدتها، عقر بهجتها بخوفها على فلذة كبدها من الغد المرير، المجهول، مركونة في ذلك الكامب المقيت أشبه بسجينة مجرمة لا تعرف متى يفرج عنها! ولا

كيف تتصرف. خاصة أنها رأت بأم عينيها جارتها البوسنية قد ولدت وليدها الخامس في غرف الكامب.. لكنها كانت أم سابقة، تعودت انجاب الأول والثاني والثلث والرابع، لذا سهل عليها أنجاب الخامس... كان أمر الولادة سلس وعادي بالنسبة لها، أنها على دراية تامة وخبرة مكتسبة مسبقا، حيث لم تشقى في ولادتها كما سأشقى إذا ما ولدتُ هنا وهو مولودي الأول...

ذلك ما شغل فكرها، جعلها تسرح بعيدا، فالحال يختلف معها، هذا هو حملها الأول، كيف ستتصرف حيال الوضع، لكسر طوق ذلك الجمود المقيد لعلاقتها بولادتها وبزوجها؟ الحالة معقدة، تقيد ذاتها وتعيق سعادتها. تنغص أحلامها، فهنا لا أحد يرفأ بها، لا أحد يستطيع تحريك بيدق حظها من مكانه، الإدارة مرتبطة بما تملي عليها دائرة الهجرة، ودائرة الهجرة مقيدة بقوانين عقيمة بعيدة عن عالمها متبعة تعليمات الجهات العليا، لا تشاركها مشاعرها.

انتبهت عليها أميمة دون أن تشعرها بذلك، لكنها أمسكت ذراعها براحة يدها، ثم قالت لها بهمس:..

- أبتسمِي يا جنان، أنت محظوظة، رزقك الله بزوج وطفل سيضاهي جمالك جمالا، سيغنيك عن متاعب الدنيا، ها نحن قد قضينا الفترة الحرجة من تواجدنا بالكامب، وما تبقى منها لن تكون أطول مما مضى، فترة صرفناها بالضحكة والجدل والتعاون، سوف لن نتركك وحيدة قط. كوني على ثقة ويقين من أني سأبذل الغالي والنفيس من أجل إسعادك، سأنسيك هم الدنيا. أنا

لم أصدق نفسي بأن ظفرت بأخت لطيفة في هذه الغربة اللعينة.

- شكرا لك فالشعور متبادل يا أميمة، ما ينقصني؛ راحة البال وليس راحة الجسد، على الرغم من أني منهكة، خوفي من الغد، خوفي أن أبقى في هذا الكامب لغاية الولادة.
- لا مستحيل لازلت في بداية حملك وحسب علمي الفترة لن تدوم أكثر من ثلاثة أشهر إلى أربعة، وكل الذين كانوا معنا لم يديموا فترة طويلة سوى الشباب من الذكور لأن لهم معاملة خاصة.
- أنت تقولين ذلك ولكن الحقيقة مجهولة، ها الألبانية والبوسنية منذ سنة يقمنَّ هنا في هذا الكامب..
- لأنَّ هؤلاء من أصول أوربية، بلدانهم ليست فيها عقد ومشاكل كبلداننا، ثم أنا أعلم بمَ تفكرينّ! ولكن ذلك في ظني لن يحصل. رغم أني لا زلت عزباء، لكني أشعر بك وبما تشعرين، أشعر بما تفكرين به وما تحتاجين له. نحن ثلاثة أخوات، على الرغم من أنَّ هنادي ستنتقل قريبا لسكنها الجديد الدائم، إن شاء الله سيشملك عمليات النقل في الدور القادم، ستنتقلين لجانب زوجك بإذنه تعالى وتنسين هم الكامب، سنكون على أتصال دائم حتى يحل ولي العهد وأراه بعينيَّ، سأزورك حينها.
- إن شاء الله. الوقت لازال بيدنا لازلنا في نهاية شهر كانون الأول....

فـي اليـوم التـالي كـان زوجهـا أحمـد قـد حضـر ليأخـذها إلـى مدينـة **لايبـزك** لتقضـي فتـرة نقاهـة مـدة أسـوع أو أكثـر مـن الـزمن؛ حتـى تستعيد عافيتها وحيويتها..

عنـدها ودعنَّهـا بـالفرح كـل مـن هنـادي وأميمـة، حملـنَّ عنهـا حقيبتهـا لغايـة عجلـة زوجهـا الـذي أنتظرهـا فـي الشـارع العـام قرب مدخل الباب الرئيسي..

كـان زوجهـا قلـق عليهـا بعـد أن عـرف هلوسـتها وجنونهـا بحملهـا، فجاءهـا مسـرعا، خوفـا عليهـا مـن تفـاقم وضـعها النفسـي، أخذتـه افكـاره لمـديات بعيـدة عـن الحقيقـة. كمـا هـي أميمـة التـي تفاجـأت بطرحهـا الغريـب. كـان خـائف عليهـا مـن لسـعة الجنـون المسـيطر علـى شـرود تفكيرهـا، نتيجـة أخبـاره بمـا تطرقـت بـه لأميمـة مـن هـوس الجنـين بهـا، وعمـا شـعرت بـه مـن هـاجس رهـف تنـاغم مـع حديث الجنين معها...

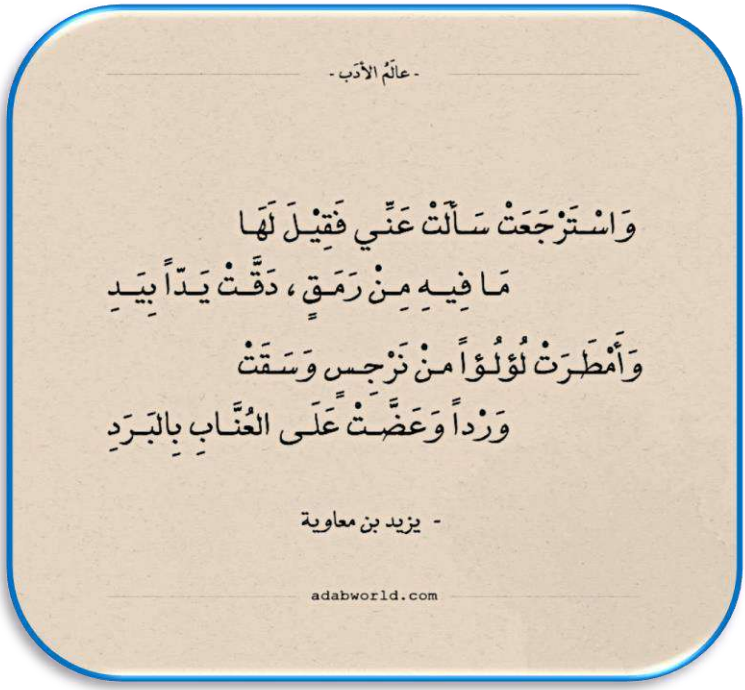

7- مشاكل النزلاء

بعد أن خطفها زوجها من الكامب في يوم الجمعة وهو يوم نهاية الأسبوع، مكث في حضن زوجها قرابة عشرة أيام في مدينة **لايبزك**، قضت فترة استرخاء ونقاهة في كنف زوجها انستها هم الهجرة وعقد الكامب؛ طرأت بعض المشاكل التي تحولت لعقد فيما بعد بما يخص بعض النزيلات من فتيات الكامب بشكل عام خلال غياب جنان، وأخص بالذكر ما جرى لهنادي وأميمة وفاطمة وإسراء وميرفت ودونكا وأخريات من الفتيات. نذكر تلك الأحداث لمعرفة طبيعة أجواء الكامب وطبيعة العلاقات الدائرة بين النزلاء التي جزلت الكثير من الأمور الشفافة، أزلفت إلى وهدة العُقدْ، بعد أن أصابت تلك الاختراقات حواجز الكثير من النزيلات القابعات في غرفهن من قبل شباب النزلاء، ومن تلك المشاكل نذكر مشكلة هنادي....

كانت هنادي قد أنيطت لها مسؤولية الأشراف على غسالات الملابس الخاصة بجناح العوائل، وقد تكالب عليها قدرها حين اصطدمت في تعاملها مع شاب سوري أربعيني يدعى سليم الذي لم يكن سليما في سلوكه قط، حين ودَّ غسل ملابسه في جناح العوائل على الرغم من أنه يسكن في جناح العزاب، فرض ذاته عليها لأغراض سوقية ودنيئة في نفسه ليكن قريبا من الفتاة فاطمة اللبنانية.

كان قد جنح سليم إلى جناح العوائل حيث أَشْكَلْ ذاته بعلاقة غير شرعية بالأنسة فاطمة، أدرك عقدتها، استغل ضعفها بعد أن دخل عمرها بعنق الزجاجة، حيث كانت بعمر الثامنة

والثلاثين سنة، هجس بما يغشيها من رهبة ورعب بسبب العنوسة التي صارت تطرق بابها. لكونها قريبة عنه من حيث الطباع والتفكير، فهي بنت لبنان مكسورة الخاطر برفقة والدتها العاجزة المريضة. بسبب وضعها القانوني وحمل والدتها؛ استغل وضعها المشوه حيث عرض عليها الزواج دون أن يَصْدِقْ بوعده.... كانت قد جاءت برفقة أمها بعد أن تعرض جنوب البلاد لأحداث حرب، كانت مكبلة بفترة قلق مكللة بالشح والفقر وشبح العنوسة، لذا أوهمها بصدق النية بعد أن أخبر أمها بنيته الخبيثة، حاول أن يغشيها بالزواج، أن يفك اسرها من الكامب الذي تقطنه في شنيبر بعد التحرر.. هكذا أستغل ضعفها وعجزها وهيَّ تعيش توالي سنين أنوثتها وشبابها ضمن قوس أمل مكبل بالمستحيل، حيث على الرغم من فتنة ملامح وجهها ورجاحة عقلها، إلا أن ما يعيب جسدها هو قصر قامتها، حيث لن يتجاوز طولها 140 سم. ذلك ما شل طاقتها وأجل غايتها، لذا مالت ميل الغصن إلى ضفة سليم لترتبط به.. علما هي خريجة كلية الآداب، بينما هو خريج معهد الشوارع والسجون والأكاذيب. ما دعاها أن ترضا بعرضه وتوافق على طلبه؛ تأخر قسمتها في الزواج، حيث سيف القلق قد قطم فيض الأنوثة، أجهض على فرص الارتباط بسبب قصر طولها الناشز.

ما يعيبها قصر قامتها قياسا لطول سليم الذي يقدر 180 سم، كما أنه لا يكبرها سوى بعشرة سنوات فقط، لكنه على ذمة زوجة، فما فاطمة سوى نزوة ركب موجها... ما أن دخل حياتها حتى أفسدها، وعدها وعد الثعلب الماكر بأن يتزوجها

بعد التحرر من قيود الكامب...أما من جانبها فهي رضخت لمطالبه استنادا لضرفها المعقوف. وافقت على شروطه عساها تعين نفسها قبل أن يتجاوزها القطار الشوق في آخر المحطات، وجدت أمامها الفرصة الأخيرة المواتية بعد أن فشلت في تجارب عدة سابقة بسبب نشاز قامتها.

استغل عقدتها فجنح إلى هنادي ليلا بخبث النية، فارضا ذاته عليها لغسل ملابسه بالقوة ليكون له الحجة في دخول جناح العوائل تقربا من فاطمة.... لذا كان يصر على غسل ملابسه عند هنادي بحجة عطل غسالات جناح العزاب... لكن هنادي عرفت غايته، أدركت مرام عينيه الزائغتان.. فهو لم يجنح إلى جناح العوائل إلا للقاء فاطمة المسكينة التي كانت تعيش حلمها الأخير بالقسمة والزواج، وحيدة في غرفتها بعد أن تركت أمها تقضي فترة أسبوع علاج في مشفى مدينة **آوا** القريبة بعد أن تدهورت حالتها بسبب أزمة قلبية، قضت فترة عناية ونقاهة، ليعمق سليم جراحات فاطمة بفض بكارتها، ليثبت لها علاقته بها مجرد تسلية ودناءة نفس. ود أن يشعب علاقاته بهنادي أو جنان أو رجاء التونسية التي تتوافق معه في الطول والتفاهة وكبسلة الحبوب المخدرة وتدخين الحشيش وقلة الذوق كحمل مرددات الصوت في الممرات. كان بعض شباب من باكستان والجزائر وفلسطين يتاجرون بحبوب الكبسلة والحشيش علنا بين النزلاء في الكامب...

في الحقيقة كانت تسكن في جناح العوائل الكثير من الفتيات اللاتي جئن بفردهن، من ضمنهن الجميلة فاطمة ورجاء

التونسية ودونكا الكردية وميرفت وإسراء الافغانية وووالخ، بينهن عازبات ومتزوجات ومطلقات. هذه الفتاة كانت تتأمل بأن ترتبط برجل حقيقي يرفع عنها ضغط العنوسة ويرأف قطار العمر بمحطة سعادة تجلي عنها القلق. لقد وجدت ذاتها مشكولة بعنق الزجاجة، سرقها العمر دون أن تشهد أحلامها، فلم يبقى على طاولة الزمن سوى الرشفة الأخيرة من كأس الأمل العالق بأنوثتها وحيوتها وألقها، لذا وجدت ذاتها خاضعة لأرادته بشكل مسلم به. كانت تحاول مخالطة شباب الكامب وبالذات في المطعم في محاولة خطف أنظار أحدهم.

حين أقترب منها سليم الموارب تمسكت به تمسك الرغبة بالحلم. هجست به الحلقة الأخيرة قبل أن يجرفها تيار الزمن، تأملتْ أن يتعشق حظها ضمن قوس المتزوجات، قبل أن تختنق بحبل العنوسة الملتف على رقبتها. وجدت بعرضهِ بصيص أمل يجيل عنها الهم والغم وعناء الزمن، يحيل حلمها إلى واقع واستقرار فكري وعاطفي دائم، على الرغم من عدم وثوقها به.

تعلقت به تعلق ورقة الخريف بغصن الشجر، تأملتْ أن يكون ذا نخوة وشهامة وصادق في نياته معها. شعرت حينها بأنها عليها أن تتنازل عن كرامتها وشرفها وقيمها وجسدها لترضيه مقابل أن يعطف عليها ويكتب كتابه عليها. عسى أن تفلح بإجباره الزواج منه، حاولت غسل حظها العاثر بماء آسن فأتسخ أكثر، ودت أن تجلده بسوط الفرصة الأخيرة فإنهار وهلك بين يديها.

هكـذا شـعرت بـذاتها المهـزوزة ككـرة الـثلج متدحرجـة نحـو وهـدة المصـير المجهـول، تركـت حبـل الهيـام يتعشـق بـأي طـارئ يصطدم بعارضها، افسدت الفرصة التي دكنت.

سـليم كـان رجـلا مريضـا، لـم يصـبر علـى فـراق زوجتـه فعشـق رغبتـه الجنسـية فـي أجسـاد نسـاء الكامـب. حـاول تسـليك أمـره فـي ذلـك السـجن حتـى تحـين فرصـة تحـرره. بـل كـان يجهـد ذاتـه ويجتهـد فـي خلـق الفـرص مسـتغلا هفـوات بعـض النسـوة وضـعفهن دون أن يخجـل، دون أن يحـتفظ لـه بكرامتـه. فـالإدارة لا تعيـر أهميـة للأمـور التافهـة قـدر جنـي الفائـدة الماديـة التـي وجـدت مـن أجلهـا، بـذلك كـان يـدخل جنـاح العوائـل تحـت ذرائـع واهية دون أن يحاسب.

فـي الحقيقـة شخصـية سـليم عبثيـة، مزاجيـة، لا تتبجـل بـالاحترام قـط، تحـرش بهنـادي ورجـاء التونسـية وأميمـة فـنقلنَّ لفاطمـة مـا بـدر مـن سـليم تجـاههن، كمـا حـاول مـع أخريـات غيـرهن مـن اللاتـي احتقرنـه؛ هجـس بذاتـه زيـر نسـاء؛ لـولا أن فضـحنه علـى المـلأ بعـد أن شـكنّه إلـى المسـؤول المباشـر علـى الكامـب. ليجبرنـه على عدم دخول جناح العوائل..

علـى أيـة حـال كـان قـد تعـود علـى جمـع ملابسـه المتسـخة كـل يـومين ليـأتي بهـا إلـى هنـادي مـن أجـل غسـلها، ومـن أجـل نشـر غسـيل هـواه علـى مـن تتقبـل عرضـه....حـاول جـر هنـادي لمسـتنقعه؛ لكنهـا صـدمته بصـرامة وحـدة. كمـا لـم توافـق علـى غسـل هدمـه، فـي الوقـت الـذي بـه شـكته لإدارة الكامـب ولرجـال المـارتيزر الـذين بـدورهم اهـانوه ووبخوه....كمـا شـرحت سـلوكه

جاهدة لفاطمة في محاولة نصحها بالتخلي عنه. باعتباره ليس الرجل المناسب... فعلا بعد مدة قصيرة ترك فاطمة ليرتبط بالتونسية التي توافقه بالسلوك والاخلاق، تطابقت أهوائهما في البحث عن صيغة العبث.

كانت هنادي قد عرفت غايته، تقصدت في رده وحسابه، بفعله الدنيء كان قد فتح الأبواب أمام جيش العزاب في تخطي الحواجز بدخوله جناح العوائل دون سبب... كانت إدارة الكامب قد قدمت إليه تحذيرا بنقل ملفه إلى الشرطة، جعلته يخنس في غرفته.

برعونته وفضائحه؛ كان قد فتح المجال فعلا أمام عزاب آخرين من أن يشنوا هجوما كاسحا على جناح العوائل دون حجج. سلكوا سلوكه الأرعن، تجاوزوا على النساء في ساعات الليل المتأخرة، بغرض المعاكسة وبالذات العازبات والمطلقات منهن، التعدي كان من قبل شباب باكستانيين الذين صاروا يجلسون أمام أبواب الغرف ينتظرونهن فتحها. وصل بهم الجرأة بأن يطرقوا الابواب عليهن بعد منتصف الليل. هؤلاء دائما ما تجد في سلوكياتهم فلسفة همجية، تختلف عن سلوكيات غيرهم من الشباب للحرمان الذي يعيشونه... الشاب غلام ذات الأصول الأفغانية عشق ذاته مع الأنسة إسراء ليرتبط معها بعلاقة غير شرعية، بحيث صار كل يوم يلتقيها بعد الثامنة مساءً في فسحة انحراف السُلَّم بين الطابقين الثالث والرابع؛ ليبقيا يتجاذبان الحديث بنعيب الغربان إلى ساعة متأخرة من الليل، وأحيانا تسرقهم الغايات والأهواء حتى ساعات الفجر،

رغم شدة البرد القارص والثلوج المحيطة بالكامب والتي يزيد ارتفاعها عن قدم. رغم انزعاج الساكنين من تواجدهم وارتفاع اصواتهم خلال حديثهم بلغة الأوردو الثقيلة على المخ .

إسراء فتاة عشرينية بيضاء، كانت تسكن مع أميمة في ذات الغرفة، وفي أحدى المرات التي تركت بها أميميه الغرفة برفقة جنان وهنادي للتبضع من الأسواق، استغلت إسراء الفرصة لتنفرد مع غلام في غرفتها، عند عودة أميمة؛ وجدت باب غرفتها مقفل من الداخل دون أن تتمكن من فتح الباب بمفتاحها... حينئذ جنَّ جنونها، صارت تطرق الباب بعنف بحيث أنتبه عليها جيرانها وكل من تواجد في الممر، في تلك اللحظة توقعت المحظور بعد أن شكَّت بسلوك زميلتها إسراء. بقيت تنتظر حتى أضطر غلام أن يخرج من الغرفة أمام أنظار الجميع وهو مطأطأ الرأس، مهزوما، خجلا، لم يستطع إنكار ما نسب إلية وتغطية فعلته المشينة، خرج قبل أن تخبر أميمة رجال المارتيزر(حرس الكامب).

بعد تلك الحادثة تقدمت أميمة بطلب تغيير غرفتها بعد أن شكت زميلتها لإدارة الكامب. لتسكن باستقلالية في غرفة خاصة بها في طرف الثاني من عنبر الجناح.

أما أسراء فلم ترعوى مما حدث لها، بقيت على شاكلتها وسلوكيتها بعد أن أصبح الأمر سيان بالنسبة لها، دون أن تهتم لمن حولها وما تدور من شائعات وشغب يخصها... إلى ان اكتشفت في أحد الأيام المشؤومة من أنها حامل، حينها جن جنونها، صارت تنحب حظها العاثر وخاصة أنها لا زالت

عزباء أمام أنظار أهلها الذين يجرمون هذا الفعل بواقع مجتمعهم وتقاليدهم ودينهم.

كانت قد أخبرت غلام بما حدث معها، طالبته إشهار زواجهما، إلا أن غلام لم يكن جاهزا للحَدثْ وقد لا يفعلها، فهو لا يختلف عن سليم بسلوكياته، كما أن ظرفه لا يسمح له بذلك، لذا طلب منها أسقاط ما في بطنها، مما جعلها تنفعل غضبا وتتشاجر معه بعد أن اكتشفت زيفه وضعفه.

عصبت عينيها، بقيت تنحب حظها تحت سلم الطابق الأول قرب غرفة الحرس، شاكية غلام لهم، بقت تلك الليلة على شاكلتها مرابطة تحت السلم تتأمل حلا لعقدتها. لم تنفع بها توسلات غلام بتهدئتها ولا رفقة بعض النسوة اللاتي تجمعن حولها وهن يحاولن بقدر المستطاع تأجيل أزمتها وعقدتها لوقت آخر. كانت في حالة يرثى لها، في شدٍ وانهيار عصبي تام، تفاقمت ازمتها النفسية، محرجة أمام أهلها والمجتمع الديني التي تنتمي إليه، ذلك ما منعها من أن تستجيب لخواطرهن. وجود غلام أمامها أثار حفيظتها، بذا حملت عليه بنعلها، ضربته على ظهره واصفة إياه بالحقير الكاذب الغشاش، طالبته بأن يغرب عن وجهها.

في الحقيقة إدارة الكامب لا تبالي بهذه الأحداث كون المتهمين بالغين، في واقع الأمر هم من يشجع النساء على البغاء وما يدعونه بالتحرر، بحجة وصولهن مرحلة البلوغ، وعليهن الاندماج بالمجتمع الالماني والتصرف بحرية تامة بشؤونهم الخاصة دون الرجوع للطرف الآخر، يفسحوا لهن المجال

بممارسة البغاء والرذيلة بحرية. وجدت كل الابواب مغلقة أمامها، لتعود تندب حظها العاثر أشبه بالثكلى، لتفضح نفسها وخيبتها مع غلام الذي سلبها عفتها بلحظات ضعفها.

تلك بعض القصص التي غزلت حياة الكامب لبعض الفتيات العازبات، فيما البعض ود إشكال ذاته بعلاقة مع المتزوجات اللاتي قدمن إلى الهجرة دون أزواجهن.

لَا تَشْكُ لِلنَّاسِ جُرْحًا أَنْتَ صَاحِبُهُ

لا يُؤْلِمُ الجُرْحُ إِلَّا مَنْ بِهِ أَلَمُ

شَكْوَاكَ لِلنَّاسِ يا ابنَ النَّاسِ مَنْقَصَةٌ

وَمَنْ مِنَ النَّاسِ صَاحٍ مَا بِهِ سَقَمُ

فالهمُّ كالسّيْلِ والأحزان زاخِرَةٌ

حُمْرُ الدَّلائلِ مَهْمَا أهْلُها كَتمُوا

فَإِنْ شَكَوْتَ لِمَنْ طَابَ الزَّمَانُ لَهُ

عَيْنَاكَ تَغْلِي وَمَنْ تَشْكُو لَهُ صَنَمُ

وَإِنْ شَكَوْتَ لِمَنْ شَكْوَاكَ تُسْعِدُهُ

أَضَفْتَ جُرْحًا لِجُرْحِكَ اِسْمُهُ النَّدَمُ

الشاعر: كريم العراقي

أميمة

أسميتها بالزنبقة، لرقتها وأناقتها وخفة دمها ولاذِعَة بشرتها المشربة بخمرة السمرة، أنها أميمة، هذه الفاتنة، الفتية، أبنة العشرين عاما، تبدو في شكلها وتكوين جسدها الرشيق كزنبقة البراري، كانت في قمة القها وعطائها وإذكائها ونبوغها، لماحة، ذات شخصية جذابة، تحكمها الحنكة والأناقة.

خلال مشاويرها كانت تنزوي بين فتيات الكامب في ذهابها وإيابها للمطعم أو خلال إدبارها للأسواق. كما كانت تنكفأ في المطعم وحيدة في زاوية منه أو تحشر ذاتها بين النسوة، لتتحاشى معاكسات الشبان الذي يرون في جمالها فرصة تسلق مفاتن جسدها، لتسليك أوقات الغربة والهجرة بشيء من العبث، وبالذات الشبان الذين هم من سني عمرها.

أما في أوقات الفطور كانت تفضل النوم على روتينية مواد الفطور التي صارت تتكرر صباح مساء بذات النوعية، حيث مواد الفطور هي ذاتها مواد العشاء.

ترقبها خفية دون أن يبدي أية إشارة لها، كان ينتظرها أثناء الغداء، لكنها لم تكن منفردة. ما أن شاهدها بمفردها وهي تنحدر نحو المطعم قادمة من غرفتها تمشي الهوينا؛ حتى أعد ذاته للقائها ومفاجئتها في منتصف الطريق ليقدم لها ذاته. لذا لبد خلف البناية الثالثة المتروكة والقريبة عن المطعم، والتي

جعلها مسؤولي الكامب مخزنا لمتطلبات الشركة والتبرعات التي تصلهم من أهالي المنطقة إلى المهاجرين...

إذا ود مفاجئتها ومصارحتها بما يجيل في قلبه من عواطف جياشة تجاهها، في محاولة منه كسب رضاها والغوص في متاهات سحرها وبحر أشواقها. ود أن يكتشف عمقها ويكشف لها عمقه العاطفي وعما تجيش في رأسه من فِكر وفي قلبه من هوس وجنون تجاهها، عسى أن تنقذه من دوامة الهوس، تنتشله من وحل الغرام وموجها الطامي بعطفة تعيد له توازنه....

أنتظرها بلهفة المتيم تحت البناية المتروكة وهو يزداد شغفا بلقائها مع كل خطوة تخطوها في قدومها للمطعم، شغف بها شغف قيس بليلى، تيم بها الأحنف بفوز حتى ذنب فكره بمبدأ تقاليده، صار يحرفه عن واقعه وعاداته. لذا أقنع ذاته بفض مخزون أشواقه في جعبها. بمواجهتها ومصارحتها ممكن خطفها من بين الجموع قبل أن يميل بها الشوق لجهة ثانية، قبل أن يملأ قلبها بعاطفة تروقها، وجد باقترانه بها ستكمن سعادته وحريته وأحلامه التي يترجاها.

كانت قد أصفدته بمفاتنها دون أن تعلم، جعلته أسير الشوق يتبع ظلها.. كانت قد تراءت له وهي قادمة عن بعد كزنبقة البراري، فواحة، يضوع عطرها في أجواء فكره، شم نفحها المفعم بطيب أريجها وسحر بشرتها عن بعد. حتما أنه كان قد فكر بها طويلا قبل أن يقحم ذاته في تيار فتنتها، قبل أن تجرفه مفاتنها لواقع حظها، ود أن يبح لها بمكنون مشاعره كيفما يكون

الموقف، يبح لها بما يهجس به من ضيق وشبق وعناء ورغبة ارتباط أقحمته في طريقها.

وهو ينتظرها في وسط طريق المطعم؛ كان قد أخذه الخيال لأجواء الهوس والجنون، هجس بها حقيقة زادته ثقة بالنفس، لذا أصطف وحيدا خلف الجدار القابع في الطريق، عد ذاته بكل ما يملك من قدر وجلد وإيباء ورجاء، ليتمكن من مفاجئتها بما يملك من قرار لا يستطيع كتمانه ومخالفته.

لقد عانى ما عانى في وحدته دون أن يبح بسره للشيطان؛ حتى ذبلت وأصفرت أوراق صبره، نتيجة حرارة الشوق اللاهبة في صدره. لقد ذوى عطشا في سمرة بشرتها الجذابة كـ إذواء الوحشة في أتون الظلمة، هام بها حتى أستهام بظلها. جرفته الحيرة لمفاتنها، لوهدة الشوق والنجوى، لسهاد الليل الكظيم وهو يقشعر تحت غطائه من برد الشتاء....

كيف لا وهي بملامحها الناعمة المتناسقة تبدو كشمس في ظل تلك الاجواء الباردة، كانت قد أرتقت درجات السحر ميزة، بألقها الشفيف بدت كغزالة البراري تسرق الانظار، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار جاذبيتها الشفيفة تحت أضواء الشمس تبدو كمرآة لاذعة تعكس مكنونها، لتبدو بسحر ملظ كحجر الكهرب ساعة العتمة، لما فيها من طاقة إيجابية كهرومغناطيسية لاذعة، تلتع الناظر بمحاسنها.

كان قد صف شعر رأسه بمادة الجل، فرك وجنتيه لتحمر قليلا في عينيها، صور ذاته في مِرآة ظنه دونجوان النساء، عسى أن ينجح باختراق عالمها المجهول بسهولة كما يتمنى.

لذا ما أن أدركت البناية المهجورة؛ حتى وثب أمامها وثبة الوشق على فريسته. فاجئها بذاته في النقطة الضيقة من الممر المؤدي إلى المطعم. وهي تهفوا ببطء خطواتها، كانت بمشييها تبدو له كرذاذ مطر الصيف، تلطف أجوائه. لهدوئها هجس بنسمة فتنتها ترعش فؤاده، تلامس جمرة صبره....

ما أن جفلت؛ حتى تخضبت ملامحها بورس الخوف والحيرة، تغير لونها بين سمرة وصفرة وحمرة، حركت ذوائب الشوق في أنفاسه، أضحى كمن لا يحتمل صمته وصبره. التقاها بجذل والتباس، بقلب مضطرب، مهزوز البدن، جرفته رهافته وخواطره لفيض نجواها.

ما أن وثب أمامها؛ حتى تفاجأت بظهوره، كوحش ود افتراس حمامة. ارتعدت أطرافها خيفة منه، فعلا أنه بسلوكه الأهوج كان قد أرعبها، لم تكن قد رأته من قبل أو انتبهت عليه، لم تتعرف على ملامح وجه مسبقا، لم تكن قد سمعت به من الأصل. مع وثبه وضعت يدها على قلبها، في لفتة مفاجئة، معبرة عن ارتعادها منه، وهي في ذاتها تتساءل:....

- ترى من هذا المجنون؟ ماذا جرى له؟ لماذا تعرض لها دون مقدمات؟ ماذا يريد منها؟

بقيت منشدهة البال لـ هنيهة نتيجة الصدمة، لا تعرف كيف تتصرف، كيف تتعامل معه. أحيانا في لحظات العصف المفاجئة تختنق المواجهة بدخان العصف. تختفي مبادرة ردة الفعل بالفعل الأهوج، ينسى الشخص ذاته، يفتقد تركيزه، لذا وجدت نفسها في حالة شده وذهول، لذا سألته باستغراب:..

- من أنت؟.... ماذا تبغي مني؟
- Please speak English
- I don't know English
- I love you
- لا إله إلا الله.... حل عني...
- I want to marry you
- I don’t want to see you again Leave now
- But I love you
- أمشي العن حظك لابو الي جابك..

دلقته بيدها ومضت تمشي في طريقها للمطعم، فيما بات قلبها يخفق خيفة واضطرابا، أنتفض جنونها، لا تعرف ماذا تفعل حيال ذلك الموقف، كيف تتصرف مع متيم بها، صارت تهذي مع ذاتها وتقول:...

- مجنون، هي هي، باكستاني... هههههه، ناقصة قرف، لو كان عربيا لقلنا لابأس، أنت!!!.. استغفر الله العظيم. كيف أتصرف مع شخص همجي؟؟؟؟ اشكيه أم أنتظر؟ أنه يبدو متوحش....

تركته متسمرا في محله وهي تحوقل ذاتها بذكر الله، فيما بقي متسمرا في مكانه وهو ينظر لقامتها وكأنها ظبية بان تخرق حقل وجده دون أن تنتبه عليه..... تركته وفي قلبها خيفة من أن يتهجم عليها أمام الملأ، وجدت في سلوكه وقاحة ووحشية وشراسة ملحة. لذا صارت تخطو خطواتٍ مسرعة نحو المطعم، في سلوكه الاهوج يبدو همجي، غير متعلم، كأنه لم يلتقي بأنثى من قبل، لابأس أن كنت معجب، ولكن.....آه.....

أخذتها النشوة، طالما أعجب بها؛ فلابد فيها شيء جميل فتن به، بل أشياء لفتت أنتباهه.... وقفت أمام المرآة طويلا بحجة تغسل يديها وهي تتساءل:...

- ترى؛ بماذا فتن.... بملامح وجهي الناعمة، أم ببشرتي الذائبة بلون الغسق، أم برشاقة جسدي المبرمة بالألق، أم بطولي الممشوق، أم...أم.... ياه ....من حقه أن يفتن بي، لقد سمعت بهذا الإطراء كثيرا من قبل شبان وصديقات فتنَّ بي وأغرمنَّ بي وأعجبنَّ بأوصافِي. لا أدرِي الحقيقة، ربما أنا حقا جميلة دون أن أعرف قدر نفسي، إذا لا خوف عليَّ من المستقبل.... ثم ارتدتْ لوعيها فقالت لذاتها:..
- هههههه.... أيه يا هبله... أين ذهب بكِ التفكير؟ لازلت فتاة مفعوصة لا ميزة فيك، أنه هوس مراهق.

في المطعم جلست قرب عائلة ليبية، لتضمن عدم تحرشه بها، وما أن أتمَّت غدائها الذي لم تشعر بلذته نتيجة الصدمة؛ حتى عادت لغرفتها برفقة أحدى الفتيات دون أن تفصح لها عما

جـرى لهـا مـع ذلـك الشـاب الـذي وجدتـه لـم يتـرك مكانـه، بقـي متسـمرا فـي محلـه. مـرت مـن أمامـه دون أن يكلمهـا أو يـتهجم عليهـا، لكنـه غزرهـا بنظـرات عينيـه الغضـنتين، نظـرات ثاقبـة، فيهـا عتـب وأسـف وشـك وريبـة. بقـي واقـف فـي محلـه بـذات الرغبـة والولـه، وفـي قلبـه تتقلـب الحسـرة علـى نـار جمـرة صـلته، أبعدتـه عـن الآخـرين، شـكمته أمـور كثيـرة معقـدة، أحاطـت بـه قـوانين عجقـة ومحاسـبة ومجادلـة وأمـور اجتماعيـة وأمنيـة تخـص الكامب واللغة وعادات، صارت حائلا أمامه..

يـا تـرى؛ مـاذا ضـمر لهـا مـن شـطط وجنـون مقابـل عجـز داخلـي وحسـرة مغمـورة بصـدره؟ مـاذا أراد مـن وراء نظراتـه الموحشـة، الجلفـة؟ تلـك التـي كمـن فيهـا الكثيـر ممـا يخفيـه بداخلـه. هجسـت بهـا نظـرات ذئـب فيهـا وجـس، نظـرات وحـش اجـل انتقامـه، فيهـا وحشة فطيم متصحر، الهيام ملأ قلبه، أعمى بصيرته...

أمـا أميمـة فقـد وجلـت مـن نظراتـه، هجسـتْ بهـا يكمـن التبـاس وتخمـين وتحسـبْ. كـان بغيـر وعـيٍ، مغيـب الـذهن، مرهـق، متـيم. خلـف نظراتـه الحـادة يقـف تحـدٍ واضـحٍ وتكهنـات واستفسـارات عقيمة، وجدت في استفزازه مخاطرة يصعبٌ تمريرها وتعديها.

لشـدة رهبتهـا صـارت تجـري بقـدميها ويـديها، تحـاول أن تلقـف بـاب غرفتهـا بأسـرع مـا يمكـن لتنكـب فـي سـريرها، كانـت قـد سـمعت منـه تمتمـة خـلال عودتهـا مـن المطعـم، سـمعت هـذرا لـم ترطن لها، لذا لم تفهم منها شيء يخصها.

المصيبة التي أرهقت ذلك الشاب؛ بأن أميمة بوجهها العابس، الغاضب، بدتْ أشد فتنة مما وهي تبتسم. هجس بنور وجهها وهي جانحة بسخطها كنور القمر يشع على واحة السَحَر، الـتمس فيها فتنة مرهفة، مراءة، أرهقت ناظره، لما فيها من دبق وودق أغشت بها فؤاده، هجس بالألق يشتط كالدخان من فتنتها، كشعل مصابيح تخترق جوف فكره.

لذا فكر أن يتبعها دون أن تعلم به؛ حتى تعرف على رقم غرفتها، ليعود إليها بعد أن تعرفت على شكله وغايته، ليفتح لها صنبور أشواقه، عسى أن ترهف به وتلين أمام عصفه.... كأنَّه شعر بذاته قد أخطأ في سلوكه الهمجي بمعاكستها في الطريق، لذا أراد أن يبهج قلبها بشبابه بلحظة صمت بعيدا عن أنظار الآخرين، عسى أن يقطف منها نظرة أعجاب تريح أعصابه.

خلال تعامله الأولي وجدها صرة معقودة، صعب عليه فك ألغازها وترتيب احجيتها، وجدها جبل أشم، أجرد، منيع، لا يمكن تسلق قمته بالطرق العادية، المسالة تحتاج لحنكة وصبر ومكر. لذا أعد ذاته لجولة الثانية، جولة يحدد موعدها بذاته، عسى أن يتمكن من سرقة مكنوناتها من الجواهر.

*****

في ساعة متأخرة من الليل، في سَهْبٍ تجاوزت هزيعها بساعة أو ساعتين، في تلك الساعة المغشية بالسكن حيث الناس نيام، كان قد لزم باب غرفتها، بقي يدور في فلك عشقه كدبور تائه أو كضليع يرتجي فرصة ظهور القمر في ليله بَهْمَة، ليسترق

منهـا وجههـا نظـرة ود تسـله، تُشْـفي غليلـه. بـل أنـه طـرق بابهـا وأشعرها بوجوده دون أن تستجيب له وتحادثه.

بكيانـه كـان قـد غـص فـي وحـل غرامهـا، تـيم بهـا كتـيم النـوارس بشـواطئ البحـر، كُبـل بهـا كأسـير السـجن. لـم يهـتم للألسـن الممعمعـة ولا للنظـرات المخلـة أو العنـاء الـذي سـيلحق بـه فـي تلـك الليلـة البـاردة وهـو يرتجـي فـتح بـاب غرفتهـا؛ تأمـل أن تحنـو عليـه بنظـرة رؤومـة، أن ترفـق بـه بعطفـة تمـيس كيانـه، أو بهمسـة، أو بلمحـة، بشـيء مـن ذلـك القبيـل الطفيلـي تطفـئ بـه شـرر بركـان شوقه.

هكـذا بقـي يجـوب أروقـة جنـاح الكامـب ذهابـا وإيابـا، سـاهيا، مضـطربا، نافقـا فكـره فـي عصـف هواهـا. مترنحـا، مَمْسُوسـا، مسـعورا بسـلوكه المخـل، تهجـس بـه قـد فقـد تركيـزه كشـارب الخمـر، لا يعـرف سـبيلاً يعينـه علـى كسـب عطفهـا وسـرقة نـبض قلبها إلا المواجهة.

بقـي فـي حيـرة مـن أمـره وهـو يصـارع الـزمن، دون أن تظهـر لـه فـي الأفـق كنجمـة الصـبح، دون ان يشـعر ببارقـة أمـل فـي ذلـك السـدم، مـع ذلـك ظـل مرابطـا أم بـاب غرفتهـا يواصـل تحديـه الـزمن، أعتصـم فـي مكانـه، أضـحى لا يهـتم لنظـرات النـاس وحـديث الآخـرين، ولا لوسوسـة الشـياطين. لقـد جـاء بجوارحـه الجائعـة، العطشـة، الرهيفـة ليرميهـا فـي حضـنها. هـا هـو قـد جـنح بفكـره لغايـة شـواطئ قلبهـا، متمسـكا بعهـد قطعـه علـى نفسـه، بـأن لا يعـود خائبـا حتـى يمسـك ضـوء القمـر، لـذا لـزم غرفتهـا فتـرة طويلة دون شوشرة.

لابد من أدراك الفرصة، لابد من قراءة طالعه، صار يراجع حساباته عسى أن توائم صفات برجه برج الثور مع صفات برجها العاجي برج العذراء، لأنه في سلوكه كان همجيا كالثور الذي لا يرى شيء أمامه سوى أميمه، فيما تركن هي في صفاتها وأوصافها التي تميل لأدراج الفتاة العذراء.

كان قد التمس فيها جوهرة لا تقدر بثمن، وهي كذلك، كاملة الأوصاف، رزينة، طرية، لينة، بريئة، جميلة المعالم، تمتلك من الخصال ما تبهر الشاب، صفات خلجة من ثلج ونار. لذا تمسك برغبته المجنونة، هجس بذاته إذا ما أقترب منها سيهلك بأحد القدرين، أما سيحترق بلظى الجمر أو سيشل بثلج العناد، وفي كلتا الحالتين سيكون عبد هواها.

ترى ماذا عليه أن يفعل؟ أحيانا المجازفة تفي بالغرض، وأحيانا قد تنعكس على سلوكه بالسلب. في ظنه كان قد قدر الحسبة بشكل دقيق، أدرك بأن الأنثى الصعبة المراس لا تأتي لجادة الطريق إلا بالمجازفة أو بمغامرة ما تلفت نظرها، مجازفة تتجاوز عصف عنادها، تفوق سحر فتنتها لتلين قلبها، لتحرف بوصلة الفؤاد نحوه....

لكي تكون المعادلة حقا متساوية بين الطرفين، يجب عليه المجازفة، ينبغي أن لاَّ تكون بذاتها وشخصيتها أقوى من جنونه وعواطفه، يبغي أن يكسر ذلك التباين لصالحه..... إذا لا بد من طفرة جدية تحصل في سلوكه ليلفت نظرها.

قرابة الحادية عشرة والنصف، خرجت أميمة من غرفتها تبغي غسل وجهها وتقضي حاجتها، لم تنتبه على وجوده وهو مختبئٍ في الغرفة المظلمة، المهجورة، المقابلة لغرفتها، حيث كان يراقبها بشكل خفي. طفق أمامها على حين غفلة كشبح يرتدي السكون غطاء له، كشيطان أخرس سار خلف خطواتها.... هجست به، التفتت خلفها وإذا بها تتفاجأ بوجوده.... قالت بعصبية:....

- هو أنت!!!! ترى ماذا تبغي مني؟...
- Please hear me رجاء اسمعيني
- Lave this place know اترك المكان حالا
- أجابته بحدة أوقفت غروره، وقف في مكانه يتأملها بتوسل قائلا:...
- I Love You ،I want you أنا أحبك ، أريدك
- I don't wont أنا لا أريدك

بتلك الكلمات قطعت عنه دابر الطريق، عادت مسرعة لغرفتها وهي خائفة منه، قلقة. أقفلت على ذاتها باب الغرفة من الداخل بالمفتاح، خوفا من أن يهجم عليها ويغتصبها، ظلَّ في خاطرها وجس يحذرها....

- ترى كيف أتخلص منه؟ أنه يلاحقني، تبدو في عينيه شراسة كشراسة كلب مسعور، لا أحد قريب هنا أستنجد به. يجب عليَّ أن أخبر إدارة الكامب، يجب أن أوقفه عند حده، أنه متوحش....

ذلك ما جال في خاطرها في أول الأمر، ثم عقبت على وضعها بحسرة:...

- يا ترى؛ كيف أنهي مشواري في هذا الكامب وأنا أعيش بين وحوش ضارية، هذا يروم وصلي، وذاك يدور خلفي، وآخر ينظر إلي نظرة إسفاف وإسفاد، ووو كل يوم أتحسس بمضايقات مختلفة.. هل أذهب عند أمي فترة ومن ثم أعود؟... لكنها بعيدة عني. كما أن إجراءات إدارة الكامب قاسية، لا تبدي أية مساعدة.
هل أقدم شكوى ضده لدى شرطة التحري؟...آه.. حينها ستحسب عليَّ مسألة شرف وكرامة، قد تنحرف معناها ضد سمعتي. لالالا... دعني أصبر قليلا... يا رب مهد لي طريق النجاة وأعني على مشواري.....

أما ذلك الشاب؛ بقي مرابطا أمام غرفتها، وأحيانا يتجرأ ويطرق باب غرفتها، ود إطفاء جمرة جنونه في تلك الليلة في نفاضتها، ود مراعات قلبه بعطفة من لسانها، أنها فرصتهُ الأخيرة، لقد فعل كل ما بوسعه أن يفعله ولم تستجب لندائه. صدمها بعناده وصدمته بثباتها، لم يستوعب عفتها وقرارها، لم تستوعبْ غايته وتيمه، أصبحا في مفترق الطرق كقطبين متضادين.

فيما كان محتارا بغيه، كان أبو سعيد قد سمع جلجلة امام باب غرفته، فود أن يعرف ماذا يجري هناك. ما أن فتح الباب؛ حتى اصطدم بشاب غريب لابد أمام الباب، شاب نحيف، مشعشع الشعر والفكر والنظرات، يستند على الجدار مقابل غرفة

أميمـة، شـارد الـذهن، مغيـب العقـل تمامـا، كـان قـد تعـرف علـى جنسيته من ملامح وجهه، فساله ليلفت نظره إليه:..

- أأنت عربي؟
- No

فحاوره باللغة الإنجليزية فقال له:...

- Why are you standing here؟لِمِ أنت واقف هنا
- Wait for a friend . "قـال ذلـك أنتظـر صـديق.. بإحراج وخجل".
- But this is not a waiting place? Isn't it better for you to wait for your friend in another place like the mosque. ؟ - لكـن هـذا لـيس مكـان انتظـار؟ ألـيس مـن الأجـدر بـك أن تنتظـر صديقك في مكان آخر كالمسجد؟
- No, I'm waiting for him here. لا أنـا أنتظـره هنا.... "كان صلفا في رده، مستميتا"..

لقـد عـرف غرضـه، لأن هنـاك مـن سـبقه وطـرق بـاب ميرفـت ودوكانـا، وهـو يحمـل ذات الشـكل والهويـة، وكـأنهم متحـدين فـي النية والهدف. لذا واجهه بذات الصلافة، فقال له:...

- If you don't go,I will tell the camp administration about you.This place is for families only .

أن لـم تمضـي، سـأخبر عليـك إدارة الكامـب، هـذا المكـان مخصص للعوائل فقط.

- I know,but;...well, I'm going، أنـــا أعلـــم، لكن؛..... حسنا أني ذاهب.

ذهـب وهـو ضـجر مـن وجـود أبـو سـعيد، ذهـب دون رضـا، كأنـه منـع عنـه قطـران الشـهد. حينهـا كانـتْ قـد تطمأنـت أميمـة بعـد سماعها صـوت أبـو سـعيد وهـو يجادلـه، فخرجـت للمغاسـل لتغسـل وجههـا دون أن تخبـره بأوليـات القصـة، ربمـا كانـت خجلـة، محرجـة. هكـذا سـرت الحالـة ومـن ثـم أنـزوى فـي غرفتـه، كانـت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل...

حـين تـرك المكـان كـان قـد ذهـب بجسـده فقـط ولـم يـذهب بفكـره وروحـه وظنـه مطلقـا. كأنـه فـي تلـك الليلـة لـم تغـف لـه عـين، بقـي سـاهدا، سـاهرا ينـاجي صـبره..... بعـد أن ادركـت السـاعة زُلفـا مـن الليـل قبـل بلـوغ الفجـر، عـاود كرتـه عليهـا مـرة أخـرى بعـد أن ضـمن الجميـع غارقـا فـي سـباته، عـاد يربـت بـاب غرفتهـا ربتـا خفيفـا، حيـث منعتـه أشـواقه ولهفتـه مـن الاسـتكانة والاستسـلام، لقـد فعل فيـه الشـوق مـا فعل فيـه الفـراغ الـذي يعـاني منـه الجميـع، حتـى تجرد من فكره.

أمـا أميمـة فأنهـا بقيـت عصـامية، تسـمع ذلـك الربـت ولا تبـالي لـه، لـم تسـتجب لـه ولـم تفـتح البـاب، تركتـه يتوسـل بهـا توسـل الطيـر المـذبوح. فـي الحقيقـة كانـت خائفـة مـن سـلوكه وهمجيتـه مـن جهـة، وحازمـة فـي موقفهـا مـن جهـة أخـرى. بقيـت طـوال ليلهـا وجلـة فـي غرفتهـا دون أن يغـف لهـا جفـن، بثباتهـا صـارت سـيفا علـى رقبتـه

قطعت دابر شكه باليقين؛ حتى عجز من إدامة سعيه ومحاولاته، فأضطر أن يفلَّ مكسور الخاطر مع شروق الشمس وقبل أن يقع في المحظور ومن ثم تنفجر عليه بالونة فضيحة التحرش، والتي تودي به إلى التهلكة وغياهب السجن.

وفي صباح اليوم التالي كانت قد قدمت شكوى ضده لدى الإدارة لمعالجة الأمر، والتي بدورها هددته بعقوبة التحرش التي تودي به إلى السجن، وذلك قبل أن تنقله الإدارة لأحدى القرى النائية لصلافته في ذات الأسبوع...

بتلك الطريقة تمكنت أميمة من أن تتخلص من ملاحقته....

عند عودة جنان من مدينة لايبزك، وضِعتْ تلك القصص بين يديها من قبل هنادي وأميمة. كانت قد استقبلتها هنادي بعد طول غياب، حملت عنها حقيبتها وكيس من البلاستك كان زوجها قد سلمها لهنادي في باب الكامب. وفي الممر استقبلتها أميمة بالأحضان، حملت عنها حاجاتها الأخرى لغرفتها.

- الحمد لله على سلامتك، متشوقة لرؤياك....
- وأنا أيضا في شوق يا أميمة...
- لا باس وجهك يبرق، وابتسامتك أكثر إشراقة، ترى ماذا فعلت في هروبك؟ هههههههه.
- هههه، لعبنا... أنا أدرك شعورك الطيب، صدقيني دونك ودون هنادي العيشة مرة، لولاكم لما طقت هذا المكان أبدا. في عودتي هجست بشعور هنادي وفرحها بي، كانت قد أشترت للجنين جواربا صغيرا وكأنها

جـوارب دمـى، هههههـه. تركـت فـي نفسـي طيبتهـا وفرحهـا بـي، جعلتنـي اشـعر بشـعورها، أنهـا أول هديـة لأبني، بغيابها ستترك فراغا لا أحد يستطيع إشغاله.

- لقـد تـأخرت عـن المغـادرة بسـبب فـايروس كوفيـد 19 (مـرض الكورونـا) تـأخرت لأكثـر مـن أسـبوعين. أتمنـى لهـا السـعادة والـزواج لقـد تجـاوزت فترتهـا، فتـاة خلوقـة وطيبـة، وذات قلـب نقـي لا تعـرف الحقـد والكراهيـة، بحسن سلوكها وتصرفها تشعرك بصفائها وطيبها.
- آمين يا رب العالمين.

مـا أن جلسـن فـي الغرفـة حتـى صـرن يضـحكن بصـوت مرتفـع بعـد ان حكـين قصصـهما، كـل منهـا تـتهم الأخـرى بإثـارة حفيظـة الشـباب بشـيء مـن البلاهـة والنكتـة، حتـى حـان فتـرة الغـداء. هنـا قالت جنان:...

- فـي وحـدة تقـول بـأن زوجـي تقدم الـي خمـس مـرات وأبـي يرفضـه، ولكـن فـي الاخيـر مـل منـه ووافـق. بعـد خمـس سـنوات مـن الـزواج يـذكرها بـرفض أبوهـا باسـتمرار... وفي كل يوم يقول لها:.....
ابـوك أراد مصـلحتي ولكـن أنـا حمـار مـا كنـت أفهـم. هههههههه.

قالت أميمة ردا عليها بطرفة جميلة:....

- فـي شـاب قـال لامـه ادعـي لـي يـا يمـه يقولـون دعـاء الام مستجاب.

قالت له:.....

- اللهم أسكنه في بيت من غير إيجار، وأرزقه أكل حلال من غير فلوس، وأجعل ناس تحرسه ليل نهار..... ثاني يوم دخل السجن. هههههههه.

هههههههه، حلوة، دعينا نفرش السفرة، جلبت معي وجبة تكفي لثلاثة أشخاص من ما لذة وطاب، كنت قد تذكرتكم. حينها جلسن يأكلن حتى شبعن.

8- قلق جنان على جنينها

مر أسبوع على انتقال هنادي لسَكَنِها الجديد في قرية إزفيكاو برفقة عائلتها، بعدها صار التواصل مع جنان وأميمة بشكل دوري بينهنَّ كل يوم أو يومين للرابطة الحميمة التي تجمعهن، صارت جنان تهاتفها كلما وجدت ذاتها اسيرة وحدتها، ها هي برفقة أميمة تحاول أن تزورها، صار الهاتف يبعث نداءاته عبر الأثير وهن ينتظرن ردها بعد أن ذكرنَّ سيرتها، وها هي تستجيب الآن...قالت ذلك أميمة لجنان.

- الو كيف حالك يا جنان؟ كيف صحتك؟ شغلتي بالنا...
- الحمد لله بخير أنا بخير، الغسالات مشتاقة لك، هههههههه (قالت ذلك أميمة)، أخبارنا فاطمة انتقلت لمدينة آوى، سليم كَلَّبَ ذاته برجاء، أميمة أشترت حذاء وحقيبة نسائية ماركة بأقل من نصف سعرها الحقيقي من لصوص المتاجر في جناح العزاب، هذه هيَّ النشرة المسائية. أميمة تجلس بجانبي تخبرك السلام، كنا قد ذكرناك، اشتقنا لك...
- وأنا مشتاقة لكنَّ، أبعث بوساتي لكنَّ وبوسة خاصة لأميمة التي لم تودعني..
- كنت مشغولة مع أمي يا هنادي، لا تأخذيني، أنت أختي، قولي لي؛ أين أصبح سكناك؟ يقولون أنها مدينة جميلة كيف رأيتيها خبرينا؟؟؟
- ركنونا في هايم (سكن مشترك) فوق تلة في اطراف مدينة **زفيكاو** في مكان لا أعرف له أسما، ولم أطلع على المدينة بعد، ولكن لا تفرق عن مدينة **شنيبر**، بيوتات مبعثرة في الوديان وفوق التلول.

- الله يعينك، ربما هي فترة مؤقته، أصبري يا هنادي، الان استقرت نفسكِ، في يوم الثلاثاء القادم سنزورك أنا وأميمة، عليك بتجهيز عزيمة خاصة لنا.
- يوم السعد أن أراكنَّ مرة أخرى، أنا بانتظاركن، لا تتأخرنَ....
- وهو كذلك، أرسلي لنا عنوان الموقع(اللوكيشن).
- وهو كذلك، مع السلامة.

*****

يقال تنقسم خلية الجنين تباعًا لخليتين صغيرتين، ومن ثم تمر بانقسامات متعددة حتى تتجاوز عددها الملايين، هكذا المعلومات تشير بأن حبيبي صفاء أبتدأ رحلته الشاقة من خلية واحدة تكاد لا ترى بالعين، والآن لازال في طور التكوين الأولي بطول سنتمتر أو سنتمترين... ما يحيرني؛ كيف تمكن من التخاطر معي؟ كيف أرتقت أحاسيسه لأحاسيسي وهواجسه لهواجسي؟ ليجعلها أكثر طراوة ونعومة مع صعوبة الحياة المرة التي أهيم بها، أنها من الألغاز التي يصعب على العقل تقبلها وتفسيرها وتخطي جوانبها النفسية. ليتني أعرف لون عيونه وتقاسيم وجهه، كل يوم أتخيله بشكل من الأشكال، اتمناه شبه طفل لفت إعجابي، ثم أتناساه وهكذا دواليك.

حالة العلاقة ما بيني وبين جنيني مزاجية، متقلبة، أهجس بها شيء من وحي الإله ترتع خارج نطاق العقل البشري. لغز من الرحمن، يتربع على بساط السرد، ويجيش في خضم أسرار

الـــزمن. ليتنـــي أســـتطيع أن اتـــدبره، أن أقنـــع ذاتـــي بحقيقـــة وجوده.....

كما أني أخاف أن أبوح بهذا السر، أخاف من ألسن الناس من أن يقولوا جنان قد جنتْ بحملها، أصابها الهوس، لا أحد سيصدق بأن وليدي يخاطرني. ثم كل الناس لها أسرارها؛ ترى لِمَ لا أحتفظ بأسراري لذاتي، لِمَ أجلب عين الحسد والكلام العقيم لذاتي، دعني أعيش عالمي وحدي وبوحدتي خارج نطاق البشر؟

بعد ان تخصب الخلية تستمر في رحلتها عبر قناة فالوب من خمسة إلى عشرة أيام، أنها رحلة البدو في الصحاري، ثم ان المسافة طويلة جدا عليه إذا ما أخذنا صغر حجمه، وقد تكون رحلة بحرية باستخدام قشر البيضة كقارب له. فعلا الرحلات البحرية بطيئة جدا فالمسافة بين دبي والبصرة تأخذ فترة يومين لتصل الباخرة بينما ممكن قطعها في العجلة بساعات. في نهاية المطاف يصل إلى جوف الرحم، هناك تبدأ قصة تكوينه العجيبة. هناك تبدأ المعجزات في عملية الخلق، هناك تبدأ فترة الانتعاش والاستقرار، حيث تخرج من الجنين استطالات خلوية تنغمس في جدار الرحم لتثبت الجنين بسقف الرحم، ولتمتص المواد الغذائية من دم الأم في نفس الوقت، في هذه المرحلة يطلق على الجنين بـ **العلقة**، حيث تعلق **النطفة** بسقف الرحم وتتشبث به....

يا ترى؛..... من علم تلك الخلية المتناهية الصغر كل ذلك؟ لماذا لم تلتصق في قناة فالوب؟ لماذا لم تذهب لمجرى البول

كباقي الحيوانات المنوية والبيوض الغير متفاعلة ؟ هذه أسئلة أحيانا تخطر على البال فتزيد أيماني بعظمة الله.... على الملحد التفكير بهذه الأمور كثيرا عسى أن يعود لرشده، فهذه الدنيا مجرد نزوة قصيرة جدا، عليه أن يراجع جبروته وأخطاءه وتقديراته الغير سليمة للحياة، عسى أن يدرك بذاته وجود الله القابع في كل شيء قبل فوات الأوان.

" فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (7) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ (8) (الطارق) " . صدق الله العظيم

" وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ. (المؤمنون)".

تتبع الآيات وتصور عملية الخلق كيف تبدأ وتمر بمراحل دقيقة، هذه بعض الآيات التي تتحدث عن الخلق وعظمة الله، ثم بعد ذلك ينسف هذا الخلق لنعود لأصلنا، ثم يبعثنا ليوم الحساب.

إذا هذه الدنيا ليست سوى ميدان اختبار للإنسان، دار عمل واثبات وجود، كما هي مرحلة لهو ولعب وتسليك وبناء الذات، وأن للحياة ديمومة بعد الممات، يجب أن لا نبالغ في علاقتنا

وعقدها، فأين ذهبت الأجيال السابقة وعظام رجال التاريخ ونسائه.

في الأسبوع الرّابع يتحول الجنين لطبقتَين: داخليّةٍ، وخارجيّةٍ، كما تتطوّر المشيمة بتأثير الهرمونات التي تمنع انسلاخ خلايا بطانة الرّحم، حيث يزيد سُمكها وتتشعب غزارة الأوعية الدموية فيها لتكون المخزن المغذي للجنين خلال مراحل تطور نموه.

ترى ماذا عليَّ أفعل لتجنب عقد الحياة ومشاكلها التي تؤثر على حياة الجنين، يجب أن يكون سليما ليستطيع تكملة دورة الحياة، الأم تتحمل المسؤولية الأكبر في سلامة بدنه وعقله من خلال اهتمامها بذاتها وتغذيتها. كذلك حياته تعتمد على أبوه، عليه أن يقدر المرأة ويسندها في حملها ويرفع من معنوياتها ويزيح عنها همومها ومسؤولياتها ويجز عنائها، أنها مرحلة صعبة تحتاج إلى تفاهم مدروس وإلى استقرار نفسي وعاطفي لتجتاز الأم آلام الحمل وثقله وعقده....

وفي نهاية الشهر الأول من حدوث الإخصاب يكون الجنين ذو شكل أنبوبي حيث يبلغ طوله حوالي 6 ملم. وتكون منطقة الرأس منحنية، ومُعَلّمة بارتفاعات متطاولة ضيقة وأخاديد وفتحات خيشومية تتحول لملامح الوجه مع تطور البناء العام....

لا أريد أن أطول في هذا الجزء ولكن خطر في بالي سؤال: يا ترى لم لا يخطأ موضع الرأس في الجسم؟ كأن يكون مكان

القدم مثلا إن كان الخلق طبيعيا دون تدخل الخالق مثلما يدعي بعض الوجوديين؟ لِمَ لا تكن اليد مكان الرِجْلِ مثلا؟. هذه اسئلة عابرة فقط لتذكير المغالين والمختالين والمتكبرين بأنفسهم من الملحدين وأصحاب نظرية التطور لداروين وما شابه ذلك..

في هذا المجال تذكرت طرفة كانت قد مرت على بالي:....

كان قد سأل الولد أباه:...

- يأ أبي من أين جاء البشر ؟

قال الاب للولد:....

- كان الله قد خلق آدم وحواء ومن ثم تناسلوا وازداد نفوسهم جيل بعد جيل حتى وصل الخلق إلى ما نحن عليه....

اراد تأكيد جواب ابوه فذهب إلى الام سألها ذات السؤال، فقالت له: ...

- يا أبني أصل البشر كان قردا، ثم تطور الخلق عبر آلاف السنين ليتحول إلى بشر.

الطفل أحتار في أجوبتهما فقال لهما:..

- أجوبتكم لا تطابق بعضها، أيا منكما قد أصاب في جوابه؟ على من أعتمد؟

عنادها أجابه للأب: ..

- يـأبني كـل منـا تكلـم عـن أصـله فأنـا تكلمـت عـن أصـل أجـــدادي وأمـــك تكلمـــت عـــن أصـــل أجـــدادها. هههههههههههه.

أشـترت كتيـب الحمـل وبـدأت تقـرأ بـه وأحيانـا تتبـع الأنترنـت الـذي وجدت فيـه خيـر صـديق يعينهـا علـى تخطـي عجزهـا فـي فهـم مراحـل الحمـل.... فعرفـت البـراعم (الانتفاخـات) الموجـودة علـى جـانبي اسـتطالة الجنـين والتـي تنمـو فيمـا بعـد مكونـة الأذرع والأرجـل، كمـا تعرفـت علـى مجموعـات أو قوالـب أخـرى نسـيجيَّة تسـمى الجسـيدات وذلـك علـى طـول ظهـر الجنـين، وتنمـو هـذه الجسـيدات مكونـة العظـام والعضـلات المختلفـة. سـبحان الخـالق العظيم، كل شيء بحسبان.

هكـذا صـارت تسـتقي معلوماتهـا عـن الخلـق وتكـوين الجنـين عبـر مصـادر مختلفـة، تـود معرفـة كـل شـيء عـن جنينهـا لتكـون أكثـر رعايـة واهتمامـا بـه، لتكـون أم حضـرية متطـورة، كـي لا تتفاجـأ بسِفر مـا مـن سِفر تطـور الجنـين يوقعهـا فـي إشـكالات الاهتمـام بـه هي في غنى عنه.

هـذه المعلومـات جعلتهـا تحسـب حسـابا لكـل حركـة تقـوم بهـا، لكـل أكلـة تشـتهيها وتأكلهـا لكـل انفعـال يجتاحهـا، بـدأت تتعامـل مـع الـروتين الجديـد التـي احتكمـت بقوانينـه بصـيغة عـدم المبـالاة؛ جنبـت ذاتهـا أكـل المـواد المبهـرة والفلفـل الحـار، تحولـت لآلـة، لمكينـة إحسـاس وترقـب، ابتعـدت كليـا عـن المهـاترات الشـقية والانفعـالات العصـبية التـي كانـت تفتعلهـا مـع زميلاتهـا أو حـين تكـون بحضـرة زوجهـا. غيبـت الحركـات الصـبيانية عـن بـدنها،

فـي سـبيل الحفـاظ علـى سـلامة الجنـين مـن المـؤثرات الخارجيـة والإفرازات الانفعالية للجسم.

علمـت بأنـه خـلال الأسـبوع الخـامس يبـدأ القلـب بـالنّبض، ينـتظم، يبـدأ بضـخّ الـدّم فـي الجسـد، حاولـت جاهـدة تحسـس نـبض ذلـك القلـب الصـغير الـذي يرفـأ فـي رحمهـا، هكـذا تلاحمـت مشـاعرها عبـر الأوردة والشـرايين التـي تـرتبط بهـا مـع جنينهـا، لتطمـئن على سلامة صحته.

طالمـا أصـبح لـه قلـب إذا سـيحس بهـا، إذا سـيبادلها الأدوار، إذا سـينموّ الجنـين سـريعاً مُقارنـةً بالأسـبوع الرّابـع والثالـث. حتمـا فـي هـذا الأسـبوع سـتظهر بـراعم الأطـراف العلويّـة والسُّـفليّة لتأخـذ دورهـا هـي الأخـرى فـي النمـو تماشـيا مـع بـاقي أعضـاء الجسـد، كمـا تبـدأ أعضـاء أخـرى بـالطفح والنمـوّ، مثـل: الكبـد، والكليتَـين، والأمعـاء والجهـاز التناسـلي وتبـدأ ملامـح الوجـه بـالتكوين. صـارت تـدعو الله أن يحفظـه ويرعـاه، كمـا صـارت تتمنـى ملامـح وجهـه تشـابه ملامـح أبـاه، أو علـى الأقـل يأخـذ منـه لـون عينيـه الزرقاوين.

عنـدما يكبـر سـأقول لـه كيـف كنـت أتعامـل مـع الظـرف فـي سـبيل أن لا ارهقـه، سأشـرح لـه كـل مـا مـررت بـه، سـأدون الأحـداث فـي دفتـر المـذكرة وبالـذات مـا أعانيـه فـي الكامـب مـن وحـدة ووحشـة وعنـاء، سـأكتب كـل شـيء لـه حتـى حـين يشـب ويفهـم قسـوة الحيـاة التي واجهتها أمه.

في هذه المرحلة بدأت تشعر بشيء من الراحة، توقف القيء والغثيان أو خف حدتهما، كانت قد تحملت تلك الاسابيع القليلة كيفما تشاء، دارت نفسها بالصبر و أَنَاة والتحمل والإطَاقَة والتَبَصُّر والتَجَلُّد. وضعت كيسا من الليمون قرب سريرها، ساعدها على تخطي هذه الفترة الحرجة، وذلك بتعديل درجة حامضية المرء والمعدة التي تستقبل إفرازات مفتعلة من البنكرياس تؤدي إلى التقيؤ. كما ابتاعت أقراص النعناع التي بدورها تغير من طعم الفم وحامضية لعابه ومزاجها، لتشعر بالراحة وبالذات قبل وجبات الأكل وبعد استيقاظها من النوم صباحا.

كان الله قد شرح مراحل نمو الجنين بالتفصيل في كتابه الموقر القرآن الكريم، حيث قال:...

- (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ) [الحج: 5].

هذه الآية الكريمة جعلتها تتبع مراحل نمو الجنين على ضوء تلك التفاصيل الدقيقة التي بينها الله في كتابه والمطابقة للعلم الحديث تماما، استعانت بالتفسير والإضافات التي بينتها طبيبتها والفيض المنشور في عالم النت من معلومات كافية سندتها، جعلتها تكون أكثر عناية ورعاية ورغبة في تطوير بنية الجنين.

يجب على الأم أن تثقف ذاتها في مراحل تطور الحمل وتكوين الجنين كي لا تواجه عقد لا تعرف كيف تتصرف معها وخلالها. ثقافة المرأة هو أفضل سلاح يحميها ويحمي جنينها من المخاطر..

باتت جنان تشعر بقليل من القلق والتعب والارهاق والخوف على الجنين جراء مكوثها في الكامب، أحيانا المنغصات تظهر غصبا عليها، أحيانا الانسان لا يستطيع السيطرة على مشاعره ولا يتحمل عقد الروتين، فالمرأة ليست آلة مبرمجة، قد تمر بظرف تنفعل به فتفرز عصاراتها الهضمية أنزيمات تضر الطفل، أنها فترة حرجة جدا، وبالذات فترة الاشهر الثلاثة الأولى، خاصة أنها تنقصها الخبرة في إدارة شؤونها والسيطرة على انفعالاتها.... لذا صارت تفضل المكوث في الغرفة أطول فترة ممكنة؛ لألا تجهد ذاتها بالفكر والحركة ولكي لا تتأثر بالمحيط المختلف والمتقلب من حولها.

خلال هذه الفترة اعتمدت في مشاويرها على أميمة التي صارت تجلب لها الفطور والغداء وأحيانا حتى العشاء لغرفتها وتتسوق لها، وبهذه الطريقة تكون قد خففت عنها عناء المسافة للمطعم التي تتجاوز 200 متر حيث يكمن المطعم في نهاية الكامب وكذلك عناء السوق، كما جنبتها تحرشات العزاب الذين يبحثون عن الفرص بين مخالب الزمن وظرف الطقس المعل، الذي دائما ما يغطي الممر بالجليد، ذلك ما كان يرهبها خوفا من تعرضها للزلق الذي قد يصيبها ويسقطها أرضا.

كما جنبتها أميمة درجات الحرارة المنخفضة والتي دائما ما تكون تحت درجة الصفر في كانون الثاني وشباط، فالبرد هو ايضا عامل من عوامل القسر الذي يجبر الشخص على المكث قرب المدفئة أطول فترة ممكنة.

صارت تداعب بطنها بين الحين والآخر على مضي الأشهر التي قضتها داخل الكامب، قبل أن يأتي قرار تحريرها من سجن كامب شنيبر، حينها بدأت تتحسس بطنها الذي كبر حجمه قليلا بعد أن توقفت عادتها الشهرية، صارت تمسده براحة يدها وكأنها بذلك ترسل إشارات تخاطر لجنينها، كأنها بذلك تداعبه وتحاكيه بلمسات انامله ليتطمأن في قراره. تلك الحركات تشعرها بالراحة وهي سليلة وحدتها قابعة بين أربعة جدران صماء، لا تسمع فيها طنينا ولا لاغية.

بعملها ذاك كأنها تمسد ظهر الجنين فتستجيب لأحاسيسه. كأنها تهيئه لينشط داخل رحمها أو لتشعره باهتمامها به.. تضع يدها على بطنها في موضع الرحم تحت الصرة حيث يكمن لتدفئه. ذلك ما يشعرها بالراحة، تهجس بذاتها تتحسس نبض قلبه، عسى أن يشعر هو الآخر بنشوة حنين حين يجس كهربة أناملها الاستاتيكية وهي ترفق به عبر ذبذبات الحث الكهرومغناطيسية المنبعثة من قلبها. لتبين له قدرتها على ترويضه وهي تزلف إليه مشاعرها تجاهه؛ حتى وهو مضغة أو علقة، أنه يتحسس ذلك، فتذهب بذاتها لعالم الخيال، لتراه كما تتخيله طفل يناغيها في حضنها، يكركر على صدرها، يرفع عنها كأبتها المختلقة بسبب الظرف.

هكذا تنغمر في تلك المتاهة بكل مشاعرها وأحاسيسها فترة من الزمن، حتى تعود أدراجها لوعييها لتجدد نشاطها مرة أخرى، هذه هي حلاوة رحلتها لتعيش نشوة تختلقها، تنسيها محيطها فترة زمنية ما.

هكذا صار ديدنها كل صباح ومساء، يملي عليها الفراغ فراغا في وحدتها، فينقلها لعالم الخيال والتحدي تنسى به لوعة ذاتها وشقاء الأنا الدائرة حول محور الوحدة، فتذهب إلى البحث عن ما لذَّ وطاب مما موجود تحت يدها لتغذي ذاتها وجنينها..

خلال بحثها عثرت على صمونة قديمة وقطعة جبنة وبرتقالة، صارت تأكل وتشرب الشاي الذي صار سليل وحدتها وهي التي لا تأكل إلا لتهجس بذاتها تغذي جنينها. هكذا أستمر بها الحال عبر الأسابيع الأولى من فترة الحمل إلى أن استقرت ذاتها على سكينة من الصبر جزلت عنها شقاء الأشهر الثلاثة الحرجة من الحمل.

لم تفارقها أميمة قط، كانت تطل عليها كل ليلة لتطمأن على صحتها، لذا طلت عليها في غرفتها لتسليها في جلسات سمر يتناولن بها الحديث عن ما يجول في خاطرهما وعن رحلة وصولهن إلى ألمانيا.....الخ من أحاديث وما لاقن من صعوبات ومعاكسات خلال حياتهن شغلت بالهن.

بينت جنان لأميمة علاقتها بزوجها أحمد قبل الزواج قائلة:...

- أحمد هو أبن خالي، هاجر إلى ألمانيا وهو صغير نتيجة أوضاع لبنان الغير مستقرة قبل ثمان سنوات. أبوه كان يمتلك مطعما في لبنان، تعلم الصنعة من أبوه في صغر سنه، وعندما جاء خلال زيارته الأخيرة إلى لبنان؛ تعلق بي، صارحني برغبته الزواج مني.
- رضيت على طول؟...
- أكيد، وددت أن أعيش حياة رفاهية ومستقرة، ثم أني اكتشفت طيبة قلبه وصدقه وحنانه، فلم يبخل قط عن متطلباتي، هذا كل ما أريده منه، محبته وكرمه واحترامه لي. كنت قد شرطت عليه نقل أمي معي، فهي لا تملك في الدنيا غيري، كان أبي قد توفى في أحداث لبنان.
- الله يسعدك ويهنئك أنت تستحقين الثناء.
- من ثناء؟ هههههههه
- أبنة خالي هههههههه. أما أنا امي تطلقت من أبي وأنا صغيرة السن بعمر خمسة سنوات، بعدها تزوجت من رجل آخر يعيش في المانيا، وبعد أن كبرت طلبت مني أن التحق بها...
- دعينا نعمل وجبة سريعة من صمون وجبن مع هذه العصائر المدرجة في رف الشباك قبل أن تتلف، ما رايك؟.
- فكرة لطيفة، أساعدك في الأكل. هههههه
- شكرا لمشاعرك الجياشة، هيا. هههههه.

9- قصر الحياة

في بداية حملها كانت قد شغلت بالها مجموعة أسئلة غريبة أفرزتها الظرف والوحدة، سلتها وأرهقت تفكيرها في نفس الوقت....اسئلة من وحي الخيال والواقع، تعلقت بالوحدة في خضم العناء والمشقة...

يا ترى:..... كيف أنجب وليدا في هذا الكامب التعيس؟ كيف وأنا بعيدة عن أمي وعائلتي وزوجي ووده؟.....

إذا ما حصلت الولادة في الكامب في ظل أجواء جدب، عقيمة، جعدة؛ فلن أستطيع تحمل عناء الولادة والوحدة قط، لا أحتمل تيار المخاض وصده.... ما حصل مع المرأة البوسنية قد يحصل معي. فهي ذا خبرة، وأنا فقيرة حال، أفتقد قدراتي في أوقات الشدة، لا استطيع السيطرة على انفعالاتي، أخاف من المسؤولية والظرف الشائك وشيطان التفكير.... لازلتُ صبية، بريئة، طين لازب لا انفع بشي ولا استطيع مساعدة نفسي.. بينما هي جمرة مستعرة، بمثابة فطنة، لفظة جدة، لها خبرة طويلة، ومن علامات وخطوط وجهها أهجس بها في البوسنة كان عملها الفلاحة، أي أنها خبرت الحياة وغرفت من جداولها التجارب لما شاقت من جلد.....

ظرفي يختلف عن ظرفها كليا لازلتُ طرية من ورق، وكم من النساء وافتهن المنية في أثناء الولادة أو في خلال أيام العدة للإهمال الذي تعرضنَّ له، أنها حالة حرجة للأم والجنين معا، أنها عقدة ولا أظن أستطيع أن افك أسري منها...

جاء ذلك التفكير نتيجة حملها الأول من جهة وتأخر استجابة دائرة الهجرة بفك أزمتها وبعض النزلاء كما الحال مع البوسنية والالبانية من جهة أخرى، إضافة لما يرافقها من يأس وبطء وروتين حيال مصير المهاجرين المبهم والذي يقيد سعيها، هناك من هم عاشوا سنوات طويلة دون أن يتمكنوا من أن يحصلوا على الإقامة الشرعية.

على الرغم من خطورة الموقف؛ جلّ النساء يقدمن على تقبل وضع الحمل بإرادتهن، المرأة أن لم تحمل وتصبح أما؛ لا تشعر بسعادة الحياة قط، دائما ما يكون هناك هدف تسعى إليه، تهجس بأنه هناك شيء ما ينقصها لتكملة مشوار الحياة، إن لم تحمل تلوم حظها ونصيبها.... فكلمة ماما هي أثمن من مكنوزات الدنيا ومغريات الحياة، تلك الكلمة الساحرة التي تسعى خلفها، تشعرها بسعادة لا تثمن حين تسمعها من وليدها، تمحي كل آلامها واحزانها ومعاناتها التي ترافقها في لحظة ما خلال مشاوير الحياة. أنها قوانين الطبيعة والرحمة التي زرعها الله في الأنفس لتكون الطاقة التي تمد الأنثى بحيويتها. لذا وجدت أن تدع ذاتها تتحسس تلك اللحظات التي تعد الأعظم في حياة المرأة خلال عمرها الافتراضي، وأن الله خير حافظ لنا.

ولكن متى بدأ الحمل؟ كم صار عمر الجنين؟ كم زاد حجمه؟ كيف يتغذى؟ كيف يتحسس؟....الخ.....

أسئلة تبقى متجددة في ذهنها مع الأيام، تكاد لا تغفى إلا وهي منشغلة بتلك المعمعة إن جاز التعبير لتكرار سيناريوهاتها معها، في أحيان كثير تذهب بها الريح إلى حيث المتاهة فتنسى

ذاتها وتنشغل في خيلائها المتقلبة، تذهب معها بعيدا إلى حيث الشمس، ثم تعود أدراجها دون أن تدرك أجوبة شافية لأسئلتها. ضلت في وضعها المتقلب تتبع ذلك الطواف المتنقل والمتقلب، لتشغل ذاتها بوحدتها الرتيبة، اسئلة تتجدد مع الوقت ليس لها علاقة بالكامب ولا بقدراتها الذاتية، فهي كالأثل في الحياة، تنبت الأفكار من وحي الوحدة والروتين وسنن الحياة، مرتبطة بطبيعة الخلق والتكوين والزمن وقدرات الإنسان الغير محدودة في تحمل الجلد، والتي هي خارج نطاق العقل والإرادة... تلك الامور مرتبطة بذاتها لتعطي الحالة الهجينة التي هي عليها أهمية قصوى خاصة بها، لتزيد اهتمامها بجنينها وبذاتها وبصحتها.

بتلك الأسئلة كأنها ربطت حياة الجنين بظرفها وأسلوب حياتها ونوع مأكلها. نعم تلك الأمور متلازمة، مترابطة مع بعضها ولا يمكن فصلها، ولا داعي لتفخيخها بشيء من التعقيد والمبالغة، هكذا رست أخيرا في جعل أيامها سلسة تتحدد بسلوكياتها بسيكولوجية جديدة فرضت عليها الانعزال الشبه التام عن محيطها، إلا ما ندر.

تلك الاسئلة كانت تراودها باستمرار، حين تنفرد بحالها أو حين تجد ذاتها ممددة على سريرها في فترة الراحة والاسترخاء، أو في فترات الهدوء قبل النوم وهي تناجي ذاتها وحبيبها قبل أن تغق جفونها لتغرق في بحر الوسن، وخاصة لا توجد وسائل ترفيه تشغلها وتشغل تفكيرها في فلم ما أو فكرة ما تشغلها أو

قصة ما تسمعها أو مشاهدة ما توضح تجارب الآخرين عبر النت واستخدام الكومبيوتر..الخ.

كانت أم هنادي نصحتها فيما سبق بأن لا تبقى اسيرة غرفتها وأزمتها، نصحتها بالصحبة والمخالطة أو اشغال ذاتها في عمل ما تتسلى به كي تنسى همومها الشخصية وهم حملها، لأن الوحدة تجيلها إلى التعقيد.

وهي في وضع التمدد تخيلت طول الجنين بضع سنتمترات، حينها صارت تبتسم وهي تفكر في حجمه؛ يا ترى كم سيكون حجم رأسه وعينيه وفمه؟ أنه نقطة، كم سيكوم طول ذراعه؟...الخ، أنه لا زال بمثابة خيط معلق في أحشائي، أنه جزء من روحي وكبدي....

أخذت ورقة وقلم وصارت ترسم شكلا مقربا له بطول سنتمترين، لتقدر طول ذراعيه وساقيه وحجم رأسه. وجدت رأسه كبذرة التفاح ويديه خط بنصف سنتمتر، صارت تبتسم على ما خطر في بالها... هذا الجزء الصغير الذي لا يرى بالعين والقابع في بطني فيه روح من روحي، يا رب كم أنت عظيم في خلقك، أحفظه لي وأجعله كاملا معافى يشبه زوجي.

صارت تدعي ربها أن يحفظه، حينها خرت على خدودها دمعة رطبت الوجنة والمخدة، في تلك اللحظة تأملت أن تكون في حضن زوجها، ليخفف عنها عناء الحمل والوحدة.

الصورة لم تخرج عن نطاق ذهنها، بقيت تفكر بهذا الكائن الخيطي الذي أصبح له قلب ينبض.... خامرتها نشوة وهي تهجس بروحه تطوف حولها وتغمرها بمحبة خاصة، ترتبط ارتباطا وثيقا بذهنها، طالما له قلب إذا أنه حي يرزق، سيكبر مع الأيام، سيخرج للدنيا قريبا فتا وسيما ألعب معه ويلعب معي.... فترة التسعة أشهر ليست ببعيدة، أهجس بالأيام تركض بنا في خضم معاناتنا، أنها فترة محسوبة بالعقد والمشاكل، أيامنا كلها حسابات ضائعة بين العمل والمأكل والعقد وتخطيط الغد، مشاكل الدنيا لن تنتهي، فهيَّ مثل الأيام تتجدد يوما بعد يوم، حين تنتهي تجد عُقدها بصيغ أخرى، لتبقى حياتنا تدور في فلكها وحول محورها. ما أن تنتهي عقدة ما؛ حتى نجد ذواتنا تنشغل بأخرى تولد من رحم الظرف والأيام المتجددة، هكذا نجد عقدنا نختلقها بأنفسنا ولأنفسنا، أو هناك من يختلقها لنا لننشغل بها عن الله دون إرادة.

نهجس بالزمن يفلت من قبضتنا كالسهم النافذ، ما أن نمسك باليوم حتى يفلت من قبضة أيادينا نحو الماضي، ليغور بعيدا كقطرة في عمق الزمن، ليصبح كلحظة في مجرى الدهر، بل السنين بمرور الزمن تصغر كثيرا مع البعد الزمني حتى تصبح لحظات وهوامش كلما ابتعدت عنا. من يتذكر قبل الف أو الفين سنة، سنةٌ ما بارزة في شريط الأحداث؟ تلك الفترة حين إذٍ نعدها بالقرون. هكذا العمر يتقلص ويذوب مع الايام، لذا علينا أن لا نعطي للعقد أهمية، فهي مع خسارة الأيام المحسوبة علينا تذوب في قروءها الأحداث وتنتهي مع انتهائها... نعم المدة قصيرة جدا، الأيام تمضي تباعا، الأشهر هي الأخرى تتبع

سلفها بروتين عجف، يجعلنا نهجس بفترة الشهر وكأنه يوم أو ساعة أو الدقيقة في نهاية المشوار، لسرعة دحرجة عجلة الزمن بنا إلى الهوة التي سندفن فيها جميعا والتي لا يوقفها شيء؛ حتى ندرك نهاية المطاف دون أن نفهم شيء من الحياة. كأننا في حياتنا نمثل دور بسيط في مشهد سينمائي من مشاهد الزمن. فقصة ملك الموت مع النبي نوح عليه السلام بعد أن عاش 950 سنة. قال ملك الموت لنوح:....

- يا نبي الله؛ كيف وجدت الدنيا؟ قال..
- كغرفة لها بابان، دخلت من باب، وخرجت من باب.

تذكرت جنان طفولتها وهي تذهب برفقة صديقتها رهام ولبنى وهن يذهبن للمدرسة الابتدائية القريبة من حيهم، وكأنها كانت قبل أيام على الرغم من مرور 16 سنة عليها....ياه أين ذهبت تلك السنين؟.....

لذا صارت تأخذ الامور ببساطة، ولكن ما كان يحز بنفسها هو أن الحياة قصيرة جدا، ولن تعيش فيها مرتين. لمَ تمر بكل تلك المنغصات التي تعكر مزاجها ؟... ودت أن تعيد بهجتها القديمة لذاتها وأن تصنت لهمسة الغد بإصغاء، أن تجعل الأيام تروق لها لتتصرف بها كيفما تشاء، وذلك لن يكون أبدا دون مرونة تتصف بسلوكياتها ورغباتها.

أحيانا نشعر بأننا لم نفهم جديا جدلية الحياة إلا بعد أن يشيب الرأس وتكل أجزاء البدن، حينها ندرك واقعنا لنكون جزءا منه بعد أن نصل نقطة لا نستطيع الرجوع منها. نصحى على

حاضرنا لنكون قد وصلنا لمرحلة النضج التي هي في واقع الحال الفترة القريبة جدا من نقطة النهاية، قريبة من فترة رحيلنا الأخير، لذا علينا الاسراع في فهم لغط الحياة وتبسيط مدلولاتها قدر الإمكان.

هكذا إذا عجلة الزمن تقطع بنا المسافات الطويلة بزمن لا نشعر بقيمته، زمن يفلت من قبضة ايادينا، أنها المسافات المحددة لنا، لا نتحسسها دون أن ندرك أو نجدول زمن حياتنا وأسس منهجنا بين نقطة البداية والنهاية. لذا تجد الإنسان أحيانا يتجاوز عمره سنوات الخمسين وهو لازال يشعر بذاته طفلا يرتع بدور المراهقة في هذه الدنيا، يسلك سلوك الأطفال والمراهقين في تعامله مع محيطه، لأنه لا يستطيع أن يستوعب بأنه قد تجاوز فترة عمره القصيرة من الزمن بهذه السرعة.

لا أنسى في هذا المجال المرحوم جمعة جراد الذي تجاوز سنه الخمسين وهو يلعب كرة القدم مع مجموعة مراهقين دون العشرين سنة في الدروب والملاعب المرخصة والغير مرخصة، يخالفهم ويجادلهم، وهناك الكثير على شاكلته في المجالات الأخرى مثل أم علي التي شغلت ذاتها بفرقة طرب مع مجموعة أطفال الحي لتغني وتمرح في الاعراس في مدينة البصرة.

إذا عندما يدرك الإنسان رشده، يصل إلى قناعة بأن لا شيء يقنع الأنسان ويستفيد منه في الدنيا سوى صالح الأعمال.

صارت تكلم نفسها وهي تقول:...

لـذا علـيَّ أن لا أسـتعجل أمـور الحسـاب، علـيَّ أن أهـتم بصـحتي وأنـاقتي كـي لا أفتقـد فتنتـي وجمـالي وألقـي، دعنـي أعـيش يـومي كيفمـا يكـون وأنسـى منغصـات الكامـب وغلـه، دعنـي أبقـى فـي نظـر زوجـي وصـديقاتي جـوهرة ثمينـة، أهـتم بتغـذيتي لينـتعش جنينـي ويرفـأ بصـحة وعافيـة. دعنـي أنسـى همـوم الحيـاة وحجرهـا والقلق الذي يساير أيامي، كي أعيش بهدوء وسكون.

امتـدت علـى ظهرهـا، ومـا هـي سـوى هنيهـة حتـى داهمتهـا غفـوة سـريرية، استشـعرت بـذاتها تطـوف فـي عـالم الولـه، فـي دنيـا جديـدة برفقـة وليـدها، هـا هـو يمسـك بيـدها فـي جنينـة مليئـة بالأطفـال، تهجـس بـه يـود أن يشـارك الأطفـال لعـبهم، يـود أن يـركض مـع الصـغار خلـف الكـرة فـي الحـدائق، أن يمـرح ويلعـب أمـام عينيهـا بـين أزاهيـر الجنينـة، مبهـور بمحيطـه وهـو يتبـع الالـوان الزاهيـة مـن ألـوان الـورود البهيجـة، مزهـو بـين الألـوان المسـتطرقة تحـت أشـعة الشـمس، يحـاول ان يقطـف وردة بيضـاء، يشـم أخـرى حمـراء، ثـم يتبـع الصـفراء والزرقـاء، يتجـه نحـو البرتقاليـة والبنفسـجية، ثـم ثـم ..الـخ، أه أنـه التيـه الـذي أغـار علينـا، جعلنـي أتبـع الظـن المبعثـر هنـا وهنـاك، لا أدري إلـى أيـن يتجـه بنا...

يـا تـرى كيـف سـيكون ظنـه بـي وبأبيـه عنـدما يكبـر ويقارننـا مـع النـاس المحيطـة بنـا، كيـف سـيرى الاطفـال برفقتـه، أراه ذكـي جـدا، يجـب أن أنمـي فيـه ميـزة الـذكاء، هـا هـو يتبـع كـل طفـل يصـادفه، يـود أن يمـرح مـع أقرانـه ليتجـاوز الحسـابات التـي تخلقهـا لـه فـرص الحيـاة فـي طريقـه، هـذا يجعلنـي أن أنجـب لـه أخٍ

بعد أن استعيد صحتي، كي لا يصاب بالتوحد. أنها الورطة التي تورطت بها مثلما قالت لي أميمة، وهي سنة الحياة ويجب أن أتبع خطها شئت أم أبيت. سيكون ولدي مميزا، الخواطر التي تمر بي لم تكن من عبث، أنما هو تخاطر روحي بيني وبينه. يجب أن أجعل الاشياء من حوله جميلة، لتغره المباهج وتجذبه المفاتن، ليتميز عن الأطفال، ليكون نبيها وأذكى الجميع وأذكى مني.

ترى، كيف ستكون بشرته؟

كيف ستكون ملامح وجهه؟ أهي أقرب إليَّ أم أقرب لأبيه؟ أيشبهني أم يشبهه؟؟؟

قزحية عيني أبوه زرقاء كلون السماء، وقزحية عينيَّ سوداء كلون الليل الأدهم، أبوه أحب قزحيتي فتزوجني، وأنا أحببت قزحيته فعشقته، أحبني لأني أختلف عنه وأنا أحببته لأن قزحية عينيه نادرة الوجود، ترى ماذا سيختار صفاء لنفسه... أكيد سيختار القزحية الزرقاء، لأنها من ألوان الطبيعة الجذابة، ترى السماء زرقاء والبحر أزرق وبعض الورود زرقاء، لون يتوافق مع الروح والوجود وألوان الفصول.

أما اللون الأسود أهجس فيه قاتمة ثقيلة، لون شجن وضياع، فيه سهر وعناء، أنه لون النوم والليل والظلام والخوف والشجن والحزن، لشدة بؤسه يخطف الألوان الأخرى من مصادرها فيمتص بهجتها. هكذا أراه، لذلك أحبه ولا أحبه.

غير أن لزوجي رأي يختلف به عن رأيي، له نظرة عكس ما أدعي أنا، يصفه بأنه سيد الألوان، لون العشاق والتحدي والإيباء، انه لون الألق والسعادة، أنه لون الكبرياء والأناقة، لون العريس ليلة زفته، يجمع المحبين على بساط السهر والسهاد تحت ضوء القمر، فلولا السواد ما تحسسنا جمالية القمر، أنه يضفي عليه من روحه لمعة خاصة، فيميزه كجرم سماوي. أنه لون الثبات والعمق، فهو ليس لونا سطحيا يتأثر بالشمس.

يقولون علماء النفس؛ للألوان تأثير كبير على النفس والشخصية وعلى الاستجابة العضوية، فالعلاقة بين الرجل والمرأة من وحي الطبيعة، تسيطر عليها النرجسية المتمثلة بألوان الحب الكثيرة، لون الاحترام والقدر والتعصب والقيافة والترجي والاغتناء والتأمل، فبعض الألوان قادرة على تهدئة النفس وبعضها تهيجها، بعضها قادرة على فتح الشهيّة، بعضها تنشّط استجابة العمليات الجنسية والحسية والجسدية لدى البشر، لهذا يجب أن نكون جادين وحذرين في اختيار الألوان المحيطة بنا، سواء في لون التعامل واللبس أم بطلاء الأظافر والجدران ولبس الملابس، فأن ذاك يعد شكلا من أشكال شخصية الفرد....الخ.

لكن أبوه يتغزل بعيني الجعداء الحوراء حيث لسواد العين أثر على ملامح الوجه، فأنا خمرية اللون وذات قزحية سوداء وشعر فاحم، أهجس بملامح وجهي تبدو كملامح القمر في ليلة الزبرقان مع عينيَّ السوداويين.

إذا للــون الأســود العديــد مــن الــدلالات المختلفــة التــي يحبهــا زوجـي، منهـا الإيجابيّـة ومنهـا السلبية التـي يشـترك بهـا الـرأي مـع النــاس، فهــو لــون يــدُل علــى الغمــوض، والتمــرد، والجاذبيــة، والأناقــة، والرســمية، والعمــق، والتحــدي لــدى معظــم النــاس، وبالـذات لـدى الطبقـة المثقفـة والسياسـيين مـنهم، فـي الوقـت ذاتـه يرمـز إلــى دلالات تمثـل الاكتئــاب والشــرر لثقلــه ورهبتــه. لكـن زوجي يتمسك بالإيجابية منها، ربما كان يجاملني في ذلك.

كمــا أن عــادةً الأشــخاص الــذين يحبــون اللــون الأســود يتصــفون بــالإرادة القويــة والغمــوض والاحتــرام، عكــس الــذين يكرهــون اللــون الأســود؛ وهــذه الصــفات يتصــف بهــا الرجــل الــرزين كزوجـي، أنـه عنيـد، وشـديد فـي تعاملـه، حـدي ومنصـف. دائمـا مـا أشـاهده بأناقـة متميـزة، قليـل الكـلام، حـازم، فيـه سـمات السـيطرة. هـذه ميـزات اللـون الأسـود بشـكل عـام جعلتنـي أعشـق زوجـي لتحليـه بتلـك الصـفات، أحيانـا يخطـر فـي بـالي سـبب عشـقه لـي هـو توافق مزاجه مع قزحية عيني ولون شعر رأسي.

وحـين أرتـدي اللـون الأسـود يعشـق لبسـي، فيدنـدن لـي أغنيـة كـاظم السـاهر(هـذا اللـون عليـك يجـنن يشـبه لـون عيونـك) يجعلنـي أتشـبث بـه.... وأحيانـا فـي وحـدتي أكـره لـون شـعري وأتمنـى لـو قزحيــة عينــي صــهباء كلــون الكهرمــان أو خضــراء بلــون الحشـائش، ولكـن علـيَّ الرضـا بـالواقع طالمـا أنـا بصـحة جيـدة. ربمـا مللـتُ لـون قزحيـة عينـي السـوداء ولـون شـعري الأدهـم كـوني قـد تعـودت عليهمـا، اشـاهدهما فـي المـرآة كـل يـوم عشـرات المـرات، لـذا أجـده لونـا ثقـيلا نوعـا مـا، وأشـعر بسـلبياته فـي

مواضع كثيرة، على سبيل المثال؛ الاسود غير ملائم لطلاء جدران البيت، لأنه يكون ذات دلالات سلبية تنعكس على النفس وبالذات على نفسية الأطفال... لكن زوجي حين يتغزل بعيني يقول:...

- تأثير القزحية السوداء على ملامح الوجه كتأثير الليل على القمر، أنها تبرز مفاتن ملامح الوجه، تجعلها أكثر اشراقة ولمعة، يفيض سحرها على الوجنتين بإضاءة مشعة، مع أنه لون يمتص الأشعة ولا يشعها إلا أنه يبرز الأنف والشفة. أنه لون طري، يضفي سحره على الأنف والوجنة والشفة أكثر من لو كانت قزحية العين زرقاء أو شهلاء. كما أن طلاء الأظافر باللون الأسود يبين سحر الأنامل إذا ما كانت البشرة بيضاء أو خمرية.
أنّه لون يرمز إلى التمرد والثورة على كلّ ما هو مألوف، على الرغم من أن البعض يرى فيه نظرة سوداويّة للحياة كلون حزن وتشاؤم. لكن هذا الوصف محدود ومن خيال البشر ليس إلا.

إذا جعلني زوجي أكون أكثر ثقة بالنفس بعد أن وجدته يتغزل بي كثيرا، هكذا وصفني ووصف لون شعري الفاحم ولون قزحية عينيَّ، في البداية كنت أتوقع أنها مجاملة منه ليظفر بي، ولكن حين تمعنت بالمجتمع وبالمحيط الذي أعيش فيه وبنظرات الشباب لي وانبهارهم بقامتي وبمفاتن ملامحي،

صدقت كل ما يقوله لي، أحببته لأنه كان صادقا معي، لأنه جعلني بمصاف درجات الحسان التي كنت أتمناها.

فلو نظرنا إلى كوكبة الشخصيات من نساء ورجال المرموقين في المجتمع، لوجدنا معظمهم يفضلون اللون الأسود في المناسبات، دلالة على المكانة والقوة والعمليّة والاحترافيّة، حيث يلجأ إليه أغلب رجال السياسة وسيّدات الأعمال، يجعلونه جزءاً من ثقافتهم في تعاملهم مع الآخرين؛ لأنّه لون يرتبط بشكل مباشر بالسلطة والسيطرة والأناقة.... فالجهات التي تقوم بحماية الناس تميل إلى استخدام اللون الأسود في كل شيء كرجال الأمن وحماية الرؤساء، كما أنها تستخدمه كلباس رسمي لطاقم العمل، فاللون الأسود يعطي طابع السيطرة للشخص على الظرف المحيط به وعلى من حوله من الأشخاص بشكل كبير، وذلك من خلال قوة التأثير. وهذا اللون هو اللون رسمي لمعظم الناس، يستخدمه رؤساء البلدان في المناسبات والزيارات، يستخدمه العريس ليلة الزفاف لتكون له سطوة على حبيبته.

ذات يوم سألني زوجي سؤالا عابرا، حيث قال:....

- يا جنان؛ لماذا السيدات من نساء العرب يرتدن اللون الأسود كلون رسمي لهن؟

لم أستطع أن أعطيه جوابا شافيا، لأني لم أفكر مسبقا بهذا السؤال، والحقيقة الإجابة غاية في الشفافية. لأن اللون الأسود عند العرب ذات ميزة وأناقة وبالذات عند النساء منهن، لأنه

يخفي مفاتن اجسادهن، فيعطي للمرأة كرزمة خاصة وشياكة واحترام وحشمة، على الرغم من أنه يرتبط بشكل عام عند معظم البشر بالحزن والحداد، وكان قد تغزّل الشعراء عبر التاريخ بالنساء صاحبات الشعر الأسود والعيون السود والثياب السوداء، حيث هذه الصفات تميز المرأة العربية عن غيرها. فقال ربيعة بن عامر التميمى:....

قل للمليحة في الخمار الاسود --- ماذا فعلت بناسك متعبد

قد كان شمر للصلاة ردائة --- حتى وقفتي له بباب المسجد

فسلبت منه دينه ويقينه---- وتركتيه فى حيره لا يهتدي

ردي عليه صلاته وصيامه --- لا تقتليه بحق دين محمد

وقال عباس مدحت:...

سواد العين أضاء مفاتن وجهها -- فبانت بين الجميلات كالبدر

إذا ما نظرت لها وانت صائم – أفطرت وكأنها حالت ساعة الفطر

***

ذات يوم كانت قد تغزلت هنادي بسواد عينها، حيث قالت لها:...

- يا جنان أرى وجهك جميل بمثابة جنينة ورود في حضرة سواد عينيك المطلة عليها كشمس الصبح،

فعينـــاك جميلتـــان وواســـعتان، ووجهـــك مثيـــر بالجاذبيـــة الغـــائرة فـــي ثنايـــا البشـــرة، كـــل ملامحـــك فاتنـــة ومتناســـقة، ربك أهتم بخلقتكِ.

بصـــراحة جعلتنـــي أنتبـــه لنفســـي كثيـــرا، صـــرت أبصـــر لملامـــح وجهـــي بـــالمرآة لســـاعات طـــوال وأنـــا أبحـــث فيهـــا عـــن ســـر اللغـــز الـــذي لامـــس مشـــاعر هنـــادي ومـــا حســـته قبـــل أن أتحســـه وأشـــعر بـــه. دققـــت كثيـــرا بســـواد اللعـــين وحَورِهـــا المـــزدان بهـــا، وبالتناســـق بينهـــا وبـــالأنف الشـــامخ والشـــفاه المتقدمـــة المبرومـــة، حينهـــا اكتشـــفت شـــيء مـــن مـــا خفـــي عنـــي، وجـــدت ســـحر الجاذبيـــة ذائـــب فـــي الملامـــح مخفيـــة كاللمعـــة المغروســـة بـــالجواهر وكالخضـــرة الرائبـــة فـــي أوراق الشـــجر، حينهـــا عرفـــت ســـر تمســـك أحمـــد بـــي، سر إصراره على الزواج مني.

فـــي العـــرف الواضـــح بـــين البشـــر، عـــادةً مـــا يـــرتبط اللـــون الأســـود بـــالأمور المجهولـــة والســـريّة والمخيفـــة، هـــو لـــون يكتنـــف فيـــه الغمـــوض التـــي اســـتطاعت هنـــادي أن تكتشـــف ســـره فـــي وجهـــي، أنّـــه اللـــون الـــذي يشـــع منـــه الألـــق فـــي الوجـــه فيعطـــي للشـــخص كرزمـــة وميـــزة، كمـــا أنـــه يســـاعد الشـــخص المعنـــي علـــى الوقايـــة مـــن الإجهـــاد العـــاطفي وشـــر العيـــون الحاســـدة التـــي ممكـــن أن يتعـــرّض لهـــا، حيـــث يخلـــق هـــذا اللـــون حـــاجزاً منيعـــا بـــين التيمـــة والعـــالم الخـــارجي، فيـــوفر للمعنـــي راحـــة بـــال يخفـــي بهـــا شـــجنه ونقـــاط ضعفه...

فالنســـاء البـــدينات يلبســـن اللـــون الأســـود ليخفـــين عيـــوب أجســـادهن، ليظهـــرنَّ للمـــلأ نحيفـــات الجســـد، فهـــو لـــون الأناقـــة والرقـــي

والسيطرة والتّحكم كما قلنا، فمحب اللون الأسود هو بشكل عام شخص منطوٍ على نفسه، منضبط، مستقل، وهو صاحب إرادة وعزيمة واناقة.

عادةً ما ينصح لمن يود السفر أن يحمل معه شيئاً لونه أسود ليحميه من الأذى، لما له من طاقة إيجابية في امتصاص الطاقة السلبية وضرر الآخرين به خلال السفر، فهو لون يبعث على النشوة والتفاؤل، فهو لون البدايات والنهايات بشكل عام. هذه الامور هي نفسية ضمن علم الطاقة التي لا نتحسس بها بشكل ملموس، لكننا نتحسس بها بمشاعرنا فتهدأ نفوسنا.

بصراحة أنا لم أتحسس مفاتن جمالي إلا من خلال عيون زميلاتي وزوجي العزيز. ذات مرة قالت لي أميمة:...

- بأن لك شعر فاحم وسرح كشعر فتيات الكوريات، على الرغم من أني ذات بشرة سمراء وأفريقية المنبع إلا أن شعري مجعد وأقل حلكة من لون شعرك، فلون شعرك أدهم، فاحم، كمرآة عاكسة يعكس إضاءة لون بشرتك، فتبدين متوهجة وأقرب إلى النور من كل جميلة.

لقد فعل هذا الإطراء فعله، جعلني أنغر بجمالي وأحمد الله على حسن مفاتني، جعلتني أتحسس ملامح وجهي في المرآة لأكتشف حجم التناسق بين مفاتني وابتسامتي وصدفية أسناني على الرغم من أني كنت مغرمة بفتنة أميمة ولون بشرتها وتناسق ملامحها، لأكتشف من خلالها حقيقة مشاعر زوجي

نحـوي، الـذي دائمـا مـا يغـرق بمـوج عيـوني وانسـياب سـواد شـعري، فأذهـب إلـى لقائـه عبـر خيـال عـام، يسـافر بـي عبـر بسـاط الـريح إلـى حيـث مهجـه، فـأهجس بـذاتي مغشـية بـ مرحـه ولطافتـه، حينها اهجس بذاتي طائرة من ورق، فرحة في ميدان عشقه.

هـذه الحقيقـة تجعلنـي أنصـف مشـاعر زوجـي اتجـاهي، تجعلنـي أصـنفه مـع محبـي اللـون الأسـود مـن اللـذين يرتدونـه باسـتمرار، ويسـتخدمونه فـي أشـيائهم الخاصـة كالسـيارة والهـاتف والسـاعة والقلـم وغيرهـا مـن الأشـياء المهمـة لهـم، كلهـا سـوداء اللـون. هـؤلاء الأشـخاص يحظـون بمكانـة عاليـة فـي المجتمـع، ولهـم كرزمة وهيبة بين الناس وإرادة قوية.

اللـون الأسـود لـون كبريـاء، وحسـب رأيـي هـؤلاء بشـكل عـام هـم لا يتبعـون مـن حـولهم، بـل أنهـم يمتلكـون فلسـفة خاصـة ولهـم مفـاهيمهم التـي يتبعونهـا فـي الحيـاة، وأظـنهم أكثـر الـذين يسـيطرون علـى سـلوكياتهم فـي المواقـف المحرجـة، ولـن يسـمحوا لأحـد بالتـدخل فـي أمـورهم الشخصـية، مكتفـون بكـل مـا يشـغلهم ويخصـهم، هـذه الصـفات هـي جـزء مـن صـفاتي ايضـا، فأنـا اتوافـق مع زوجي بكل شيء إلا بقزحية العين.

مـن يمتلـك هـذه الكارزمـة يكـون متمـردا علـى العـادات والتقاليـد والمعتقـدات السـائدة فـي المجتمـع، كمـا يتصـف بالعقلانيـة، لـذلك أجـد زوجـي أحمـد أقـل النـاس تطرفـا فـي سـلوكه، مسـتقيما فـي غاياته، لهذا عشقته.

لا أدري أن كـان كـل محبـي اللـون الاسـود يتميـزون بالكفـاءة والجديـة، ويهتمـون بالتفاصـيل الصـغيرة التـي تجعـل مـن العمـل مثاليـاً أم فقـط زوجـي، لأنـي وجـدت هـذه الصـفات مغروسـة فيـه، فهـو دقيـق جـدا، مهـتم بالتفاصـيل الصـغيرة، لحـد لا ينسـى مـا لـه وما عليه.

مـا يلفـت نظـري هـو أن السياسـيين والشـرفاء قاطبـة مـن رواد اللـون الاسـود، فأنـه يبـرز المظهـر الجـدي الـدال علـى الانضـباط التـامّ وقلّـة المرونـة لـدى معظـم القـادة والمـدراء. أنـه لـون الحسـم عنـد الـذين لـديهم القـدرة علـى اتخـاذ القـرارات القويـة والجديـة مـع عـدم الرجـوع بهـا أو التـردد أو تغييـر الـرأي، وهـو مـا يـؤهلهم بـأن يكونوا فرسانا ناجحين وقادة في مجتمعهم.

قـد يكـون الشـخص المحـبّ للـون الأسـود انطوائيّـاً مثلـي أنـا أو مثـل زوجـي وبالـذات فـي العمـل حيـث نـادرا أن يمـازح أحـدا أو يجامـل أثنـاء العمـل، وهـو مـا يعنـي أنـه لا يحـب الاخـتلاط كثيـراً بالنـاس، ربمـا لتفكيـرهم الزائـد فـي أمـور الـدنيا، ربمـا لتميـزهم بالثقـة العاليـة بـالنفس أو يقـدرون الأشـياء ويعطوهـا قيمتهـا، بـذا يتحسسـون الفـارق بـين تفكـريهم وتفكيـر الآخـرين مـن حـولهم سـواء كـانوا رجـالا أم نسـاء. لهـذا السـبب أجـد هنـاك فارقـا بـين سلوك زوجي وسلوك بعض زملائه في العمل..

مـع كـل ذلـك اشـعر بـأنَّ جنينـي سـيختار قزحيـة زوجـي، وربمـا يختـار أنفـي وفمـي ووو، لأنـه طفـل يحـب الألـوان.. أحيانـا اشـعر بـه أذكـى ممـا أتخيـل، سـيفرض عقلـه علـى عاطفتـه وسـيختار قزحية عيني، لأني أقرب إليه من أبوه، أنا أمه، أم,,,,,الخ ..

يا جنان لا تجادلي كثيرا، سيختار صفاتك لأنك أمه.

في تلك اللحظة داهمتها إشارة منه، شعرت بطيفه يدور حولها وقربها بعد أن نظرت إلى شريط الاختبار... أنه هو، أنه قادم، دائما ما تكون زياراته لها مفاجئة، يأتيها بين فترات الغفوة والنسيان، يا ترى ماذا بجعبته، ماذا يود أن يخبرني؟..

سمعت همسا يطرق إذنيها:.....

- ماما...
- عيون ماما، كيف تستطيع أن تدخل عالمي، من أية أبواب تدخل؟
- هههههههه، أنها أسرار المهنة، لا ينبغي أن أفشيها...
- حتى لي أنا ماما التي تحبك؟
- حتى لماما، لو أفشيت لك السر؛ ستغلق الأبواب، ولن تسمعينني مرة أخرى؛ حتى يوم ولادتي. ثم أنك نسيتِ بأن هوجسنا مرتبطة مع بعض..
- لا لم أنسى ولا تفشي السر، دعك من ترهاتي، أبقى معي أنا أكون سعيدة بطلتك.
- وأنا أكون سعيد حين أزورك لأرى اهتمامك بي، وسعادتك بي.
- ها قلي ما ورائك؟
- كبرت قليلا، صار طولي قرابة ست سنتمترات. هل تخيلت كم طول رجلي وكم طول ذراعي؟ وكم حجم رأسي وكم حجم عيني. هههههههههههه، لازلت نقطة كما تصفيني، لازلت صغيرا جدا، أهجس بأطرافي

كخيوط العنكبوت، وراسي كنقط في رأس السطر. وفمي يكاد لا يرى بالعين المجردة لحدته. أكيد تضحكين عليَّ. هههههه.....

- يا حبيبي تخيلتك أكبر من ذلك بقليل، ترى ما لون عينيك؟ سوداوان أم زرقاء؟
- لالالالالالالالا، لا زالت لم تتشكل فيها الصبغة. وددت ان اخبرك بأني تطورت في النمو من فترة النطفة لفترة العلقة، وأني الآن مثبت بالرحم بشكل جيد مع المشيمة. وأنا في طور التحول لمضغة..
- ما هي المشيمة؟
- هههههه، أتمازحينني؟؟؟؟ أنها أمي الثانية داخل الرحم، فهي التي تمتص المواد الغذائية من دمك وتحوله إليَّ على شكل طاقة لأكبر، أنها أشبه بأكياس المغذي التي تعلق للمريض في المشافي.
- من أين لك تعرف ذلك؟ كيف علمت بأكياس المغذي؟
- تراني أذكى منك ومن أبي، حيث مخي هو نموذج من مخيكما معا وهواجسي من هواجسكم، استطيع أن أرى ما في مخيلاتكم وأقرأ خواطركم طالما هناك الإيحاء يربط بيني وبينك، لذا تجدينني أستطيع أن أخبرك بماذا تفكرين؟
- أنت حيرتني ..... بماذا أفكر؟ هيا أخبرني؟
- أنا أشعر بوحدتك، وأشعر بفراق أبي عنك، ولكن تلك حالة طارئة وليس بمقدور أبي أن يتجاوز أزمته، أصبري قليلا ستفرج الامور قريبا...

- حبيبي شكرا لك وعلى ذكائك...
- هيا أني سأعود لعالمي وعليك الاهتمام بتغذيتك لأنمو بشكل سليم.
- وهو كذلك .... مع السلام

بعد اختفائه تجذبها إخفاقة نحو سرحان يطوف بها في تفاصيل الحياة القادمة، يرميها في صرة التفكير المتقلب والمتجدد، يشغلها بماضيها وحاضرها، لتتذكر شيء من طفولتها ورحلتها خلال الحياة وبالذات تهجس بشوق لفترات الدراسة التي تركت في ذاتها الكثير من الذكريات الحلوة والصديقات التي انقطعت عنهن بعد الزواج. كما تتذكر حرشة بعض الطلاب بها ربما وجدوا التميز الذي تمتاز به عن صديقاتها من كمال واستقامة وقوام رشيق. حنت لتلك الساعات واشعرتها بالتباهي.

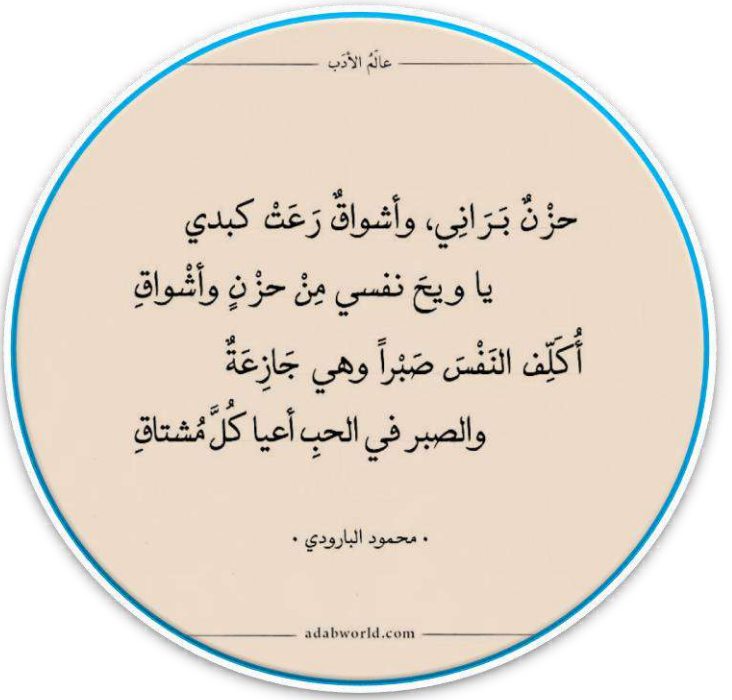
عالَمُ الأدَب
حزْنٌ بَـرَانِي، وأشواقٌ رَعَتْ كبدي
يا ويحَ نفسي مِنْ حزْنٍ وأشْواقِ
أُكَلِّفُ النَفْسَ صَبْراً وهي جَازِعَةٌ
والصبر في الحبِ أعيا كُلَّ مُشتاقِ
• محمود البارودي •
adabworld.com

-10

شباط /2021
الوحام وزيارة أحمد

مع تقدم الحمل كبر بطن جنان، حتى شكت بأنها تحمل توأم، بدأت جنان تدخل في مرحلة الحسابات والقلق المستمر، مضى معها ذلك حتى فترة الترقب قبل الشهر الأخير من الحمل. أنها طبيعة البشر، وخاصة إذا كان ذلك الحمل هو أول تجربة للمرأة، أول معركة تخوضها بإرادتها ودون إرادتها، مجبرة على تحمل منغصاته. أنها الأم، المرأة، الإنسانة، العاطفة، ألم يقل سبحانه وتعالى " الجنة تحت أقدام الأمهات" وذلك لما تعانيه وتتحمل خلال فترة الحمل والولادة والتربية من آلام ومعاناة، أنه المخاض والخلق الذي تشترك به المرأة كمحور رئيسي.

بعد أن تتم فترة الحمل دورتها؛ تشعر المرأة بأنها أنجزت واجبا إلاهيا، تشعر حيال ذاتها بفخر وسؤدد. كما أن الحمل يعطيها دافع أمان للمستقبل، يشعرها بأنها ليست وحيدة في هذا الكون، ليست ملك نفسها، بل أن هناك من يشاركها حياتها وأهوائها وشعورها، احساسها يأخذها إلى الاهتمام بذاتها وترييث أمورها وعملها الخاص، لتساعد ذاتها وجنينها على تكملة مشوار الحمل، لأنها ستهتم بخلق قادم من باطن روحها، روح جديدة تكن بمثابة ظلها، صديقا لها، لن تفارق تلك الروح ولن تفارقها بذاتها ايضا، لذا ستعتني بها وبذاتها قدر

المستطاع. بإنجازها تكون قد أنجزت الأمر المطلوب منها إلهيا، أي أنها أدركت الهدف الذي خلقت من أجله إلى جانب الإيمان والعبادة والتوحيد.

بعد أن يقضي الجنين البشري من العمر ستة أسابيع ونصف، يتغير شكله داخل الرحم، حينها يبلغ طوله حوالي 2,5سم ويزن حوالي 0,1 جم. كما يبدأ امتصاص الغذاء، والأكسجين، والماء، من نسيج الأم عبر المشيمة. تتدفق هذه المواد للجنين من خلال الحبل السُّري كما اشرنا، والذي يعتبر عصب الحياة، وأيضا من خلاله يتخلص الجنين من الفضلات.

في هذا الأسبوع تبرز ملامح الجنين بالطفح والبروز بشكلٍ بسيط؛ حيث تنبثق فتحتَي الأنف، ونتوء الأُذنَين، وتنبلج نقطتين سوداويتين مكان العينَين، ثم تبدأ الأطراف بالانفصال عن جسم الجنين، فتبدو مماثلةً لمنظر المجدافين.

هكذا يتطور نمو الجنين مع اهتمام الأم بصحتها وتغذيتها، ففي الأسبوع السابع والثامن يتّضح قلب الجنين ونبضه؛ إذ يمكن قياس النّبض بجهاز الموجات فوق الصوتيّة الأبيكو أو السونار كما يسمى، وتبدأ الدّورة الدمويّة عملها بانتظامٍ، ويستمرّ نموّ الأعضاء الدّاخليّة مع تطوُّر وظائفها الفسيولوجيّة، مثل: الكليتَين، والكبد، والدّماغ. كما تتضح ملامح الأطراف بشكلٍ أوضح، تتهيَّأ الأصابع للبروز، تبدأ العظام بالتكوُّن. في هذه الفترة لا يبدو جسد الطّفل مُتناسِقاً؛ حيث يكون حجم رأسه أكبر من جسده، إلّا أنّه بالرّغم من ذلك يظهر بصورة إنسانٍ صحيح

الهيئة. اهتمت بتلك التفاصيل لتشعر بأمهمية الحفاظ على توازنها.

مع انقضاء الأسبوع الثامن تكون جنان قد قضت فترة ثلاثة أشهر وعشرة أيام تقريبا في كامب شنيبر وهي مستمرة في جمع معلومات الحمل من مصادر عدة، لتنم بمراحل نمو الجنين، تستقي معلوماتها عن طريق طبيبتها وتصفحها مواقع الانترنت التي تعتني بشؤن المرأة الحاملة ومن قبل النساء ذوات الخبرة كأم هنادي وامها وما تتصفح من مجلات نسائية.....الخ. كما تعتبر هذه فترة طويلة جدا على المرأة الحامل وهي تعيش معزولة بمفردها في غرفة كئيبة تخلوا من كل مستلزمات الراحة، غرفة لا تحتوي سوى على سرير متهالك، وفرشة مستعملة، ودولاب لا يسع قطعتي من ملابسها وزوج أحذية فقط، أرضية الغرفة غير مفروشة بسجادة تقئها برد ذلك الشتاء المذل. هذه هو كل ممتلكاتها، أنها تعيش عيشة القرون الوسطى أو الشحاتين، تفتقد ميزة التملك والحرية والعمل، مسلوبة الإرادة والشخصية، تفتقد العشرة والمحبة والحنين والطمأنينة والراحة النفسية، تلك ما تحتاجه في غرفتها وغربتها... ذلك ما كان يقلقها وينغص حياتها طوال فترة مكوثها في كامب شنيبر.

فعلا أنها فترة حرجة وخطرة على حياة الجنين، فترة تحتاج بها لمهارة ومعرفة مسبقة بكل حيثيات الحالة ومراعات صبرها، كما هي بحاجة لشريك حياتها أن يبادلها الألفة التي هي في أمس الحاجة لها لتنعيم الظرف، المرأة الحامل بحاجة إلى

الدعابة والملاطفة والحنية، إلى حالة نفسية مستقرة، إلى رعاية خاصة من قبل الزوج والأهل.

كما أنها لا تستطيع الاعتماد على نفسها في إدارة شؤونها وتوفير مستلزمات حياتها في وحدتها، في الوقت الذي به الكل يكون منشغل بنفسه؛ لتشابه ظرف النزلاء، لضعف الترابط الاجتماعي بين المهاجرين من جهة، إذا ما أخذنا اختلاف أجناسهم وجناسيهم وغاياتهم ولغاتهم وطباعهم في عين الاعتبار... كل هؤلاء جمعتهم الصدفة تحت ظروف متشابهة آنية، لم يخططوا لها، مع أن معظم المتواجدين من المهاجرين هم من عرب أفريقيا.

إذا من يعينها في شؤونها؟ من يساعدها في الترتيب والتنظيف وحمل الأشياء وتوفير الغذاء لها؟ كل تلك الأمور هي عاجزة على تلبيتها بذاتها، كونها في معظم الأحيان تكون مصدوعة، متعبة، مرهقة، مشغولة بذاتها وبحالتها النفسية، حيث تنسلت الأوقات من بين أصابع يديها، أو تخسرها مغصوبة بسبب عجزها النفسي والجسدي.

إضافة إلى حالة الغثيان التي تتعرض له والوحم الذي يداهمها ويعيق ثباتها ويقوض صحتها ويربك ذاتها ويزعجها. حيث تلازم فترة الحامل حالة القيئ والغثيان خلال فترة الأشهر الثلاثة الأولى بشكل عام، وذلك أيضا يعتمد على طبيعة جسد المرأة ومقاومتها التغيرات.

في الحقيقة هي كانت محظوظة بتعرفها على هنادي وأميمة اللاتي لم يتوانيا في مساعدتها قط، كنَّ ساعدها الايمن وتحت طلبها في تذليل الصعاب بالإعانة والمساعدة. يغسلنَّ ملابسها، ينظفنَّ غرفتها، يرتبنَّ فرشتها وأشيائها، يحملنَّ عنها حاجاتها، يجلبنَّ لها غذائها، يسلينها، يجتمعنّ معها في غرفتها، يتسمرنَّ معا، يصاحبنَّها في مشاويرها، فـ يزحنّ همومها وشجنها قدر المستطاع. كنِّ لها نعم الصديقات الوفيات.

هذا ما سهل عليها وضعها وهدأ خاطرها وخفف من قلقها، هذا ما جعلها تحتمل هموم المكان وفراق الزوج والأهل، حيث في وحدتها تهجس بحالها لا يختلف عن حال الكرسي والسرير من ناحية القيمة والاهتمام، مرمية في غرفة من الكامب دون سند وونيس. مع تطور حالة الحمل وتفاقم عقده ومشاكله؛ رحلت دائرة الهجرة هنادي لمقر سكناها الجديد؛ بذهابها قد خسرت أحدى مساندها، عكرت مزاجها، جزلت شغفها بالحياة. شغلتها الوحدة، تهجس بذاتها ميتة لولا الروح التي تتحرك بداخلها. هذا ما وصلت له مع طول فترة الانتظار والتأمل بالفرج مع دخولها الشهر الرابع وهي قابعة في الكامب.

على الرغم من أنها كانت تهاتف زوجها كل يوم مرة إلى مرتين على الأقل، وخاصة في الفترة التي تكون بها منعزلة عن محيطها، أو قبل فترة الرقاد؛ ألا أن ذلك لا يعوض وجوده في عالمها، ثم أنها في كل مرة تُجهد ذاتها حتى تتمكن من الاتصال به لضعف خط الأنترنت الذي تعاني منه تلك البقعة النائية من الدولة، لقربها من حدود دولة الجيك...

في الحقيقة كان زوجها هو الآخر يمر بذات الظرف من هم وفراق ووحشة يعاني من هاجس الوحدة بين منغصات العمل في المطعم وذكريات الزوجة الحبيبة، لذا كان يجهد بتفريغ نفسه من العمل، ليمر عليها كل يوم أحد بعد الساعة العاشرة صباحا ليأخذها في جولة ترفيهية بسيارته في المناطق القريبة من الكامب، ثم يأخذها لمطعم عربي كائن افي وسط مدينة آوا القريبة من مدينة شنيبر، هناك يجلسان على إطلالة نهر صغير يقطع المدينة من منتصفها، يمر بين الأودية، إطلالة خضراء محيطة بمدينة آوى إلى جانب غابات صنوبرية واشجار الصفصاف المترامية، والتي دائما ما تكون تلك الحدائق زاهية بأنواع الورود في موسم الربيع... حيث يداعبها ويغازلها، فيزيح عنها هالة القلق والوحدة، يجلسان في مقهى جانبية تطل على روضة ساحرة إلى جانب النهر المنساب قرب الجسر، يذكرها بشوقه ولهفته ومحبته وإخلاصه وسعادته بوجودها في حياته. يقضي معها سويعات ثم يعيدها قبل الغروب للكامب بعد تطهيرها من الهموم والعقد، قبل أن تنزوي الشمس خلف الأفق. حيث الشمس تذوي خلف الجليد بعد الساعة الثالثة عصرا خلال أيام الشتاء. حيث سريعا ما يغشي الغسق الأفق بدهمة تجبرهم على ترك المكان مع شدة لسعة البرد..

هكذا كان يتحفها بشحنة تجديد الطاقة، ثم يعيدها للكامب مساء، خوفا عليها من الإجهاد النفسي والبدني ومن لسعة البرد التي لا ترحم، وبذلك يخفف عليها عناء الوحدة، كما يخفف على ذاته عناء الفراق والعودة لمقره في مدينة لايبزك يعود

بعد أن يطمأن عليها ويشعرها باهتمامه بها؛ حتى تفرج دائرة الهجرة عن أمرها.

حينها قالت لزوجها وهما جالسان في المقهى:.....

- اتعلم يا أحمد أني اصبحت خبيرة بالحمل؟
- كيف يا حبيبتي؟
- اقلك، اكاد لا أنفك عن تصفح مواقع النت، أبحث فيها عن مراحل تكوين الجنين وطريقة تعامل الحامل مع فترات الحمل، واستمع لخبرات النساء ممن تعرفت عليهن في الكامب.
- جميل جدا، هذا يجنبك مصاعب الكامب وعقده.
- فعلا، الآن أصبح عمر صفاء قرابة أثنتا عشرة اسبوع إلى حسب تقديرات طبيبتي. أي الان قد برزت للجنين اصابع اليدين والقدمين بشكل واضح. كما يكون قد أكتمل القلب والكبد والكليتين والدماغ مع أداء وظائفها الفسيولوجيّة أداءً كاملاً، كما يكون قد برز شكل الجبين ومستواه وحددت ملامحه في الرأس، غير أنه يحتاج ليكتمل نموه الفعلي فترة ستة أشهر بالتمام والكمال داخل الرحم.
- يا حبيبتي أنا سعيد جدا أن أسمع ذلك منكِ، هذا يساعدك على الاهتمام بنفسك وبالجنين معا، أنا انتظر قدومه بشغف، أتمناه أن يحمل أوصافك وملامحكِ. يا ترى؛...الآن هل يستطيع أن يلعب الكرة ؟ هههههههه.

- يـوم المنـى أراه أمـامي، إذا عليـك أن تعتنـي بـي أكثـر، لا تبخـل علـي بالاتصـال بـي فـي كـل ليلـة، صـحيح الخـط ضـعيف فـي الكامـب ولكـن أنـي بحاجـة لوجـودك إلـى جـانبي، كـي تكـون حـالتي النفسـية مسـتقرة، وكـي تـرى أبنك يلعب الكرة كما تتمنى.
- وهو كذلك، أنت في ذاكرتي وبين عيوني.

سـجلت كـل الأحـداث فـي مـذكرتها، ذلـك يجعلهـا أكثـر حرصـا وحـذرا فـي تعاملاتهـا وحركاتهـا، خاصـة الفتـرة الأولـى مـن الحمـل تكـون حرجـة جـدا، لضـعف ثبـوت الجنـين فـي سـقف الرحم....

فـي كثيـر مـن الأحيـان تنسـى المـرأة حملهـا، فتقـوم بحركـات بهلوانيـة تـؤدي بهـا إلـى النـزف أو إلـى اسـقاط الجنـين. لـذا حـددت تعاملاتهـا وطلعاتهـا للأسـواق لتتجنـب العقـد، أضـحت لـن تخـرج من غرفتها دون مرافق قط.

فـي هـذه الفتـرة أي فتـرة الأشـهر الثلاثـة الأولـى مـن الحمـل كانـت تحـرج زوجهـا بسـبب منغصـات الوحـدة التـي تعتريهـا بـين فتـرات متقطعـة وأحيانـا تلازمهـا وتسـبب لهـا مضـايقات نفسـية، ذلـك بسـبب التغيـر الهرمـوني الحاصـل فـي جسـدها.... لـذا تجـدها تشـتهي بعـض الأكـلات وتنفـر مـن أخـرى وخاصـة الزنخـة منهـا. فـي تلـك الفتـرة الحرجـة مـن الشـتاء كانـت قـد طلبـت مـن زوجهـا أن يـوفر لهـا فاكهـة الرقـي (البطـيخ الأخضـر) والـذي هـو مـن الخضـار الصـيفية... حـاول جاهـدا أن يعثـر علـى الرقـي المسـتورد دون أن يفلـح؛ وخاصـة أنهـا تعـيش فـي ألمانيـا التـي نـادرا مـا

تـزرع فيهـا تلـك المحاصـيل، والتـي جـذورها تنتمـي لمنطقـة الشرق الأوسط. وعندما زارها زوجها في الكامب سألها:....

- يا جنان هل لديك خروفا تربينه في الكامب؟
- هههههه اليوم أجدك مرحا، تنكت!، ها ماذا ورائك وماذا تقصد؟
- الم تتوحمي على الرقي؟
- وما علاقة الرقي بالخروف؟
- كيف لا علاقة، أنسيتِ؟ هههههههههه. اسمعي إذا... كان هناك رجلا بخيلا جدا يشبهك بالصفات، هههههه.
- هههههههههههه، لو كنت كريما لما حظيت بي، لتزوجت غريبة عنك، لكنك تزوجتني كي لا تصرف نقودك. لأنني أبنة عمتك سأتحمل بخلك. هههه.
- امزح معك ولن أبدلك بكل المانيا. على كلٍ أراد هذا الرجل أن يتغدى ويتعشى هو وخروفه بنصف دينار، وأرد أيضا أن يسلي نفسه خلال سهره الليل بذلك المبلغ، ذهب إلى رفيقه البخيل يستجدي منه النصح، كيف يتمكن من أن يداري نفسه ويومه بنصف دينار؟ قال له رفيقه الذي يبدو أكثر فطنة:... اشتري به رقي (البطيخ الأخضر) وقرص خبز، فمنها تتغدى وتتعشى ومن قشورها تغذي خروفك الجائع، وفي سهد ليلك تسلي نفسك بحبه معي. هههههههههه.

أحمرت وجنتاها وعينيها من الغضب، ردت عليه بعصبية:...

- الآن أخبرني من البخيل أنا أم أنت؟ أنت الذي لم تجلب لي الرقي لغلاء ثمنه، ام أنا الذي ضاق بي الصبر؟ هههههههه.
- جلبت لك صورته يا عزيزتي، فلو كان يتكلم لسجلت لك صوته. هههههههههه، ها نحن في فصل الشتاء، وهذا ليس موسمه، مع أني جاهدت بالبحث عنه في الأسواق دون جدوى...
- لا ادري يا أحمد لم نفسي تشتهيه دون غيره، أهجس بذاتي لو أمامي عجلة رقي؛ لأنقضّتْ عليها نفسي انقضاض اللبوة على الفريسة. أكاد أشم رائحتها بأنفي.
- سأشتري لك حَبُ الرقي سلي به ذاتك في الليل، أو أشتري حب عين الشمس، أنه جيد لطرد الوساوس من رأسك. هههههههههه.
- انا في حالة نفسية متعبة وأنت تضحك عليَّ، لو كان الامر بالعكس، أي لو الرجل يحمل بدل المرأة لتحسست بما يعتريني. شكرا على تقديرك.
- حبيبتي لا شكر على الواجب أنا أحاول أن أجنبك الكآبة والعقد قدر الامكان.
- إذا زدتها بدل أن تنقصها.....

في صباح يوم التالي من يوم الأثنين في أول اسبوع من شهر آذار وجدت أسمها ضمن قائمة المرحلين الجدد بعد أن أفرزتهم دائرة الهجرة حسب جداولها والأماكن المتاحة لديها، وحسب العرف يتم نقل النزلاء خلال يومي الأربعاء والخميس من كل أسبوع، وكانت قد وجدت إلى جانب أسمها أسم أميمة في ذات

القائمة. بذلك سعدن كثيرا واشرقت وجوههن بفرحة لا تسعها النفس، أخيرا تحررن من سجن شنيبر.

اتصلت بزوجها لتخبره وتفرحه، كي يحضر بسيارته يوم الخميس ليأخذها من الكامب إلى مكانها الجديد في لايبزك. كما صرن يجمعن حاجاتهن في حقائبهن ليجهزن انفسهن ليوم النقلة بحبور وسرور خلال الايام التالية.

على أية حال كانت قد قضت فترة ثلاثة أشهر ونصف تقريبا وهي تعاني من كامب شنيبر، خلالها تعرفت على الكثير من الوجوه ولاقت الكثير من المضايقات من قبل العزاب في طريقها إلى المطعم أو في الأسواق، سمعت بأذنها بعض كلمات التحرش من إطراء ووصف ومدح لفتنتها وجمالها، حيث جنان طويلة القامة قياسا للنساء، فهي بطول 175 سم، بذلك تتميز بين النساء، رغم ارتدائها العباءة والخمار فلم تفلت من ألسن الشباب ونظراتهم. ذلك ما جعل الشباب يحاولون معرفة ما خفي من اسرار وألق خلف ذلك النقاب.

إذا ظهرت أخيرا قائمة النقل التي تأخرت كثيرا من وجهتها. بان أسمها ضمن عشرة اسماء مرحلة، كل حسب وجهته ورغبته لتنفك عن تلك المضايقات التي أزعجتها. استعدت وأميمة ليوم الرحيل لتكون بجوار زوجها، الصدفة جمعتها بأميمة في قائمة نقل واحدة، ذلك ما خفف عليهن ساعة الفراق، بعد أن عشن فترة صحبة جميلة...

11- نقل جنان إلى لايبزك

وأخير فرجت أزمتها، باتت تجمع أشيائها في حقيبتها تهيؤا للرحيل عن الكامب بعد أن أعلنت إدارة الكامب التي تستقطب معلوماتها من دائرة الهجرة عن نقلها إلى مدينة لا يبزك، كانت قد عانت ما عانت قرابة أربعة أشهر من المكوث في الكامب المنبوذ بما يسمى بكامب التصفية، قياسا إلى ما عانت منه أميمة التي قضت ستة أشهر كاملة فيه. فأنَّ مدتها تعتبر قصيرة قياسا إلى المدة التي قضتها أميمة في ذات الكامب، ولكن مع فترة الحمل والأحراج الذي رافقها من منغصات وتوقعات وصعوبات والتي كانت قد عاشتها ببالغ الصعوبة، اعتبرت مدة أربعة أشهر مع الحمل هي أقسى وأطول من مدة الستة أشهر بدون حمل. المهم ذلك الإحساس تداولته مع رفيقتها أميمة وهنَّ يمزحن ويتناقشن في الغد ومصيرهنّ، يجمعن أشيائهن استعدادا للرحيل، بذلك تكون جنان قد تجاوزت المئة يوم من الحمل بالتمام والكمال في ذلك السجن.

وهي تعد ذاتها للرحيل؛ كانت أميمة قد ضبت لها أغراضها الشخصية والتي هي أشياء بسيطة، عبارة عن بعض ملابسها ومستلزمات المكياج والأدوية وأشياء أخرى تبضعتها من الاسواق القريبة كبلوزة وسترة وحذاء ونعل وكريمات وشامبو ...الخ، جمعتها في حقيبة واحدة متوسطة الحجم.

خلال تجهيزهما الحقيبة، قالت لها أميمة:...

- أخبريني قبل فترة الولادة لأكون إلى جانبك في أوقات الشدة، أود أن أستقبل ولي العهد بعد أن أتعبنا.
- شكرا لك يا حبيبتي، لا اعرف حقيقة الظرف، ربما صفاء يستعجل القدوم، سأخبرك بعد الولادة لتأتي تسلمي على ضيفي العزيز، كما أني خلال فترة الولادة سأكون محاطة بفريق من المحبين الذين سيعينونني على اجتياز المحنة من أهلي وأهل زوجي، كما في تلك الحالة أكون تحت رحمة القدر، ولن أستطيع خدمتك ومجالستك بالشكل المطلوب.
- أنا التي أتمنى خدمتك وأشد من أزرك، أهجس بك أختي العزيزة، تعودت عليك يا جنان فالفرقة صعبة.
- صدقيني ستشعرين بالوحدة بدوني، كما أني سأكون منشغلة البال بك وأنا متعبة تحت ظرف القدر، أنت غالية على قلبي ولن أسمح لنفسي أن اقصر تجاهك، لقد عنتني هنا وكنت نعم الأخت.
- إذا طمئنيني عن صحتك باستمرار، دعي صداقتنا تدوم إلى الأبد.
- أعدك بذلك لن أتخلى عنكن أنت وهنادي قط.

وقبل أن تفل من الكامب تسامرن تلك الليلة وبقين يغشينَّ أنفسهن بالرحلة المجهولة والتي ستقللهن عجلات تابعة للهجرة إلى حيث أماكنهن الجديدة. ستكون الرحلة على الأقل مجهولة لأميمة، لأن دائرة الهجرة ستنقل الأفراد على حسب مصلحتها وحاجة المنطقة للمهاجرين، بينما جنان أكيد ستوضع في محل إقامة زوجها رفقة بها وبحملها، مع أنها غير مدون زواجها

لدى سجلات الدولة أو في دائرة الهجرة، كونها لازالت لا تملك أوراق ثبوتية وإقامة صريحة.

بعد منتصف الليل كل منهنَّ نامت في سريرها حالمة بالغد المشرق بفكر مشوش، وقبل أن يغشى أجفان جنان الرقاد؛ زارها طيف جنينها للمرة ألأخيرة، جاء وهو يطرق سمعها بروحه المرحة:...

- ماما....
- روح ماما أين أنت؟
- أنا قربك، أطوف في شبكة عيونك، ألا ترينني؟
- لا، لكني أهجس بنور كنور شمس يسطو على فكري.
- هو ذاك انا.
- كيف حالك وصحتك أخبرني عن نفسك وما الجديد الذي طرأ عليك.
- أنا الآن في طور التكوين، عظامي في طور التصلب وبراعم الأسنان تتحدد تحت اللثة، الاصابع أخذت تبرز وتنفصل عن بعضها.
- عظيم جدا، لم تكلمني عن الجهاز التنفسي.
- بدأت اتنفس بواسطة السائل الأمينوسي، كما اكتملت كليتاي وبات جسدي يطرح الفضلات عن طريق سائل الأمينوسي عبر السرة.
- ومن أين جئت بهذا الأسم؟
- ألستم من وضع هذه الأسماء المعقدة؟

- هههههههه، فعلا نحن، أقصد العلماء المجانين، وهل تسمع الآن، أقصد هل أكتمل جهاز السمع لديك؟
- الأذن بدأت تتكور وشبه مكتملة، والحبال الصوتية بدأت تتشكل لدي، أصبحت لدي قدرة عضلية بسيطة على البلع، أنا لا زلت صغيرا بطول بضع سنتمترات.
- حبيبي إذا كل شيء فيك الآن مكتمل، سأعتني بك كثيرا حتى تأتيني بصحة جيدة.
- شكرا ماما، أنا جئت أزورك للمرة الأخيرة، معاناتك من الغد ستنتهي، لذلك عليك انتظاري بعد الولادة.
- وكيف عرفت؟
- أليست مشاعري مرتبطة بمشاعرك؟ أنسيتي أنا جزء منك؟ حين أزورك لأبعد عنك شبح الوحدة والكسل، وعندما تكوني بحضرة والدي، سوف يطمأن قلبي عليك، لذا لن أحضر مرة أخرى حتى يوم الولادة؟
- أنا أريد أن تطل عليَّ باستمرار.
- الأمر خارج عن إرادتي، أنها العلاقة الفسيولوجية بين روحي وروحك، أرجو أن تعتني بنفسك جيدا، مع السلامة
- مع السلامة حبيبي.

بقيت في وحدتها تفكر بالجنين الذي أخبرها عن زيارته الأخيرة، ستشتاق له، أنها فترة طويلة، تتجاوز الخمسة اشهر حتى تلتقيه، بقيت كلماته تدور في فلك ذهنها حتى أغشاها الكرى لتذهب أسيرة سباته..... ياه ....

أي طيف هذا الذي زارها، أي طيف هذا الذي جعلها تستشعر بكل الذي يحيط بها، هل فعلا أنه كان طيف وليدها؟ أم أنها مجرد تكهنات خيالية تخطرها، أم همسة ذاكرة خلجت في بالها؟ لا أعرف، لا أدرك إن كان حقيقة أم خيال، أم هوس ما يخطر ذهني في أوقات الشدة؟ أنها فعلا حالة فسيولوجية فريدة، أو شيء من عصف الجنون أستشعر به حين أكون وحيدة...

صارت تخاف أن تخبر زوجها أو صديقاتها بما يحدث معها من تخاطر مع جنينها، لألا ينسبون إليها الجنون، دعها تعيش الحالة كما تراها، أسيرة الهوس والخيلاء، أنها حالة صحية تجعلها على تواصل تام مع صحة جنينها وراحة بالها وانتظام تغذيتها واهتمامها في ذاتها وبصحة الجنين.

في صباح يوم الخميس وفي تمام الساعة السابعة، طرق بابها رجل المارتيزر، أخبرها بتجهيز نفسها للرحيل إلى لايبزك خلال ساعة، لتذهب وتستقر قرب زوجها... بعد مرور عشرة دقائق على تنبيهها؛ مرت عليها أميمة لتحمل عنها حقيبتها متجهين إلى بهو المطعم الخاص والذي يبعد مسافة تتجاوز 200 متر، حيث مكان التجمع قبل المغادرة.

قبلها كانت قد أخبرت زوجها بتفصيل نقلتها، لذا حين ذهبت إلى بهو المطعم، وجدت سيارته مركونة قرب البهو خلف السياج العازل، اتجهت إليه متشوقة لرؤيته، بقت واقفة قربه تغازله عبر السياج الحاجز المكون من شبكة اسلاك حديدية رغم شدة البرد. أخبرها سينقلها في سيارته إذا سمحوا بذلك، غير أن المأمور المكلف بنقل السجلات والمكلف بحملها للنقطة

الجديدة المقصودة؛ لم يسمح له بذلك، حيث تقع مسؤولية سلامتها على عاتقه لحين نقطة الاستلام الجديدة في مقر السكن الجديد في لايبزك، لذا طلب من زوجها مرافقته حتى دائرة هجرة مدينة لايبزك حيث هناك سيكون الفرز الأخير..

بعد مسير ساعة زمن بالإضافة لساعة أخرى من التأخير رافقها حتى مقر السكن الجديد (الهايم، أو الكامب) الجديد بسبب إجراءات الفرز. أخيرا تم تحويلها لسكن النساء في لايبزك قرب محطة القطار في وسط المدينة. لذا اتفقت مع إدارة الكامب المسؤولة عنها، أن تذهب مع زوجها على أن تحضر إلى الهايم كل ثلاثة أيام لتسجيل حضورها وبيان أخبار دائرة الهجرة فيما يخصها من تعليمات. وبذلك وفرت على الهايم سريرها ومصاريفها.

لو عدنا إلى مراحل الحمل نجدها تقسم لثلاث مراحل، كل مرحلة تستغرق فترة ثلاثة أشهر، الفترة الأولى هي فترة أخصاب والتكوين وتحول الجنين من نطفة لعلقة وعملية التثبيت في جدار الرحم والارتباط بالمشيمة ... الخ، تلك الفترة هي الأصعب والأكثر حرجا وأهمية في حياة الحامل، كانت قد قضتها جنان في كامب شنيبر السيء الصيت، وهي فترة أساسية لتثبيت الجنين في سقف الرحم وبناء الهيكل العام للطفل، تحتاج هذه الفترة لعناية خاصة ليكون الجنين بصحة جيدة، وكانت قد عانت ما عانت حتى تمكنت من أن اجتياز المدة بسلام.

في المرحلة الثّانية من الحمل هيَّ فترة تحول الجنين من الحالة الضبابية إلى حالة الوضوح، إلى فترة البناء والتشخيص والتركيب،.. في هذه المرحلة تكتمل نموّ أعضاء الجسد الداخلية كالكبد والطّحال والرئتين؛ حيث الكبد يُفرِز العُصارة الصّفراويَّة، أمّا الطّحال فتتمثّل مهمّته بإنتاج كريات الدّم الحمراء، كما تزداد الاطراف قوة وطولا حينها يكتسب الجنين في هذه المرحلة مرونةً ونشاطاً، فتزيد حركته وركلاته التي تصل إلى حدّ تحسس الأمّ بها بعد أن تكتمل جميع أجزائه فيبدو كدمية صغيرة.

بعد أن يقضي الجنين الأسبوع السادس عشر من عمره: يستطيع الطبيب التعرف على نوع جنسه عبر تكنولوجيا الموجات فوق الصّوتيّة (السونار)، أمّا على المستوى التنظيميّ فإنّ الغُدّة الدرقيّة تُصبح قادرةً على إفراز الهرمونات الخاصّة بالتّمثيل الغذائيّ. هذه المرحلة من عمر الجنين تبدأ الأجهزة بالعمل بشكل منتظم من القلب والجهاز الهضمي، كما يزداد حجما وطولا حتى يبلغ وزنه قرابة كيلوغرام، فيما يزداد طوله ليبلغ قرابة شبر.

بعد انقضاء هذه المرحلة يستطيع الجنين العيش خارج الرحم إذا ما داهم الأم أمر طارئ ما، حينها يعتبر من اطفال الخدج الذين يحتاجون لرعاية خاصة حتى يبلغ أشده ويكتمل نموه خلال ما تبقى من التسعة أشهر التي من المفروض أن يقضيها في رحم الأم...

أمـا المرحلـة الأخيـرة مـن فتـرة الحمـل، هـي فتـرة نمـو الجنـين، حيـث يـزداد وزنـه وطولـه سـريعا قياسـا للفتـرة الأولـى والثانيـة، تكتمـل كـل أعضـاءه وتعمـل بصـورة صـحيحة كـأي طفـل، وقـد يصـل وزن الجنـين لثلاثـة كيلوغرامـات أو أكثـر فـي نهايـة المرحلة.

عزيـزي القـارئ مـا رأيـك بمـا جـرى لجنـان، يـا تـرى هـل سـتكمل المشـوار بسـلام، هـل سـيعيش الجنـين ويولـد كبـاقي الاطفـال قياسـا لما عانت من صعوبات وعقد الكامب؟

كيـف سـتواجه الظـرف القـادم، كيـف سـتكون علاقتهـا بزوجهـا والجنين؟

بعـد أن انتقلـت مـن كامـب شـنيبر أصـبحت تعـيش حيـاة روتينيـة بـين البيـت ومراجعتهـا طبيبتهـا والتنـزه خـلال العطـل فـي حـدائق لايبزك الجميلة....

للمعلومـات العامـة تعتبـر لايبـزك هـي ثـاني أكبـر مـدن ولايـة ساكسـونيا فـي شـرق ألمانيـا، وتقـع علـى بعـد 150 كيلـومترًا جنـوب بـرلين. تشـتهر المدينـة بكثـرة المعـارض المنظمـة فيهـا. تعـد إلـى جانـب فرانكفـورت مركـزا تجاريـا ومركـزا لطباعـة الكتـب علـى مـدى التـاريخ. بهـا أحـد أقـدم الجامعـات الألمانيـة العتيـدة والعديـد مـن الكليـات والمعاهـد العليـا والأمـاكن التاريخيـة. تعد أحد أهم المنـاطق الصـناعية والتجاريـة فـي شـرق ألمانيـا...فـي عـام 2010 صـنفت كواحـدة مـن أكثـر مـن 70 مدينـة صـالحة

للعيش في العالم، وصنفتها نيويورك تايمز كواحدة من 10 مدن ينصح بزيارتها.

تتميز لايبزك بمعالم كثيرة تاريخية وثقافية وطبيعية فمنها:...

1- قلعة جوليزر ، هي قصر صيفي جميل.
2- نصب معركة الأمم الشامخ. إذ يُخلّد ذكرى معركة الأمم التي تمت فيها هزيمة نابليون وتراجعه إلى فرنسا عام 1813 ميلادي.
3- تحوي على محطة بافاريا وهي واحدة من أقدم محطات السكك الحديدية في العالم وأكبرها.
4- في لايبزك قاعة المحكمة، قصر إمبراطوري سابق. مبنى ضخم على طراز عصر النهضة الفرنسية والباروك.
5- BastionMoritz هي قلعة سابقة من منتصف القرن السادس عشر بجوار الجامعة. الجزء الوحيد الباقي من تحصينات المدينة القديمة.
6- فيها حديقة حيوانات نادرة، هي واحدة من أقدم حدائق الحيوانات في العالم وتبلغ مساحتها أكثر من 23 هكتارًا. بالإضافة للأنهر والبحيرات والرياض والحدائق والمنتزهات الشاسعة المنتشرة على مستوى المدينة، فهي مدينة بحق جميلة جدا بطبيعتها الخلابة، إضافة للمعالم التي ذكرناها.

تلك الأماكن كانت جنان قد زارتها جميعها مع زوجها خففت عنها عناء المكوث في البيت، حيث أغلب أوقات النهار يكون

زوجها مشغول في عمله لذا كانت تستغل عطلة نهاية الأسبوع ليعينها ويتحسس بحملها وشداده.

تلك الزيارات والتجوال خففت عنها لسعة الغربة وبعدها عن وطنها ومشقة الحمل، ساعدها على تجاوز أزماتها الذاتية، منحتها استقرارا نفسيا لتحتمل فترة الحمل وصعوباته.

أما أميمة كانت قد استقرت في مدينة **جيرا** التي تبعد عن لايبزك مسافة عشرين دقيقة، في جيرا يوجد مقر شركة أمزون في ألمانيا الشرقية، أي أنها وجدت فرصة وجود الشركة قربها لتعمل فيها كعاملة مخزن، وبذلك كانت تزور جنان على مراحل وحسب الظرف، حيث العمل شاق في المانيا بشكل عام، لأنهم يستغلون الفرد حتى ينفد طاقته، لذا كانت تزور جنان بين شهر وشهر على مدى بقية فترة الحمل.

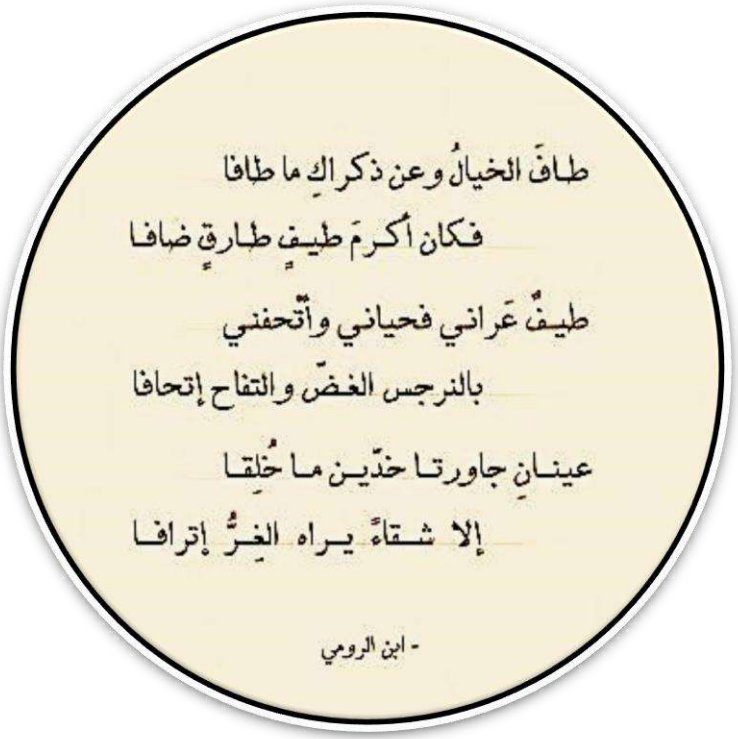

12- معالم لايبزك

على الرغم من اكتمال أجهزة الجنين الداخلية خلال الشهر الرابع والخامس من العمر، لكنه لن يحتمل العيش خارج الرحم إلا بعد أن يكمل شهره السادس أو يكمل أسبوعه السادس والعشرين داخل الرحم كما أسلفنا...

على أية حال هذه معلومات كانت تقلقها طالما لم تكمل اسبوعها السادس والعشرين، وكانت قد استقتها عبر طبيبتها التي تراجعها في مدينة لايبزك وذلك بعد أن شعرت بنزول قطرات من الماء الدافئ على ساقيها، مما ولد لديها قلقا وشعورا بالخوف من المحذور، الخوف من تدهور الحالة وسقوط الجنين.

كانت مستمرة في مراجعة طبيبتها مراجعة دورية، وخاصة بعد استقرارها الأخير في مدينة لايبزك، كانت قد أغرتها جمال المدينة، بهرت بالمناظر ولطافة الطقس، لذا أكثرت من جولاتها دون أن تدرك ذلك قد يسبب لها خطرا يكلفها حياتها وحياة الجنين. لذا نصحتها الطبيبة بعدم التحرك كثيرا، كونها في أول تجربة حمل، وبمجرد نزول قطرات من الماء الدافئ على ساقيها ذلك دليل على احتمال أن يكون الحمل في وضع حرج، لقد أخبرت زوجها بتعاليم الطبيبة.

حدث ذلك قبل دخولها الشهر السادس من الحمل كانت قد تعرضت لتلك الحالة الحرجة بعد أن تدفقت قطرات من الماء الدافئ رطبت بكينها وساحت على فخذها. تلك القطرات سببت لها مخاوف وقلق جسيم وهي نذير شؤم، ولد لديها رعبا وارتباكا كبيرين قد تذهب والجنين ضحية الإهمال والتجوال.

اهتـزت ثقتهـا بنفسـها، وكـأن كـل مـا بنتـه عبـر أشـهر الحمـل قـد يـذهب سـدى. صـارت تـدعو الله أن يحفـظ لهـا جنينهـا وأن تكمـل مشـوارها. لازمتهـا مشـاعر ضـعف وخـوف سـيطرت علـى المـخ والقلـب، نبـع ذلـك الـوجس مـن خوفهـا مـن أن تخسـر جنينهـا، وعلـى مـا سـتتعرض لـه مـن أزمـة نفسـية وأذى ومـا يلحقهـا مـن مضـاعفات إذا مـا أخفقـت فـي حملهـا. لأن الجنـين فـي عمـر وحجـم قـد يسـبب خطـرا كبيـرا علـى حياتهـا بالإضـافة للخطـورة التـي يتعـرض لهـا الجنـين.... ممـا حـدا بهـا إلـى أن تتصـل بأمهـا وزوجهـا ومراجعـة طبيبتهـا علـى الفـور برفقـة زوجهـا، والتـي بـدورها حقنتهـا بحقنـة تثبـت الجنـين، ونصـحتها بـأن تبقـى مسـتلقية علـى ظهرهـا أطـول فتـرة ممكنـة مـن اليـوم حتـى يـوم الـولادة، وأن لا تقـوم بـأي جهـد يكلفهـا حياتهـا وحيـاة الجنـين، وأن تكـون تحـت مراقبـة الأهـل والـزوج باسـتمرار. تلـك الحالـة دعـت إدارة الهـايم بـأن تقـف إلـى جانبهـا وأن تسـرع فـي إجـراءات تسـكينها فـي سـكن زوجهـا، لـذا لـم تطلـب منهـا الحضـور للهيـام إلا كـل اسـبوع مـرة لتأكيد وجودها في ألمانيا.

تلـك المعلومـات أفادتهـا كثيـرا فـي ترتيـب وتنظـيم أوقاتهـا وزيـادة حرصـها علـى العنايـة بـذاتها وبتغذيـة نفسـها، جعلتهـا تزيـد مـن هـدوئها وتعرفهـا علـى احتياجـات الجنـين حتـى تجنـب ذاتهـا المصـائب، وخاصـة بعـد أن أحسـت براحـة واسـتقرار بعـد انتقالهـا لبيـت زوجهـا. إلا أن تجوالهـا وانبهارهـا بالمدينـة ورغبتهـا بتعـويض فتـرة كامـب شـنيبر أثـر عليهـا واجهـدها فنزلـت تلـك القطـرات لتحـذرها مـن مغبـة اهمـال حملهـا وعـدم الاهتمـام بصحتها...

فـي لايبـزك أفـرغ زوجهـا ذاتـه ووقتـه لمـدارتها ومراعاتهـا، وخاصـة مكـان عملـه لا يبعـد عـن السـكن، أنـه فـي ذات الشـارع، بـذلك خفـف عنهـا المعانـاة النفسـية بمرافقتهـا فـي جولاتهـا الأسـبوعية بأرجـاء المدينـة الجميلـة، كـان يصـحبها إلـى الحـدائق العامـة المنتشـرة علـى ضـفاف البحيـرات والانهـر المنتشـرة فـي لايبـزك، وزيـارة الأمـاكن التاريخيـة خـلال عطلـة نهايـة الأسـبوع، لترتـع بعيـدا عـن زحمـة الاسـواق، لتـريح ذاتهـا فـي جلوسـها وتغييـر أجـواء البيـت الكئيبـة والتـي تصـبح مملـة مـع طـول فتـرة الاسـتلقاء التـي فرضـت عليهـا الوحـدة بانشـغال أمهـا أو عمتهـا التـي تشـعر بهـا أحيانـا والتـي تكبلـت بهـا عنـدما يكـون زوجهـا فـي العمل...

كمـا صـار زوجهـا أنيسـها خـلال مكوثهـا الطويـل فـي السـرير حسـب توصـية طبيبتهـا، بـات يشـغلها بالاحاديـث والقصـص ومشـاهدة بعـض الأفـلام المسـلية التـي فيهـا شـيء مـن الطرافـة والتـاريخ، كمـا صـار يـداعب بطنهـا ويـدلك لهـا جسـدها بـين الفينـة والفينـة ويعـد لهـا طعامهـا....الخ؛ حتـى اسـتطاع أن يـذهب عنهـا مخاوفها ويبدد قلقها.

كـان يعمـل كـل ذلـك بعـد أن يكمـل عملـه فـي المطعـم الـذي هـو مصـدر رزقـه. فـي كثيـر مـن الأحيـان كـان يـتملص مـن العمـل متـى مـا وجـد فرصـة أو متـى مـا رغبـت بـذلك جنـان، أو إذا مـا اتصـلت بـه لأمـرا مهـم، أو إذا مـا وجـدها بحاجـة لتواجـده قربهـا، وخاصـة بعـد أن انـتفخ بطنهـا وتشـوه جسـدها عمـا كانـت عليـه مـن رشـاقة وفتنة.

ففي الحقيقة تشوه الجسد يوصل بعض النسوة إلى حالة من الكآبة إذا ما شغلت بالها بذلك، والكثير منهن يعزفن عن الإنجاب لهذا السبب، على الرغم من حرصهن ورغبتهن بأن يكنَّ أمهات خلال مراحل العمر؛ ألا أنَّ الكثيرات منهنَّ يفقدن هذا التوازن، يخرجن عن الخط العام لدور المرأة الرئيسي في وجودها بالحياة وبالذات اللاتي يعملن في مراكز الشهرة كالمذيعات والفنانات وما شابه ذلك، خوفا على رشاقتهن أو خوفا من منغصات الحمل وما يلي الحمل من تربية ومسؤولية وعناء.

كما أنه مع الكثير من النسوة خلال الأشهر الأخيرة من الحمل ومع انتفاخ الجسد؛ يرتفع منسوب السكري في الدم، والذي يسمى بسكري الحمل، والذي يشكل خطرا على صحة الأم بالذات مع البدينات منهن. وقد يتورم الجسد والوجه، ذلك ما يجهدها ويتعب صحتها ويحدد لها نوع غذائها. هذا السكري ينتهي مع الولادة ولا يشكل مرضا حقيقيا للمرأة.

كانت جنان قد مرت في كل تلك التجارب القاسية، في مرحلة الحمل الأخيرة تحولت بشرة ساقيها إلى حالة مشفقة، انتشرت في بشرة الساقين بقع بيضاء وطفح وردي مغشية بحبيبات بيضاء كالبهاق، أضحت بشرتها مرقعة كبدلة المغاوير العسكرية، بحيث بعض أجزاء الساقين غدت دهنية وغامقة، اوعزت الطبيبة ذلك إلى ارتفاع منسوب السكري في الدم، وربما بسبب صلة القرابة بينها وبين زوجها. بذلك حددت لها

طعام مخصوص يحد من ارتفاع السكر. تلك البقع تهجس بها كجزر صغيرة منتشرة في محيط البشرة وجزء من البطن.

الحالة سببت لها إرباكا وقلقا وخوفا من قدرتها على الأنجاب وتكملة مشوار الحمل، ولكن الطبيبة طمأنتها وقالت لها بأن نسبة 2% من الحوامل يصبن بهذه الحالة نتيجة ارتفاع منسوب السكري أو لرقة بشرتهن، والحالة تصيب ذوات البشرة البيضاء فقط دون السمراوات من النسوة. ربما صبغة الميلانين تحفظ النساء السمر من هذه الحالة المرضية. قد تنتشر تلك البقع في عموم الجسد، وتزول بعد الأنجاب بفترة قصيرة، ونصحتها بشرب الماء وأكل الخضروات والراحة والابتعاد عن القلق وأخذ الحبوب المليئة بالكربوهيدرات والحبوب الملينة لتساعدها في تفريغ فضلاتها، لربما تلك الحالة هي نفسية أكثر من أن تكون مرضية.

استمرت جنان بالالتزام بنصح الطبيبة وتحمل العناء على مضض، أما بالنسبة للجنين؛ ففي نهاية المرحلة الثانية من نموه تكتمل أجزاء الجسد تماما، تبدأ العينان بالتفتُّح شيئاً فشيئاً، تكتمل شبكة الأعصاب المُتَّصلة بالأُذنَين، في هذه المرحلة يستطيع أن يبتلع القليل من رشفاتٍ الماء عبر محاولاته التنفسيَّة البدائيّة، وتكون يداه تنعمان بالحسّ والاستكشاف، وقد يصل طوله في نهاية هذه الفترة إلى طول شبر تقريبا أو يزيد قليلا، بينما يصل وزنه إلى ما يُقارب 800 غم إلى 1000غرام كما اسلفنا سابقا.

قبل المرحلة الثانية كانت تنشغل بجنينها دون إرادة منها، حينها كانت تهجس بطيفه يدور في فلكها متى ما ضاقت عليها الأجواء في وحدتها، كانت تشعر به يحاورها ويطمانها على ذاته. ذلك الطيف كان يقترب منها بعد كل فجة تشعر بها أو قلق ينغص حياتها ويدور في فلكها، بعد كل عناء نفسي تشهق به... وما أن انتقلت لكنف زوجها؛ أنقطع ذلك السبيل عنها والذي كان يطمئنها. ذلك المد الروحي والانسجام الفكري الذي كان ينقلها من عالم الحقيقة لعالم الخيال، لحالة الاهتزاز والشك الفكري والنفسي بذاتها وبالطبيعة التي تعرفها، كانت تنقلها إلى حالة الاستقراء والاستقرار والهدوء واليقين التام والإيمان بالله العميقة.

مع دخولها المرحلة الثالثة من الحمل، صارت تشعر بوجوده وبرسائله بطريقة أخرى؛ وذلك من خلال حركاته التي يرفس بها جدار الرحم، وكأنه بذلك يبعث لها رسائل اطمئنان على صحته وتواجده قربها. هكذا تغيرت الأمور بين الفترات فانتقلت من حالة الهلوسة التي كانت تعتريها لحالة الإحساس بالوجود والحركة، هكذا رقت الحياة من حالة خيال وتأمل لحالة انسجام مادية ملموسة. حيث تنشغل المرأة بمراحل الحمل بحيث في كل شهر تهجس بأن هناك شيئا جديدا يطرأ عليها باستمرار يجدد حيويتها وحياتها، يصبرها على ما هي عليه، يجعلها تتمسك باليقين أكثر وأكثر.

كانت إدارة الهايم قد طلبت من إدارة الهجرة نقلها إلى جانب زوجها على ضوء التقرير الطبي، الذي أكد على ضرورة أن

تحـاط باهتمـام خـاص يجنبهـا عُقد الحمـل والخطـورة، تجنبـا لأي طـارئ عرضـي يعيـق حياتهـا وحيـاة الجنـين، بـذلك تـم نقلهـا نهائيـا لسـكن زوجهـا، لتعـيش فـي كنـف زوجهـا وأهـل زوجهـا دون مراجعـة الهـايم، أي فكـت ارتباطهـا بهـم تمامـا. فيمـا بقيـت تنتظـر منحهـا الإقامـة مـن قبـل دائـرة الهجـرة لتـتمكن مـن تسـجيل زواجهـا في دوائر الدولة.

بحركاتـه وتقلباتـه داخـل الـرحم كأنـه كـان يبعـث لهـا رسـالة اطمئنـان وسـلام، بحركاتـه كأنـه يحـدثها، يكلمهـا بمـدى تقـدم عمـره وتطـور بنـاء جسده، يشـرح لهـا مراحـل تطـور نمـوه وزيـادة وزنـه وحجمـه، وكأنـه يطالبهـا بزيـادة الاهتمـام والتـروي فـي مشـاوير حياتهـا والاعتنـاء بـذاتها وباختيـار نوعيـة غـذائها واسـتمرار هدوؤها وتمسكها بإرشادات الطبيبة.

فعـلا بتلـك الحركـات كـان يبعـث لهـا رسـائل اطمئنـان، كأنـه يكلمهـا ويسـمعها حاجاتـه، فـالكلام أحيانـا يكـون بـالهمس أو بالإشـارة أو بالحركـات اللاإراديـة، أو مـن افتعـال فعـل مـا، أو مـن تـرددات صـوت تسـمعه عبـر مجسـات الـروح....الخ. هكـذا تفعـل الحشـرات والحيوانـات فـي تحاورهـا وتفاعلهـا وتفاهماتهـا مـع بعضها.

مـا أن دخلـت فـي المرحلـة الثّالثـة مـن الحمـل، والتـي تبـدأ مبـدئيا بعـد أن تكتمـل أجـزاء الجنـين بدخولـه شـهره السـادس مـن العمـر؛ حتـى تهجـس بأنهـا قـد قطعـت مشـوارها الكبيـر وتهـيء ذاتهـا لتكـون أم عـن قريـب. فـي هـذه المرحلـة تسـعى لشـراء مسـتلزمات الوليـد مـن حلـي ولـبس وبـاودر الجسـد وعطـور، تهـيء ذاتهـا

لاستقبال ضيفها العزيز. كما من خلال السونار تعرف نوع الجنين إن كان ذكرا أم أنثى، وعلى ضوء ذلك يكون تصرفها في شراء حاجاته الضرورية قبل المجيء.

هكذا يكون شغفها باهتمامها به وتهيئة نفسها لاستقباله بروح فرحة حتى لحظة الولادة. وكانت قد أشترت ثلاث طقوم قطنية بالوان مختلفة، وكفوف لإلا يخربش وجهه بأظافره، كما هيئت له عربة وحاضنة وعلب رضاعة (مميات) الحليب، قلانسُ وطاقيات للرأس لتجنبه البرد.

خلال الأسابيع من الثّامن والعشرين وحتّى نهاية الثاني والثّلاثين تغطّي جسد الجنينَ المكتملَ خِلقة؛ طبقةٌ دهنيّةٌ بيضاء تُسمَّى الطّلاء، هذه الطّبقة تحمي جلد الجنين من الوسط المحيط به داخل رحم الأمّ، وسرعان ما تتلاشى هذه الطّبقة مع الطّبقة الوبريّة التي تعتلي جلدَه مع قرب فترة الولادة أو بعد الولادة. وفي نهاية هذه الفترة يجهّز الرحم الجنين لمرحلة الولادة، فينقلب اتّجاه رأس الجنين إلى الأسفل شيئاً فشيئاً مع نزول الجنين إلى منطقة الحوض، بذلك تشعر المرأة بثقل اسفل البطن مما يولد لها ضغطا على المثانة والحالب، حينها يكون الجنين مكتملا دماغه ومتصلبة عظامه.

وفي هذه الفترة تكون أعضاء الجنين جميعها تعمل بشكل طبيعي عدا الرّئتَين؛ إذ تبدأ عملها ويتطور نموُّها وتمايُزها بعد الولادة مباشرة، لذا يكون من عمل القابلة أو الطبيب أن يهز الطفل وقد تصفعه على ظهر ليتألم حتى يبكي، ببكائه تتفتح

مجريات الرئة لتعمل بشكل طبيعي من خلال الشهيق والزفير، فينتظم عملها رويدا رويدا.

وفي نهاية المرحلة يتراوح وزن الجنين بين ثلاثة إلى ثلاثة ونصف كغم، وقد يختلف الأمر بين الذّكور والإناث قليلاً. وفي الاسابيع الأخيرة من عمر الجنين بين الأسبوع التاسع والثلاثون والثاني والاربعون منه تتم عملية ولادة الجنين.

تلك المعلومات الدقيقة التي تعرفت عليها؛ جعلتها أكثر أيمانا واتصالا بالله العلي العظيم، جعلتها تتصفح القرآن وترطن لتلاواته من خلال التلفاز والموبايل والقراءة. كانت قد قرأت تفسيرا مفصلا لمراحل الجنين وتكوينه في سورة المؤمنون في قول تعالى:...

- (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ*ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون: 12-14].

بعد أن أكملت الآية نزلت على خدها دمعة عرفان بعظمة الخالق وشكران لرعايته، وجدت ذاتها خلال رحلة الحمل أنها مسيرة دون إرادة، أو أن الله كان يساعدها في تجاوز منغصات الحمل، بحيث يخلق لها فرص التغلب على مصاعب الحمل، جعلها تدخل في عناوين الحمل كشريكة وليس كضيفة، دربت نفسها من خلال تطلعاتها وتوجيهات طبيبتها.

ففي البداية كان الله قد جند لها هنادي لتيسر لها أمرها، التي بدورها سندتها ووقفت إلى جانبها وعرفتها بأميمة وأخريات من الفتيات والنسوة ذوات الشأن، واللاتي لم يكنّ أقل شأنا من هنادي في عرفانهن ومداراتهن لها، إلى جانب بعض النسوة اللاتي قضين معها فترة سجن الكامب وهن يخففن عليها عناء الوحدة كميرفت ودونكا.

بعد أن انتقلت إلى سكن المحطة في هايم لايبزك قرب زوجها؛ كان قد رفق بها مدير الهايم، سمح لها بأن تذهب مع زوجها لبيته، طلب منها مراجعة إدارة (الهايم) السكن كل ثلاثة أيام لتتابع علاقتها بإدارة السوشيال (الدائرة الاجتماعية) ودائرة الهجرة، ثم هيأت لها دائرة الهجرة سكنا لتسمح لها بالمكوث مع زوجها الذي رفع عنها ضغوطات الحياة التي صاحبتها. هكذا سهل أمرها مع التفاف العائلة حولها.

تبدأ مرحلة النطفة مع جنوح حيوان منوي واحد من الذكر في إخصاب بويضة أنثوية، النطفة هي عملية تفاعل واندماج ماء الرجل بماء الأنثى. ثم تأتي مرحلة العلقة حين يتعلق الجنين بسقف الرحم ليجد له مكانا ثابتا حتى ينشأ، والعلقة تأتي بعد عملية الإخصاب، بعد أن تسبر النطفة المخصبة طريقها في رحلة تستمر من عشرة أيام إلى خمسة عشرة يوما داخل قناة فالوب؛ حتى تصل إلى جوف الرحم فتتحول لعلقة تخرج منها استطالات خلوية تنغمس في جدار الرحم ليتمكن الجنين من الاستقرار في الرحم وامتصاص غذائه من دم الأم عن طريق المشيمة.

مرحلة المضغة تبدأ من الأسبوع الثالث للحمل، تحدثت عنها الآيات الكريمة وهي مرحلة مضغة مخلقة وغير المخلقة، حيث تظهر صورة الجنين في صورة شبيهة بمضغة الطعام تستمر في التغذية والانقسام حتى تصبح مضغة مخلقة، بمعنى تبدأ في بروز شكل الأعضاء، وتتشكل في تلك المرحلة الأعصاب والغدد والحواس من سمع وبصر.

مرحلة تكوين العظام واللحم تستمر مع تطور مراحل الجنين حتى الوصول إلى نهاية الشهر الأول وبداية الشهر الرابع حيث تبدأ مرحلة خلق العظام التي يتكون منها جسد الجنين، ثمّ تكسى تلك العظام باللحم والعضلات، ثمّ ينشئه الله خلقاً آخر بعد نفخ الروح في الجسد. ومعنى الخلق الآخر، أي المختلف عن مراحله الأولية، حيث تتميز الأعضاء في تلك المرحلة تميزاً واضحاً، ويكتمل خلق الإنسان.

خلال مرحلة الحمل وبالذات بعد أن ارتحلت من شنيبر إلى لايبزك، واستقرت في بيت زوجها، صارت تكتب مذكراتها الاسبوعية، تدون توصيات وارشادات الطبيبة. زاد احساسها بذاتها وسلامة الجنين باتباع ملاحظات الطبيبة ونصائحها والأدوية التي تتناولها، كما دونت رحلاتها المكوكية التي قامت بها برفقة زوجها للأماكن السياحية والترفيهية من خلال مشاهداتها للطبيعة والأماكن الطبيعة والتراثية التاريخية المنتشرة في مدينة لايبزك.. وبعد نهاية فترة الحمل وجدت ذاتها بأنها أصبح في مخزونها مذكرة كاملة من معلومات ونصح مفيدة وما صادفت من طرائف وعقد وحلول... الخ من

أحداث وأزمات إلى جانب ما خزنت من أحاديث شيقة وحزينة شهدتها في الكامب وبعده، تُذكرُها بما حدث معها، وكيف تعاملت مع الحدث في حينه وكيف كان من المفروض أن تتعامل معه ... الخ من قصص.

أصبح عندها خزين وافر قررت أن تطبعه في كتاب اسمته (**انا حامل**) ليبقى خزينا لها وليكن سندا لتجارب قادمة لها وللنساء الحوامل، خزين تذكر أبنها القادم بما جرى لها خلال فترة الحمل وكم عانت وتحملت من صعوبات بحمله حتى ولادته. وليكن سندا لغيرها من الحوامل الجدد، يستفدنَّ منه النساء بشكل عام والحوامل بشكل خاص.

خلال مراجعاتها الطبيبة كانت تُعرضها لفحص دقيق بجهاز السونار أو الأبيكو كما يسميه البعض– وكانت الطبيبة تركز على الامور التالية: –

حجم وموقع الطفل....

نبض قلب الطفل....

موقع المشيمة في الرحم....

كمية السائل الأمنيوسي.....

عدد أسابيع الحمل؟.....

نمو الطفل ومعرفة جنسه.....

هـذه المعلومـات تجعـل الطبيبـة تطمـأن علـى صـحة الحامـل والجنـين معـا، بـذات الوقـت تكـون الحامـل قـد عرفـت مـا عليهـا فعله لتتجنب الأخطاء الفادحة التي تغفل عنها.

كمـا عرفـت جنـان الفـرق بـين الـولادة الطبيعيـة والاصـطناعية، أو العمليـة القيصـرية كمـا تسـمى، فهمـت بـأن الـولادة الطبيعيـة هـي إنجـاب طفـلا طبيعيـاً عـن طريـق المهبـل بعـد مـرور 37 - 42 اسـبوعاً مـن الحمـل دون اسـتخدام العقـاقير الدوائيـة المحفـزة للمخـاض، أو اللجـوء لبضـع السـلى، السـائل السـلوي أو الأمنيـوتي أو الأمينوسـي أو الصـاء أو الصـاءة (بالإنجليزيـة: Amniotic fluid) هـو سـائل غـذائي ويُـوفر الحمايـة للجنـين يُوجـد داخـل الكـيس الأمنيـوتي (شـق الغشـاء الأمنيـوتي المحـيط بـالجنين) مـع بضـع عجـان الفـرج، أو التخـدير الموضـعي أو اسـتخدام محفـزات كـإبرة الظهـر التـي يشـيع اسـتخدامه خـلال عمليـات المخـاض والـولادة بهـدف تخفيـف حـدة الألـم فـي المنطقـة السـفلية مـن الظهـر ..الـخ مـن عمليـات تتعـرض لهـا الحامـل كلهـا محـذورة وخطـرة. وقـد وجـدت بـأن الـولادة الطبيعيـة هـي أرحـم بكثيـر مـن العمليـة القيصـرية - فـتح الـبطن – وأضـمن لحيـاة الطفـل وحياتهـا المقبلـة، النسـاء الاتـي يـرغبن العمليـة القيصـرية هـو مـن أجـل الحفـاظ علـى المهبـل مـن التشـوه. وهـذا خطـأ حيـث المهبـل يسـتعيد عافيتـه بعـد الولادة بنسبة 75%..

العمليـة القيصـرية فيهـا مخـاطر علـى صـحة الأم أكبـر بكثيـر مـن أن تنجـب بطريقـة الـولادة الطبيعيـة، وقـد تتعـرض خلالهـا للمـوت بسـبب حقـن البـنج الزائـد أو تعرضـها للنـزف المميـت أو إلـى خطـأ

ما من قبل الطبيبة يؤدي إلى هلاك الأم والجنين معا، أو إلى هلاك الأم كما حصل مع الشابة نورة بسبب خطأ طبيبة التي لم تعد تسيطر على النزف. هذا إضافة إلى أنها ستأخذ فترة أشهر طويلة على الاستشفاء لتعود لحالتها الطبيعية.

الولادة الطبيعية تساعد الأم على إنجاب طفل بصحة جيدة، تسرع عملية استشفاء الأم بعد فترة أربعين يوم فقط، وهي مرحلة النفاس، تعود طبيعية في ممارسة حياتها، كما أن الولادة الطبيعية تحتاج إلى المحافظة على اللياقة البدنية والتغذية الجيدة مع عدم الافراط في الأكل والسمنة، وإلى الهدوء وحالة نفسية مستقرة، بعيدا عن المشاكل الحياتية والاجتماعية والاسرية والمادية التي تأزم نفسية الأم.

احاطت ذاتها بتلك المعلومات التي جنبتها المجازفة والرعونة بسلك العملية القيصرية. كانت أميمة في أحدى مكالماتها نصحتها بالعملية القيصرية حفاظا على فرجها من التشوه، إلا أن الطبيبة نصحتها بالولادة الطبيعية.

لقد شرحت لها فترة "النفاس"، هي الفترة التي تبدأ من لحظة انتهاء عملية الولادة وحتى ستة أسابيع بعدها. في هذه الفترة تعود أجهزة الجسم تنكمش الى وضعها الطبيعي لما قبل الحمل. خلال هذه الفترة من الممكن أن تشعر الأم ببعض التقلبات النفسية والحالة المزاجية، نتيجة التعب وصعوبات التعامل مع مبنى الجسم المتغير وغيرها وما لحقها من عقد الحمل، لكنها فترة بناء جديدة لجسد الام، وبعدها تعود لحالتها الطبيعية لفترة ما قبل الحمل.... تعتبر فترة النفاس أشبه بالحمى التي تصيب

الجسد، وهي فترة استشفاء للمرأة من مخلفات الحمل وتشوه الجسد. وعلى الزوج أن يكون لطيفا مع زوجته في هذه المرحلة وأن يتحمل منغصاتها النفسية.

كانت جنان قد تجنبت كل تعقيدات هذه العقد بحكم دلالها من قبل أهلها وزوجها، ذلك ما ساعدها على أن تسعى خلف ولادة طبيعية دون التفكير بعقد العملية القيصرية التي لا تحمد عقبها..

كانت قد هجست قبل الولادة بأسبوعين باختلاف شكل البطن وعدم تناسق حركة الجنين، إذ يبدأ الجنين في تلك المرحلة بالنزول لمنطقة الحوض. كما هجست بارتخاء المفاصل، لأن هرمون ريلاكسين يعمل على ارتخاء وتطرية الأربطة والمفاصل في منطقة الحوض. بذلك تكثر حاجتها إلى التبول، لأن رأس الجنين يضغط على الحالب والمثانة، فتحدث انقباضات تشعرها بالتبول.

في تلك المرحلة كان أحمد قد تفرغ لمداراتها، بحيث صار يدلك جسدها ويدهن افخاذها كل يوم بزيت الزيتون ويعرض ساقيها للدلك حتى تشعر بعافيتها وتستعيد قوتها وطاقتها على التحمل، كان هذا منهجه كل ليلة قبل النوم وأحيانا بعد فترة الظهيرة، ذلك ما جعلها تكون أكثر جاهزية للحظة الولادة.

وأكثر ما كان يخيفها ويؤلمها هو شعورها بألم في أسفل الظهر، لأن المفاصل والعضلات تبدأ بالتمدد تجهيزاً للولادة، كما ترتخي عضلات المستقيم عندما ينزل الجنين لمنطقة

الحـوض، فـي هـذه الفتـرة تشـعر المـرأة بضـيق فـي التـنفس وبالذات قبل الولادة بأسبوعين....

فـي الفتـرة الأخيـرة زادت شـهيتها للأكـل، إذ بنـزول الجنـين يخـف الضـغط علـى المعـدة وتخـف حرقتهـا أيضـا، فـي تلـك الفتـرة تسـتطيع الحامـل تنـاول الطعـام بحريـة أكبـر ممـا سـبق، صـارت تلهـم كـل مـا تـراه العـين دون إرادة، لكـن زوجهـا منعهـا وحـذرها من فرط السمنة وصعوبة الولادة.

بالضـافة إلـى زوجهـا أحمـد وأمهـا؛ كانـت حماتهـا أيضـا قـد انشـغلت بهـا كثيـرا فـي الحـافظ علـى روحيتهـا ونفسـيتها مـن الشـد والقلـق والهـم، وذلـك ببـث روح المـرح والفـرح فـي أجـواء البيـت، أحيانـا بالغنـاء والـرقص، وأحيانـا بالطرفـة والنكتـة والقصـص التـي تحفظهـا منـذ صـغرها، تلـك الأجـواء رغبتهـا بالألفـة العائليـة وشجعتها على تحمل أعباء الحمل.

خـلال اطمئنانهـا علـى صـحتها، أخبرتهـا أميمـة فـي مكالمتهـا الأخيـرة بخطبتهـا مـن قبـل الشـاب مـراد، كانـت قـد تعرفـت عليـه خـلال العمـل، فهـو مـن اصـول مغربيـة يعمـل فـي شـركة أمـزون مـن ثـلاث سـنوات مضـت. وقـد اتفقـت معـه علـى الـزواج مـع بدايـة السـنة الجديـدة، لتأخـذ فتـرة كافيـة مـن الـزمن بصـقل حياتهـا والتعـرف عليـه وعـن طبائعـه بشـكل جيـد، قبـل أن تقـرر وتغـوص فـي معمعـة الـزواج. أفرحهـا ذلـك واسـعدها وتمنـت لهـا الموفقيـة، ووعدتها بحضور زفافها.

كـان أحمـد مـدركا لمـا هـي فيـه، حيـث فتـرة الحمـل فتـرة حساسـة للمـرأة، تتحـول بهـا المـرأة لطفلـة، لمجنونـة، تبحـث عـن مـن يؤانسـها ويصـاحبها ويسـليها، لينسـيها هـم الحمـل وعقـدة تشـوه الجسد وما شابه ذلك.

وجـد بأنهـا تضـطرب نفسـيتها وشـهيتها للأكـل، تتبـدل مـن لحظـة لأخـرى، لـذلك زاد مـن الاهتمـام بهـا ومراعاتهـا، كـان واجبـا عليـه وعلـى الأهـل احتضـانها وتخفيـف الضـغط النفسـي والبـدني عنهـا، لرفـع هم وعنـاء الـولادة عـن كاهلهـا، وبالتـالي يـؤدي ذلـك إلـى نمـو الجنـين بشـكل صـحي وطبيعـي، فالراحـة النفسـية تسـهل عمليـة الولادة.

كـان أحمـد قـد تـرجم حبـه ووفائـه لجنـان بشـكل متميـز، وبالـذات بعـد أن قربـت عمليـة الـولادة، تلـك الفتـرة الحرجـة والتـي تحتـاج بهـا الحامـل إلـى مسـند وفيـر يسـندها، إلـى رعايـة وحنـان ومحبـة ووفـاء مـن قبـل الـزوج. عليـه أن يكـون قريبـا جـدا منهـا، يلتصـق بهـا؛ حتـى تنهـي فتـرة النفـاس بعـد الـولادة، بـذلك يكـون قـد رفـع عنهـا آلامهـا وعنائهـا، ليكـون جـزء مـن قـدرها خـلال مراحـل الحياة الطويلة ويكون خير معين لها لتثبت جذور الأسرة.

13- اللحظات الحاسمة

في يوم **20\07\2021** وخلال مراجعتها الدورية لطبيبتها في المشفى لغرض الاطمئنان على صحة الجنين وصحتها؛ كانت قد حجزتها الطبيبة في غرفة الممرضات، طلبت منها عدم مغادرة المشفى خوفا عليها من المحظور لدنو موعد ولادتها. قالت لها بالحرف الواحد:....

- انتِ على وشك الولادة اليوم، في اللحظات الأخيرة من الحمل، خروجك من المشفى خطر عليكِ وقد يضر بصحتك وحياتك.
- قولي غيرها يا دكتورة! أنا لا أشعر بأي ألم، جئت أطمأن على صحتي ووضع الجنين.
- الجنين نازل في محله، واحتمال ولادتك تحصل خلال ساعات، ولديك اتساع بسيط في عنق الرحم، سيزداد أتساعا مع مرور الزمن، عليك إخْبار زوجك والمقربين منكِ ليأتوا بتقديم المساندة والمساعدة لكِ، انتظري في غرفة الانتظار، وإذا ما حصل أي تطور؛ بلغي الممرضات أو الاستعلامات بالحال.

تلك صدمة أهبطتها، أودعت في نفسها خيفة، جردتها من هدوءها وطبيعتها، أدخلتها في معمعة القلق مع الذات، كانت قد ذهبت للمشفى دون مرافق يعينها، كان ذلك في تمام الساعة العاشرة صباحا...ما أن صعقتها طبيبتها باحتمال الولادة المبكرة؛ حتى دبت المخاوف تسري في عروقها، رعشة

أصابت اطرافها، حيرة جردتها من ثباتها، الرهبة بدت تسري في أحشائها كالنار في الهشيم، هجست ذاتها بحاجة لمسند يسندها، أنها لحظات الحسم، زرعت شتلات الألم في كل مفصل من مفاصل الجسد.

أخذت هاتفها لتتصل بزوجها...

مع لحظة أخبارها بالحقيقة، تغير شكلها ولونها ووضعها ومشاعرها، وكأنَّ شلال وجس صب غيظه على قفاها، هجستْ بتنمل يدغدغ قدميها مع ألسن كلمات الطبيبة الحادة، أضحت بذاتها لا تستطيع الوقوف على قدميها، فقع لونها مع نغمة الكلمات، أنها المعركة الأخيرة من فصل الحمل، أنها المواجهة الكبرى التي طالما أرعبتها وجزعتها منذ لحظة إدراكها حقيقة حملها.

لم يكن في بالها شيء من ذلك، كانت قد ذهبت بسجيتها وتطلعها، توجهت بقدميها للمراجعة الدورية لوضع النقط على الحروف، لملاحظة سلامة الحمل ووضع الجنين دون مرافق يعينها، لذا كانت قد استحمت بشكل جيد بالماء الدافئ، رخت عضلاتها في جوف البانيو بالماء والصابون مدة نصف ساعة على أقل تقدير. ثم زكت ملابسها بأجود وأنفح العطور، وذلك بعد أن ارتدت أشيك ما لديها من لبس يلائم المرأة الحامل، كانت قد ارتدت مريولا أسودا من قماش مخملي مع قميص وردي وربطة رأس وردية تحجبت بها، وحذاء مسطح اسود اللون، لظنها بأن الولادة لازالت على بعد أيام أو اسابيع.

ومـا أن فحصـتها طبيبتهـا حتـى صـعقتها بخبـر قـرب تشـريف وليدها صفاء، لتقول لها:...

- أنـت علـى وشـك الـولادة! لـن أسـمح لـك بـالخروج مـن المشفى، قد تتعرض حياتك للخطر....

كأنَّهـا صـعقتها بعصـف كهربـائي، هاجمتهـا بموجـة خـوف لامسـت قلبهـا، جعلتهـا تـرتعش، تهتـز مـن الـداخل، ارتعـدت مـن ذلـك البعبـع الـذي أودى بعمتهـا وجارتهـا نـوره، فأرعـب ذاتهـا.. ارتعبـت منـذ لحظـة شـعورها بنـزق الحمـل يسـري فـي عروقهـا، حسـبت لهـا ألـف حسـاب، هـا قـد جـاء يـوم الحسـم، مـا مـن حيلـة لتجنبهـا اللقـاء قـط. لحظـات حرجـة تصـاحبها كلمـا تـذكر موعـد الـولادة، تلـك المخـاوف زرعـت فـي ظنهـا رهبـة عـدم قـدرتها علـى تجـاوز سـاعة الحسـم، وفـي كـل يـوم كانـت تـدعوا الله أن يرفـأ بهـا وينجيهـا مـن شـدة المنازلـة، لحظـة الـولادة هـي ولادة جديـدة لـلأم والجنـين معـا، وقـد لا تتوفـق بهـا، قـد تكـون هـذه الرحلـة هـيَّ الأخيـرة فـي مشـوار حياتهـا كـ نـوره، ولكـن نـوره ذهبـت ضـحية عمليـة قيصـرية ونـزف، هـي مـن رغبـت بـذلك، فـي سـبيل الحفـاظ على فرجها من التشوه.

علـى أيـة حـال، الصـدمة التـي هزتهـا جعلتهـا تشـكي حالهـا للطبيبـة حيث قالت لها:...

- دكتورة أني خائفة.....
- لا تجزعـي وضـعك سـليم جـدا، يجـب أن تتحللـي بـالعزم والشـجاعة والثبـات والإيمـان بـالله، أنهـا سـاعة تزكيـة

الروح، سأكون قربك ولن أتخلى عنك، والموت والحياة بيد الله.

شجعتها، أعطتها دفقة من الثقة بالنفس، كل النساء تلد وتمضي حياتها بثقة وعطاء، ما حصل لعمتها كان خطأ تقدير طبيبة، وهو ذات الخطأ الذي حصل مع نوره، ستنجو من الكرب بإذنه تعالى، ستربي طفلها أحسن تربية، أنها ساعة اجتياز امتحانها الصعب.

ذلك ما جب خاطرها، جعلها تهذي وهي تتصل بزوجها وأمها وحماتها اللاتي حضرن مع أحمد للمشفى، حضروا جميعا مسرعين، خوفا من تطور الحالة وانعكاساتها عليها. كان زوجها قد استفسر عن وضعها من الممرضات، طمأنه على وضعها، عرف تقدير فترة ولادتها عن لسان أحدى الممرضات اللاتي رافقن الطبيبة حين كشفت عليها، فقال لها زوجها:...

- أمامك فترة أربعة إلى خمسة ساعات أو أكثر حتى يشرفنا صفاء، ماذا تريدي أن أجلب لك من البيت؟
- أحمد أني مرتبكة، لا أعرف احتياجاتي، أهجس بنفسي عطشة وخائفة، أسأل أمي وأمك في ذلك.
- حسنا أطماني، سأكون إلى جانبك، سيدخلونك إلى غرفة الانتظار، هذا يعني تحتاجين لزمن طويل، سأذهب وأعود بسرعة، سأكون حاضرا معك في غرفة الولادة.

بعد أن طمأنها في حديثه؛ تركها في المشفى مع أمه وحماته، ذهب للبيت مباشرة ليجلب لها الأوعية اللازمة، بطانية، مناشف، ألبسة داخلية قطنية، دشداشة قطنية، زوج من النعل، أتك، محارم داخلية... وما إلى ذلك كانت أمه قد اشارت بها عليه، كما جلب معه صندوق مياه معدنية وكارتون مناديل ورقية.

أما جنان فلم يتغير وضعها، بقيت خائفة من الموقف مهزوزة الثقة بنفسها، منكمشة على ذاتها، خاملة، غارقة في بحر الوساوس، تكلم ذاتها، تشكمها العقد، غائرة في نظراتها في خيال أخذها بعيدا عن الحضور؛ خاصة بعد أن تحولت لغرفة الانتظار إلى جانب ثلاثة حوامل ينتظرن أدوارهن في الولادة، ثلاث أسرة مشغولة بحوامل من جنسيات مختلفة، أحدى الحوامل بشرتها تدل على جنسيتها الأفريقية، وأخرى من جنوب شرق آسيا، والثالثة ألمانية الجنسية..

كانت التي من جنوب شرق آسيا منهكة، ضعيفة البنية، ذات وجه معصفر، شاحب كأوراق الخريف، خائفة جدا من ساعة الولادة. كانت الطبيبة قد أخبرتها بأن الولادة الطبيعية بالنسبة لها عسيرة، غير ممكنة، قد تخضع لعملية قيصرية، وذلك بعد أن بينت الكشوفات عقدة الخلل في تكوينها الجسدي، لضعف الجسد، أو لأمر طبي غير معروف، ذلك ما استنتجته الطبيبة من خلال فحوصاتها الأولية. لذا كانت مضطربة، مهزوزة، خائفة، يبدو أنها مصابة بمرض الأنيميا لنقص كمية الحديد في الدم.

أمـا الألمانيـة والأفريقيـة فكانتـا فـي حالـة جسـدية طبيعيـة، يبـدو أنهـن قـد مـررن بتجـارب حملٍ سـابقة، يبـدو أن الأفريقيـة أنجـزت مهمتهـا بسـرعة مذهلـة، فهـيَّ لـمْ تـدم فـي غرفـة الـولادة سـوى فتـرة وجيـزة، مـا أن دخلـت غرفـة الـولادة؛ حتـى خرجـت منهـا بعـد فتـرة زمنيـة لا تتجـاوز السـاعة، وفـي حضـنها يرتـع وليـدها. كـنَّ كُـلٍ منهن برفقة أزواجهن فقط.

أمـا جنـان كانـت الهلوسـة قـد سـيطرت علـى ذاتهـا الداخليـة، بقيـت تحامـل علـى ذاتهـا، تـردد مـع نفسـها عبـارة: كيـف سـألد؟ هـل وصـلت للحظـة الأخيـرة؟ هـل حـان موعـد ولادتـي، هـل سـأتجاوز العقـدة وأتحمـل آلام الطلـق، أنهـا أصـعب مرحلـة فـي حيـاة الأم، آلام الطلق ليس مثلها آلام، هكذا يصفنّهَ النسوة.

أهجـس بصـفاء أسـتعجل الحضـور، لازلـتُ لـم أكمـل فتـرة الحمـل، لازلـت فـي أسـبوع التاسـع والثلاثـين أو الأربعـين، هـذا يعنـي أحتـاج لأسـبوعين علـى أقـل تقـدير لأتمـم فتـرة الحمـل. لكـن الطبيبـة تقـول حانـت فتـرة ولادتـك!! هـي أدرى منـي، كـل يـوم تمـر عليهـا عشرات الحوامل....

إذا دخلـت فـي سـاعة الجـد، علـيَّ أن أكـون ثابتـة العـزم لأتجـاوز المحنـة، علـيَّ أن لا أضـعف، الأمـر يتوقـف علـى ذاتـي وقـدرتي وتحملـي وصـبري. صـارت تسـبحل وتحمـدل وتكبـر مـع ذاتهـا، تـدعو الله أن ينجيهـا مـن كربهـا.. سـبحان الله والحمـد لله ولا إلـه ألا الله والله وأكبر، ربي نجني من هذا الكرب، دعني أحظى بأبني.

الخوف والاضطراب خطف لون وجهها، جعلها تذوب بلون الزعفران، خانسة في ركن الانتظار، هكذا وجدها زوجها إلى جانب الحوامل في غرفة الانتظار. بدخوله عليها كان قد أشرقت وجهها، كأنها وجدت بحضوره سقف الأمان، منحها قوة إضافية على تجاوز تحدي الموقف رغم وجود أمها وحماتها إلى جانبها، إلا أن وقع الزوج عليها أكبر، وكأنه هو الذي سيشترك معها في الولادة، يجوز له ذلك إذا أراد.

بعد استراحة قصيرة أخذ بيدها يساعدها على المشي داخل الغرفة وفي ممشى ممر المشفى القريب من غرفتها، كرر ذلك بأوقات متقطعة مع مساعدة أمه وحماته حسب توصية الممرضة، ذلك ما يساعدها على توسع عنق الرحم، حيث بعد كل ربع ساعة من المشي تأخذ فترة استراحة خمسة دقائق على المقاعد المنتشرة، حتى تعود لها طاقتها بعد أن تهجس بعضلات قدميها تغور وتتلاش تحت أثر الفجعة المكبلة بها. بين فترة وأخرى تجلس على المقاعد المنتشرة، حتى تعاود الكرة مرة أخرى بعد أن تسترجع قواها. مرة تستند في مشييها على زوجها ومرة على امها وحماتها، بينما خلال الاستراحة كانت أمها تدلك لها ساقيها وكتفيها لتمتص عن جسدها الفتور الذي يصيب عضلاتها نتيجة الإرهاق والرهبة.

بعد أن أعلمتها الطبيبة باحتمالية ولادتها الآنية، أنقطع فكرها عن العالم بأسره، فلم تعد تتذكر سوى زوجها وأمها فقط، لذا استنجدت بهما مباشرة، هجست بأن الوصل بينها وبين الحياة

يمر عبر هذان الشخصان، هما فقط من سيرشدها ويطمئنها ويبث الروح في جسدها.

كان الخوف قد سيطر على ذهنها، أغلق أبواب الأمل والتفاؤل، الهم جعلها تنكمش على ذاتها كورق نايلون متأثرة بحرارة الخوف الكامنة في داخلها، أنساها الدين والدنيا، جردها من قواها العقلية والفكرية، جعلها لا تفكر سوى بساعة الحسم القادمة، سوى بالحظة الآنية القادمة.

الرعب جعلها تتخيل ما سيحصل لها، ما سيستجد من تدهور في صحتها، خوفها مبني على فظاعة آلام الطلق، خوفا من أن تخسر ذاتها أو تخسر جنينها، ماذا لو فشلت في ولادتها؟ كيف ستواجه منغصات الحياة بعدها؟ كيف ستكون إذا ما فقدت توازنها وسقطت في مطبات الزمن والعقد؟ الخوف يكاد يتدفق من جوفها كالدمع الذي يتدفق من مقلتيها، يتوعدها من خلف جدار وهمي قابع في طريقها، تكاد لا تراه سوى بإحساسها، أنها المنازلة الكبرى والأشد خطورة في حياتها. بدأت تسمع قبقبة أحشائها.

متى يبدأ الطلق وكم سيستمر؟ ذلك ما لا تدرك وقته، لكنها بعد مرور ساعتين من الزمن أحست بنوبات ألم بسيطة ضربت خصرها كموجات بحر هادئة، كانت لا تميز بين درجات الطلق والألم المصاحب لها، دخلت المشفى في العاشرة صباحا، وجاءها الطلق الملموس بعد بضع ساعات من دخولها المشفى. فلم تدخل غرفة الولادة إلا بعد الرابعة عصرا، حينها

هجست بأن النِزال قد ابتدأ مشوار جولاته، وأن ساعة الحسم قربت إذنها.

قبل أن تترك كامب شنيبر كانت هنادي قد أخبرتها عن ولادة أمها لأخيها الأصغر محمد، حيث قالت لها:..

- كان الله في عون الحامل، أنها تتعذب كثيرا حتى تلد، ولكن أطماني يا جنان وأبعدي الوساوس من رأسك؛ أمي حين ولدت أخي محمد لم يدم طلقها ومخاضها سوى ساعة زمن، ثم أنهت كل شيء في وقت قصير.
- لأن أمك يا هنادي كانت لها تجارب سابقة... كانت أميمة قد ردت عليها.

ذلك ما تذكرته حينها، وكأنَّ فكرها وافق ما ذكرته لها حماتها حين ولدت زوجها أحمد وما جرى مع المرأة الأفريقية أمام انظارها، تلك الوقائع خفت عليها روعها.

خلال تجوالها في الممر كانت قد شاهدة أحدى الحوامل تستخدم كرة بلاستيكية في تمارينها، أدعت بأنها تخفف الآلام وتساعد على الولادة الطبيعية، ودت تجربتها، هجست بشيء من الراحة وخاصة عند وضع قدميها عليها وهي منسدحة في السرير، كأنها تمتص ألم الظهر وعضلات الساقين.

بعد ساعة من المشي شعرت بإفرازات نزلت على ساقيها، ذهبت للحمام لتتبول وتستطلع وضعها، وإذا بها تشعر بخيط من الماء الدافئ ينحدر على فخذيَّها، حينها أخبرت الممرضة

بالحال، طلبت منها الممرضة المكوث في السرير، والتحول لغرفة الولادة.

كانت قد أخبرت الطبيبة بما حصل معها، صارت تأتيها نوبات الطلق بشكل دفقات خفيفة لا تشعر بها، تحسبها شيء من آلام الجسد، حينها كانت لا تدرك معنى الطلق الحقيقي. وحين لامست شدَّته؛ شعرت بقرب الولادة، آلام شديدة أشبه بآلام خلع المفصل عن الساعد، هكذا تراءى لها أول الطلق، كان قد جاءها المخاض بعد نصف ساعة من المكوث في غرفة الولادة، حينها تشبثت بالسرير، ثم بعنق زوجا كتشبثها بالحياة. اشتدت المعاناة، الكل يحثها على الصبر والثبات.

بعد ساعة زمن بدأ الطلق يأتيها بشكل دفقات خفيفة ومتوسطة الشدة كل عشرة دقائق، في البداية لم تعرف بأنها دخلت مرحلة الحسم من الولادة، وما أن تقدمت خطوة للأمام؛ حتى أدركت بأنها تخوض قدرها مع النزال. شعرت بألم قوي يعاود كرته كل ربع ساعة تقريبا. حاولت أن تنام قليلا فلم تستطع، القلق شغل بالها، جزل صبرها، أعترى جسدها، بات يفززها كلما أطبقت جفنيها على بعضها نتيجة الإرهاق والتعب الذي شاقها..

حينها قالت لها أمها:..

- هذه الآلام هي بداية الطلق، إقرئي أية الكرسي ليحميك الله، إقرئي المعوذات...

صارت تقرأ المعوذات وأية الكرسي وعينيها مغمضة، في ذات الوقت وضعت أمها كمادة على رأسها، مسحت جبينها الذي تفصد بالعرق، قرأت عليها بعض الأدعية، هجست بخيط من الطمأنينة يلامس قلبها وفكرها، كأنها تحولت إلى الفردوس، هجست بذاتها مغمورة بتلك اللحظة بالحنان والأمان، لحظات أنقضت عليها ثم انتفضت في مكانها مع شدة الألم، ما أن فتحت عينيها حتى وجدت أمها وزوجها يمسكان في يدها، أنها الروح تخفق في داخلها نتيجة ألم المخاض. قالت لها أمها:....

- لا تخافي يا أبنتي نحن بقربك، بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، يا رب يسر ولا تعسر.
- شممت رائحة ورود وخضرة ملئت أنفاسي.
- لا عليك يا ابنتي، أنه الرحمن ينزل الرحمة على قلبك، ستولدين وتكونين بصحة وعافية.

تشبثت يديها بيد أمها وزوجها، لمست قلق زوجها عليها، حينها قالت له:...

- يا أحمد الألم فضيع، ولكن لا تخف ستكون أب، أسندني، أحضني.
- تشجعي يا حبيبتي، أعرفك قوية، ستلدين بسلام أن شاء الله.

كان يقف إلى جانبها مكتوف الأيدي، ينتظر الفرج من عند الرحمن. بين لحظة وأخرى كان يدلك ذراعيها وساقيها، هجست براحة خلال دلكه. ما أن تجاوزت الساعة الخامسة

عصـرا؛ صـار الطلـق يتكـرر معهـا كـل عشـرة دقـائق، أسـتمر الوضـع قرابـة سـاعة زمـن، ثـم صـار يـأتيني الطلـق كـل خمسـة دقـائق. حينهـا هجسـت بروحهـا طـائرة فـي سـماء الغرفـة مـن شـدة الألـم. تهجـس بـذاتها تحـاول الامسـاك بهـا فتفلـت مـن قبضـتها ثـم تعـود إليهـا، كطفـل يتبـع فراشـة يحـاول الامسـاك بهـا، تـذهب حـد النافـذة ثـم تعـود إليهـا، تلعـب معهـا لعبـة الشـغف والإغـواء، كخـيط دخان تهجس بها في شهيقها وزفيرها، لا تستقر على حال.

كانـت الطبيبـة تعـاود زيارتهـا كـل نصـف سـاعة تقريبـا لتـرى مـدى تقدم حالتهـا، وفـي كـل مـرة تقـيس مقـدار اتسـاع المهبـل. ففـي المـرة الأولـى قالـت أن فتحـة الـرحم متسـعة بمقـدار 3 سـم وفـي المـرة الثانيـة قالـت أنـه متسـع بمقـدار خمسـة سـنتمترات....الخ، قالـت لهـا لـن تولـدي إلا أذا تجـاوز اتسـاع المهبـل 10- 12 سـم. نصـحتها بالحركـة والسـير داخـل الغرفـة، وطلبـت مـن القابلـة دلـك منطقـة المهبـل بالزيـت ليتسـع ويكـون أكثـر مرونـة. كانـت قـد طمأنتهـا على صحتها، قالت لها:...

- ستولدين خلال ساعتين بأذن الله. الصحة عال العال.

كانـت تلـك الكلمـات تمـدها بـالعزم والقـوة، وكانـت قـد ركبـت لهـا جهـاز قيـاس نـبض الجنـين فتطمأنـت علـى صـحته، ثـم تركتهـا الطبيبة لتراجع مرضاها الأخريات.

فـي البدايـة كـان الألـم يرتكـز أسـفل الـبطن، كانـت الطبيبـة قـد قالـت لهـا بـأن هـذا الطلـق كـاذب، لـذا تركتهـا فـي غرفتهـا قرابـة سـاعة

زمن. بعد أن أشتد الطلق صار يرتكز الألم اسفل الظهر وحول البطن؛ حينها أهتمت بها، قالت لها قربت ولادتك.

إذا قربت الساعة، صارت تحوقل وتحمدل، صارت تكرر وتردد عِبارَةِ لاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ العلي العظيم والحمد لله ولا اله الا الله والله وأكبر وحده لا شيرك له.. باتت تستعين بعد الله بزوجها التي تشبثت بعنقه.

بعد الساعة السادسة فحصتها الدكتورة وقاست توسع عنق الرحم فوجدته بسعة 7 سم، وطلبت من الممرضة مساعدتها في تدليك عنق الرحم. هكذا أستمرت معها مدة عشرة دقائق تقريبا، ثم تركتها وقالت لها إذا ما أستجد طارئ أخبروني في غرفة الممرضات.....

في هذا الوقت أحست بالجوع، فأنطلق أحمد للأسواق ليجلب لها من مطعم مجاور للمشفى طبق من الكباب العراقي، أكلت شيشا منه مع شرب لتر من الماء كانت أمها قد نصحتها بذلك، استعادت به قوتها. كانت أمها تلح عليها أن تأكل المزيد وتشرب أكثر ليساعدها ذلك على الضغط على الجنين ليشق طريقه نحو الأسفل ليخفف عنائها. حينها حاول أحمد ممازحتها قائلا:.....

- سأذهب إلى سيارتي لأجلب منفاخ العجلة وآتي بالحال!
- لِمَ يا أحمد، ماذا تفعل بمنفاخ العجلة في هذا الوقت العصيب؟

قالت له جنان وهي مذهولة ومستغربة من تفكير زوجها. فقال لها:...

- أنفخ به بطنك ليساعدك على الولادة.
- كف من هذرك فأنا لست على ما يرام.
- ألمْ تقل أمك بأن الأكل والشرب يضغط على الجنين ليشق طريقه، فالمنفاخ أكثر جدوى، حينها يتسع المهبل ويخرج الطفل دون ألمْ. هههههههههههههه.
- هذا وقت مزح أنا بأي حال.....

ابتسمت رغم شدة المغص وما يحز ظهرها من وجع أشبه بألم الحرق، صارت تصرخ عليه وتطلب منه الخروج من الغرفة قائلة؛...

- أنا بأي حال وأنت تضحك عليَّ.

بعد ذلك طلبت من أمها أن تساعدها في المشي داخل الغرفة، مشت فترة ربع ساعة تقريبا حتى كلت قدميها، شعرت بالتعب يسري بساقيها كما الدم في الوريد، أنهكت تماما. حينها انسدحت على السرير رافعة ساقيها على سطح كرة اليوجا، أحيانا تأخذ وضع السجود ليدلك زوجها منطقة أسفل الظهر، شعرت بالراحة، هجست بيده كمن بها سحر، لمست بها جاذبية ودفء ورحمة أزاحت من ظهرها وشم الألم. بينما كانت أمها منشغلة بالأدعية ووهي تمسح صبب العرق عن رقبتها وجبينها قائلة لها:....

- الله يحفظك يا أمي، لم أشعر بحقيقة مكانتك إلا الآن.

حينها سألها زوجها بم يسرح فكرك؟؟ قالت:...

- أسرح بعيدا حين يذهب عني الطلق والألم، أشعر أنني لست هنا، أهجس بنفسي تنفصل عن ذاتي، أرى الموت يطوف في الحدق، يترقبني، يرعبني، أهجس بالروح تنسلخ عن الذات فأسقط إلى الأرض كورقة خريفية.... أو تغور في السدم كطائر حر، نورسي. ما أن يعاود

الطلـق حتـى أكتشـف ذاتـي مرميـة علـى السـرير والألـم كالنـار يسـري بجسـدي.. أبقـى سـارحة بخيـال يطـوف بـين مـزيج مـن ألـوان التفـاؤل والغثيـان، أحيانـا الحالـة التـي أنـا بهـا تثيـر مزاجـي وأعصـابي، لـذلك صـرخت عليـك يـا أحمد حين مـازحتني، أهجس بـأني لا أطيـق أحدا فـي هـذه اللحظـة، مـررت بوضـع لا أتقبـل فيـه المـزاح قـط، أنـت السـبب، أكرهـك، انـت الـذي عملـت بـي كـل هـذا التشوهات، احملك مسؤولية نفسي وما أنا فيه..

- انـت حبيبتـي وروحـي، كنـت أمازحـك كـأني امـازح روحي فقط. كي أغير شيء من مزاجك.
- أحبك.

باتـت تبتسـم لـه، العـذاب الـذي تحملتـه فـاق تصـورها، مـا أن أنقضـت فتـرة الهدنـة حتـى عاودهـا الطلـق، بـدأ يخاصـمها بشـكل تصـاعدي، أبتـدأ مـن السـاعة الثانيـة ظهـرا حتـى قُرابـة السـاعة السابعة مساء، فترة رأت بها الكون والخلق على حقيقته.

فـي تمـام السـاعة السادسـة والنصـف مسـاءً فحصـتها الطبيبـة وقالـت لهـا:... لازال هنـاك وقتـا للانتظـار. طلبـت منهـا جنـان بـأن تسـاعدها وتجـري لهـا عمليـة قيصـرية لتـتخلص مـن هـذا العنـاء والألـم، لكنهـا رفضـت. قالـت لهـا وضـعك جيـد جـدا، والعمليـة مُخَلّفاتها كثيرة وغير مضمونة، وأنها ليست ضرورية.

كمـا رفضـت أمهـا مـا دار فـي ذهنهـا، نتيجـة الرهـق الـذي اصـابها، والمعانـاة التـي انعكسـت علـى سـلوكها. حيـث مـع مـرور الـزمن تـزداد المتاعـب النفسـية والبدنيـة للحامـل، فـي نهايـة المطـاف

تتحول بذاتها إلى خرقة تتلاعب بها الأعباء، تفقد طاقتها وصبرها وعقلها وظنها وثقتها بنفسها وسيطرتها على ذاتها، في تلك اللحظة تحتاج إلى من يؤازرها ويخفف عنها الهم والكرب والمعاناة.

في تلك اللحظة كان زوجها يعينها، يؤازرها، يسندها.. ألا أنها كانت منهكة القوى تهذي مع نفسها. لم يقصر زوجها وحماتها وأمها في خدمتها، مع ذلك كانت أحيانا تصرخ عليهم وتقلل أدبها معهم، تقلل من شأنهم، كل ذاك دون وعي منها.

كانت الممرضة قد ركّبت لها جهاز قياس نبض الجنين مرة اخرى ليتأكدوا من صحته، ثم حدثت معها عملية استفراغ شديدة، تقيئت بها، لعبت نفسها، ربما أثرت عليها روائح أدوية المشفى.

بعد أن تعبت حالتها، طلبت من الممرضة زرقها بإبرة مضادة للاستفراغ عن طريق العضل، بفضلها وجدت راحة تغمرها حامدة الله. حينها تذكرت المرأة الآسيوية الحامل، سألت الممرضة عن حالها وما جرى لها، قائلة لها:...

- ما أخبار المرأة الأسيوية؟
- لا تشغلي بالك بها، ولادتها عسيرة لأنها عندها مرض الأنيميا. أو فقر الدم. أجروا لها عملية قيصرية وهي في الأنعاش.
- الله يساعدها ويشفيها.

عند الساعة 8 مساءً حضرت الدكتورة وقاست توسع عنق الرحم فوجدته بسعة 8 سم، حينها تشجعت وحثتها على الصبر والتحمل وطلبت من القابلة تدليك عنق الرحم بالزيت للمرة الأخيرة، أصبحت الولادة وشيكة، وكان الطلق قد أشتد، طلبت من الطبيبة إعطائها إبرة الظهر، إلا أن أمها منعتها، خوفتها، قالت لها بأنها ممكن تؤدي إلى الشلل التام في حالة أن أخطأت الممرضة بزرقها قدر شعرة، ثم أنها تؤدي إلى ارتخاء العضل وتأخر طلق الولادة، فنصحتها على تحمل الالم على أن يخف الطلق، ربما ترهقها وتؤدي إلى فتح البطن.

كانت الأم قد أصابت برأيها، فتحمل الألم والصبر عليه أجدى. كانت تتوقع بأنها مستحيل أن تكمل ما بدت به لفقدانها ثقتها بنفسها مع شدة الالم المصاحب، كانت قد أوصت زوجها بأن يشد أزرها مع اشتداد الطلق، أن يمسك بيدها، أن يعينها على الدفق. حينها التصق بها، ظلَّ يقرأ آيات القران على رأسها طوال فترة الولادة، وبالذات آية الكرسي والمعوذات. لقد قلق عليها كثيرا.

مع اشتداد الطلق قالت لأمها:...

- سامحيني يأمي، لن أستطيع التحمل أطول.
- بماذا تشعرين يا أبنتي؟
- اهجس بالنار تضرم أحشائي.
- أصبري يا أبنتي هانت الأمور، أنها عملية خلق، يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١ البقرة﴾.صدق الله العظيم

- والنعم بالله.

في تمام الساعة 9 مساءً صار الطلق يأتيها كل دقيقة. توسع عنق الرحم لعشرة سنتمترات ونصف: بحضور الطبيبة والقابلة وجمهرة من الممرضات قربها، طلبت منها الطبيبة أن تدفع بالجنين، قبضت على يد زوجها وصارت تدفع بكل قواها، زوجها يقول لها هانت ها هو شعر رأس الطفل بائن. وضعوا خلف ظهرها مسند، بعد أن رفعوا السرير لتكون أقرب إلى وضع الجلوس من النوم، الكل حثها على الدفع وهي فاقدة القوى، لا أدري من أين جاءتها القوة في تلك اللحظة بحيث باتت تشهق وتزفر أنفاسا عميقة، دفعت بكل ما لها من قوة. حينها وحسب ما ذكر زوجها، أخرجت القابلة مقصا من حقيبتها وقطعت حلقة العجان بمقدار أنج ليتسع المهبل، خوفا على الطفل من حالة التشوه والاختناق.. أخيرا تمكنت من ولادة الطفل وسماع صراخه، كانت حينها أشبه بفاقدة الوعي، بعد أن أصابها نزف بسيط مع قص حلقة العجان عند الولادة، عالجتها في الحال بأربعة وخزات خياطة..

أهتمت القابلة بإخراج المشيمة وتنظيف الرحم وخياطة منطقة العجان، كل ذلك دون بنج، لشدة الألم لم تشعر بشيء حيال ذلك، ثم وضعوا الطفل في حجرها، قبلته، أحست براحة بعد أن تيقنت من صحة طفلها، لقد أكملت المهمة على ما يرام. ثم أخذه أبوه يبسمل بأذنه ثم أذن بأذنه ثم قرأ آيات من القرآن والمعوذات.

بعدها أغمضت عينيها لتذهب بسبات طويل، جل عن جسدها التعب والارهاق، استمرت في نومها مدة ساعتين، حين استيقظت وجدت أحمد وأمها يجلسان عند راسها وأبنها مطروح في المهد، عندها ابتسمت لهما ابتسامة المنتصر.

حضرت القابلة لتطمأن عليها كما زارتها الطبيبة لترشدها وأعطتها بعض الأدوية التي تعينها على الآلام وإعادة التأهيل، وطلبت منها مراجعتها بعد العودة للمنزل خلال فترة اسبوع لتطمأن على صحتها وصحة الجنين.

المتنبي

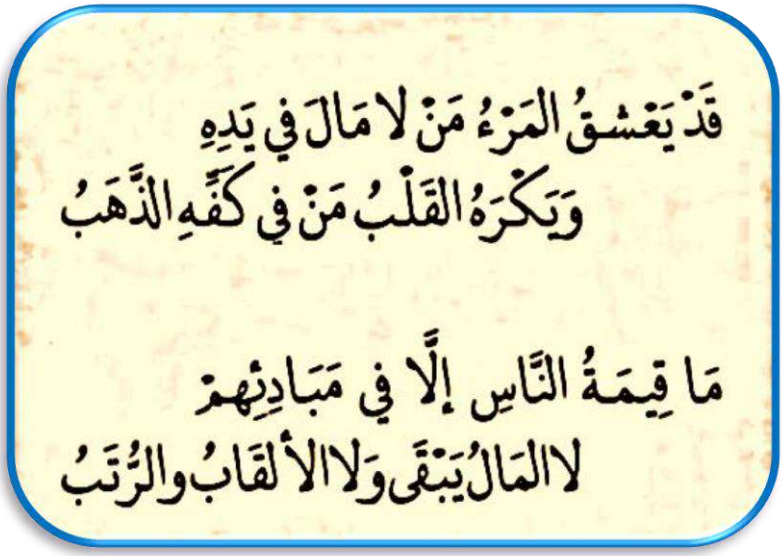
قَدْ يَعْشَقُ المَرْءُ مَنْ لا مَالَ فِي يَدِهِ
وَيَكْرَهُ القَلْبُ مَنْ فِي كَفِّهِ الذَّهَبُ
مَا قِيمَةُ النَّاسِ إِلَّا فِي مَبَادِئِهِمْ
لا المَالُ يَبْقَى وَلا الأَلْقَابُ وَالرُّتَبُ

14-زيارة هنادي واميمة

بعد أن تعدت فترة النفاس (أربعين يوما بعد الولادة) حظيت بزيارة هنادي وأميمة لمباركتها بقدوم صفاء، استقبلتهن برحابة صدر بعد أن تشرفت بقدوم ضيفها صفاء، وبعد أن شفيت واستعادت صحتها وعافيتها، عندها روت لهن قصتها الايجابية مع الولادة الطبيعية، شرحت لهن ما لاقته من صعوبات من بداية ذهابها للمشفى وحتى تشريف صفاء بسلام، كيف بدأت الولادة وكيف انتهت منها!. كانت هنادي قد سألتها قائلة:.....

- كيف كانت ولادتك يا جنان؟ أشرحي لنا عسى أن نستفاد من تجربتك في المستقبل.
- هيا؛ استعجلا الزواج، عليكن الزواج وعليَّ إغناءكن بالمعلومات الكافية، عليكن أن تعلما بأن كل شيء جميل فيه من ليلة الزفة وحتى أنجاب طفلك الأول. هل تعلمان بأن المتعة تكون في الآلام المصاحبة للحمل، بعد تلك الآلام يقدم الله للأم هديته، طفل يكون سند لها في الحياة، أنظرا؛ هذا ما قدمه لي الباري عز وجل، أنه حبيبي صفاء.
- قولي غيرها هههههه، يقولون المتعة في شهر العسل وباقي فترة زوابع ثوم وبصل، هههههههه- قالت ذلك أميمة ثم اتجهت إلى الطفل مهنئة - قائلة:... تبارك الرحمن أنه يشبهك أنه وسيم.
- لازال صغيرا بعمر شهرين، لم تتوضح معالم وجهه بعد، المهم لون عينيه بلون عيني أبيه.

- هذه دلالة على محبتك لأحمد، تنازلتِ عن لون عينيه لوالده، لكنك احتكرت باقي المزاياه لنفسك. قالت ذلك أميمة.
- ربما هذه حقيقة يا أميمة، والحقيقة ما قلته لكنَّ، الزواج متعة لو كان زوجك مخلص معك ويحبك. والله ما اقوله انها الحقيقة، لا تحسي بالمتعة الحقيقية إلا بعد الولادة، المتعة تكون مصاحبة لك إذا كان زوجك رجل فاهم وطيب القلب وحنون.
- اوافقكِ الرأي على كل ما ذكرتيه، دعني أقبل أبنك الوسيم أولا... هل تعلمين يا جنان... أمي في الاساس مريضة سكري وتزوجت أبي، فكان لها نعم الزوج، كان قد أنساها هموم الدنيا والمرض ولايزال يعتني بها كطفلته..
- أبوك رجل طيب يا هنادي، يحب أمك، بل يعشقها، من خلال رؤيتي له لمست طيبته وسعة قلبه وذهنه، أنه رجل محترم... على كلٍ أولا أشكركن على قدومكن وهديتكن، والآن أود أن أشرح لكنَّ ما جرى معي خلال الولادة...
- هيا شجعينا على الزواج. ها أنا قد اتفقت مع خطيبي مراد على الزواج مع بداية رأس السنة الجديدة، كنت قد تعرفت عليه في العمل، شرحت تفاصيل العلاقة لهنادي.. قالت ذلك أميمة.
- أن كنت تتحملي منغصات الطلق وافقيني. قالت هنادي.

- ومع ذلك لابد أن نتزوج شئنا أم أبينا، أنها الطبيعة يا هنادي، هيا رافقيني..
- أظن سأرافقك ولكن العجينة لازالت غير مختمرة.
- يتمم الله على خير، أخبريني يا جنان، كم طالت فترة الطلق، عندما أتذكر الموقف أكره الزواج؟ سألت أميمة.
- العبرة ليس بالطلق، أنما بالنتيجة، فلا شيء له قيمة وحلاوة دون عذاب. ثم قصت لهنَّ قصتها من الالف إلى الياء.

عندها قالت هنادي:....

- لا اريد العنب ولا زراعته، ولكن ما شاء الله على صبرك وتحملك...هل تعلمين بأن هناك شخص متقدم لخطوبتي، سأخبر أمي تصرفه، بطلت الزواج، دعيني أكون ملكة نفسي، لا أتحمل كل هذا الشقاء..
- يا هنادي هذه دورة الحياة، لن تستطيعي أن تجردي ذاتك منها، أحيانا أتصفح حياة الفنانات، كلهن نادمات على عدم زواجهن أو عدم تمكنهن من الخلفة، دائما ما يشعرن بالوحدة. أفرضي عندما تكوني بعمر الخمسين أو السبعين سنة مثل لبلبة أو وسعاد حسني وسهير رمزي ونبيلة عبيد ...الخ اللاتي بقين دون زواج أو دون خلفة، كنَّ كرهن أنفسهن. صدقيني سيأتي يوم به يتخلى عنك الجميع إلا فلذة كبدك. ثم الحياة دون أولاد وزوج وناس من حولك يعينونك ويلبوا رغباتك

ويخففوا متاعب الدنيا والوحدة ليس لها طعم ولا لذة ولا رائحة زكية، حياة فارغة، كئيبة. تصوري قبل أيام قرأت بالجريد رجل مسن مات في مدينة كيمنتس الالمانية، لم يعرف به أحدا ولم يسأل عليه أحد طوال مدة سنة ونصف، بعد تلك المدة الطويلة تفقدوه جيرانه، لمحوا ملابسه المنشورة على المنشر منذ زمن، ذاتها لم تتغير ولم يرفعها، حينها أبلغوا الشرطة، خمنوا أنه مريض.... حينها جاءت الشرطة وكسرت باب بيته، وجدوا هيكل عظمي ممدد على فرشته. هكذا حال البشر الوحيد، مات ولم يعرف به احد.

- صدقت يا جنان، هنادي ارتعبت من ما حصل معك، كونك حامل بكر. أعتقد الحمل الثاني والثالث تختفي هذه المتاعب.
- هههههههههه، أيه يا أميمة، حمل ثاني وثالث! مستحيل طبعا، أنه حمل واحد فقط.
- عندما يكبر أبنك ويصبح بعمر سنتين، يحتاج لطفل يلعب معه، يسليه، كي لا يتوحد، عندها ستفكرين بمصلحة طفلك وتنجبين آخر، هذا ما أخبرتني به أمي حين سألتها لم أنجبت سبعة.

في تلك اللحظة دخلت جنان المطبخ لتجلب صينية الشاي وقطع الكيك لتحلى الجلسة أكثر، بينما حضر أحمد ومعه وجبة عائلية من ما لذ وطاب جلبها من المطعم الذي يعمل به. لقد تفرغت جنان لتربية وليدها وتنظيف البيت بعد أن حمل عنها عناء متاعب التركيب طالما يطبخ في مطعمه أنواع الأكل. ثم أكملت

حـديثها عنـدما سـألتها هنـادي عـن وضـعها وشـعورها بعـد الإنجاب:....

- أحسست براحة عظيمة، أنهيت المهمة التي كلفت بها على ما يرام. بخروج الطفل كانه قد سحب من جسدي كل الألم، هجست بإحساس غريب ونشوة. نجحت في الامتحان بإنجاز أعظم منجز في حياتي كلفني به الله، بذلك المنجز تشعر المرأة بأنها وفت ما طالب الله منها، عرفتُ سبب وجودي في الحياة. كل شخص في الحياة له مهمة ورسالة يجب عليه أن يؤديها على أكمل وجه ليلقى استحسان الله به، عليه أنْ يتمم واجبه إلى جانب العبادة، لتتواصل الأجيال في بناء الأرض حتى يوم القيامة. الحمد لله كانت تجربة محفوفة بألطاف ربي ورحمته وما كانت سهلة أبداً، لكن يسيرها الله و دبر أمرها، جعلني أتحمل وزرها، لا أدري الى الان كيف تحملت تلك المتاعب.. الحمدلله.
- الحمدلله على سلامتك.
- الله يسلمكن، بعد خياطة العجان وضعت صفاء على صدري وبدأت أرضعه. أنها أجمل لحظات العمر، ثم نتيجة الإرهاق الذي أصابني نمت نومة عميقة مدة ساعتين. وحين جلست وجدت أمي وأحمد قربي، ينتظران إفاقتي.
- إذا لم تستخدمي المنفاخ (البمب) هههههههههههههه.
- هههههههههه، لالالالا

يقول سبحانه وتعالى:...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الـرَّحِيمِ يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُـمُ الَّـذِي خَلَقَكُـم مِّـن نَّفْـسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَـثَّ مِنْهُمَـا رِجَـالًا كَثِيـرًا وَنِسَـاءً وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّـذِي تَسَـاءَلُونَ بِـهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١ النساء).

- يـا جنـان هـذه القصـص والمواقـف المفـروض كـل فتـاة تتسلح بهـا قبـل أن تخـوض جـدياً الحمـل، ففـي فهـم الـولادة بشـكل تفصـيلي واضـح تزيـل نصـف المخـاوف أو تخفـف من أهوالها ومصاعبها.
- كنـت قـد بحثـت وسـألت؛ حتـى هـداني الله لكتيـب يـتكلم عـن تجـارب نسـاء الحوامـل فـي الـولادة الطبيعيـة، لأنـي مؤمنـة بأهميـة العلـم والـتعلم عـن موضـوع الـولادة مـن تجـارب وحقـائق مـرت بهـا نسـوة حوامـل، هـذه القصـص تكـون أصـدق للواقـع، خصوصـاً أنـي لا أحـب سـماع هلوسـات الحـريم الغيـر متناسـقة وغيـر متناهيـة...بعـض النسـوة يفتـين مـن (كيسـهن) ومـن تجربتهـا الشخصـية أو مـا تعلمته من جدتها أو أمها وليس له أي اثبات علمي...
- ما اسم الكتيب؟ دعينا نتطلع عليه.
- حسـنا، المهـم تغيـرت نظرتـي التامـة عـن الـولادة الطبيعيـة، هـدأت نفسـيتي عـن مـا كنـت قبـل أن أطلـع علـى تجـارب النسـاء، وشـعرت أن الموضـوع وردي وأليـف وجميـل، وأن قـدرة الله فيـه أكبـر مـن كـل تصـوراتنا وتفكيرنـا. سأرشـدكم إلـى الكتيـب وإلـى مـا دونـت خـلال فتـرة الحمـل مـن ملاحظـات سـجلتها لتكـون كتيـب ثـانٍ تستفدن منه.

- جميل جدا، ألم تتخوفي من نتائج الحمل؟ قالت أميمة.
- الكثير من القلق والآلام صاحبتني نتيجة رهبة المواقف ورعب المشفى، تصورات عقلية مخزنة في باطن ذاكرة كل إمرأة قبل الولادة، مثل الألم لا يحتمل، مثل الشعور بألم الحرق، المهبل ضيق قد يتشوه أو يتشوه الطفل، هذا إلى جانب توسع المهبل بعد الولادة مما يؤدي إلى عدم أحساس المرأة بالنشوة الجنسية بعد الولادة...الخ وهكذا من أحاديث وحكايات الحريم اللامتناهية والتي معضها لا أساس لها من الصحة إلا الشيء اليسير.

علما بأن الله خلق المهبل كالمطاط، يعود إلى وضعه الأصلي بنسبة 80% على ما كان عليه قبل الولادة.

- وما أخبار الآسيوية يا جنان بقيت تشغل بالي؟ هل زرتها هل سألت عنها قبل خروجك من المشفى؟.
- بعد أن استرجعت قواي طلبت من الممرضة إرشادي لغرفتها، لأقوم بواجب الزيارة قبل خروجي من المشفى، لكنها قالت لي مع الأسف لن تستطيعي زيارتها، لأننا تمكنا من الحفاظ على سلامة الطفل فقط، أما هي فلم تحتمل البقاء.

هكذا صارت تعيش حياة زوجية شبه مستقرة إلى أن انفكت عن دائرة الهجرة (السوشيال) بعد سنة من العناء من لحظة تسجيل اسمها في دائرة الهجرة، بعد أن حصلت على إقامة لمدة سنة واحدة، على أن تتجدد في حالة لم يتغير وضعها.

خلال هذه السنة تمكنت من تثبيت زواجها لدى محاكم لايبزك، وبذا صارت مرتبطة بزوجها الحاصل على الجنسية الألمانية منذ فترة طويلة بشكل رسمي، حينها تمكنت بعد مرور سنة من الحصول على الإقامة الدائمة.

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين
رواية ومجموعات قصصية

مجموعات قصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثاني

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الاقدام المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراغ
11- القمة
12- عقاب الذات

أضحت بوحدتها كدمية مركونة على فرشة بالية تصرخ خيوطها من الدعس وكثرة الاستعمال، تهلهلت مكوناتها من كثر الغسل والشطف، فالسرير ليس سريرها، والفرشة ليست فرشتها، ولا المخدة التي أسْمّلت خيوطها، والتي عبثت بها أنفاس وأحلام وتهيؤآت مختلفة مخدتها، تشعر بها مليئة بالزن والخرش والنفش والحرش والعقارب وهوام كوابيس شيطانية تنبعث من ثناياها، فتخيفها في وحدتها، وتلسعها في منامها..